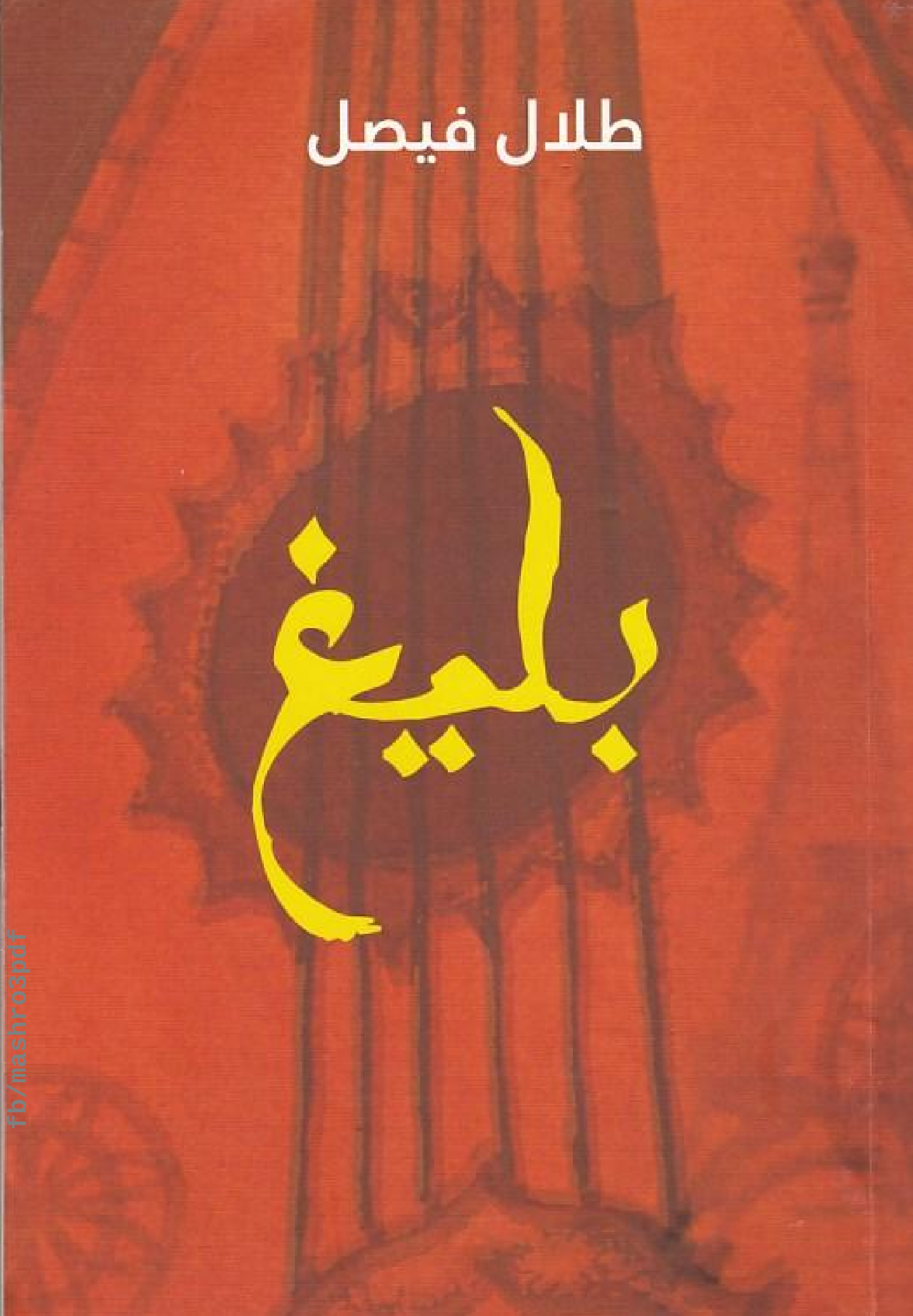

طلال فيصل
بليغ


بليغ

# بليغ

## طلال فيصل

الغلاف: هاني صالح

**الطبعة الأولى ٢٠١٧**

تصنيف الكتاب: أدب / رواية



٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠١٦/٢٥٩٤٣
ISBN 978-977-09-3403-6

# طلال فيصل




دار الشروق

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى

إني أخاف عليكمو أن تلتقوا

**أبو العلاء المعري**

ثمة شيء مشترك بين الله والحب:

الجميع يتكلم عنه ولم يره أحد

**فرانسوا دو لاروشفوكو**

* من كتاب «تأملات ومواعظ وأمثال أخلاقية» المشهور بـ «كتاب الأمثال».

فقالوا ما ثبات عندنا إلا بشرط: أن تدخل تحت الحكم ومهما رأيت فلا تسأل عنه ولا عن سببه. فقال: نعم. فقالوا: قم واقرأ الكتابة التي على الباب..فقام إلى الباب فوجد مكتوبا عليه بماء الذهب: «من يتكلم فيما لا يعنيه يسمع ما لا يرضيه».

**ألف ليلة وليلة**

# الطبيب النفسي

الصوتُ جميل، الصوت بالغ الجمال؛ لم أسمع شيئا في قوته أو نقائه أو عذوبته من قبل. الصوتُ يتردد واثقا بجماله ويتركني منتشيا، تكاد عيناي تدمعان من فرط المتعة والسرور. أدركُ على مهل أن هذا الصوت لمؤذن ينادي للصلاة. بل وأعرف أيضا، دون أن أفهم كيف توصلتُ لذلك، أنه يؤذن لصلاة الفجر. رغم استمتاعي بالصوت وبالأذان أبدأ رويدا رويدا ألاحظ شيئا غريبا، وأتساءل في حيرة: كيف؟ إن الأذان الذي يتردد ينطق بالفرنسية! تزول النشوة، يبدأ قلبي ينقبض، وأشعر بنفور تامّ. أتساءلُ، هل يصح ذلك، أو يجوز؟ كان الأذانُ أذانَ الله، كما اعتدنا عليه في طفولتنا وصبانا، لكنه ينطق بفرنسية واضحة، ناعمة، ما ألبثُ أن أدركَ بشيء من التركيز أن صوت مؤذّنها صوتٌ حريمي متغنج! أعوذ بالله! يزداد شعوري بالانقباض، فيما صدى ذلك الأذان العجيب يتردد في الفضاء بلا نهاية.

الصوت يتردد بين النقاء والغواية، في فضاء أبيض لا أرى له آخرا. وحين أفتحُ عيني، أميّزُ صوت الرنين، وألمح، بين الغفو واليقظة، رقم عيادة الاستقبال على شاشة جهاز الاستدعاء. أستيقظ تماما، وأدرك أني نعست رغما عني، جالسا أمام الكمبيوتر، في غرفة الأطباء المقيمين المعتمة المقبضة. أستعيذ بالله، وأبتسم من ذلك الحلم العجيب. تُرى أين الزميل فرويد أو الزميل يونج ليفسره لنا في منتصف الليل. أستعيد ذهني تماما. أطلب عيادة الاستقبال فيجيئني صوت الممرضة مارجا البدينة، عسولا متأففا، بلكنتها الفرنسية الشمالية، الفلاحية، الخشنة:

ـ هل كنتَ نائما؟

ولا تنتظر إجابتي، تضيفُ بسرعة:

ـ عندنا حالة، جاء بها البوليس الآن. انزِل.

أجيبها بأني سأنزل فورا، فتقول، كالعادة، فيما لا يمكنك الجزم ما إذا كان تعبيرا عفويا أم وقاحة مقصودة:

ـ سنحتاج إلى مهارتك اللغوية كذلك. إنه عربيّ، يتكلم المصرية مثلك؛ ألا يتحدث العربُ اللغة المصرية؟

تمط ألف المد في Les arabes وأفكر في أن أشرح لها أنه لا يوجد شيء يدعى اللغة المصرية، إلا أن العمر أقصر والمرارة أضيق من أن تضيعها في الشرح لمارجا البلهاء الوقحة. أقول مُنهيا الحوار:

ـ أنا نازل حالا.

أستلم الملف الخاص به، ألقي نظرة من وراء النافذة الزجاجية العريضة على الضابطين الواقفين بالخارج، والفتى النحيل الملتحي الجالس على كنبة الانتظار بالكلبشات في يديه! أقلب في الملف ولا أجد شيئا سوى كارت التأمين الصحي وعليه اسم المريض وصورته وورقة من شرطة الحي مكتوبة بخط رديء، تتبين منها كلمات متناثرة: محاولة اقتحام، اتصال، تهيج، ثم تلك الكلمة الفرنسية الجميلة المتكررة في كل نبطشية مرة على الأقل، Harcèlement والتي ترجمتُها، معاكسة، أو تحرّش، تقريبا. ألقي نظرة ثانية على الفتى الجالس بالخارج، والذي يبدو أنه لا يمنعه عن ارتكاب حماقة ما إلا ضعفه وإنهاكه الواضحان. ألمحه يحاول دفع الضابط بيدين مكلبشتين خائرتين فتطيش الضربة في الهواء. يضع الضابط يديه على كتفيه برفق ويجلسه، فيرمقه الفتى بنظرة حادة. أقرأ

الاسم المدون على البطاقة، أطلب من الممرضة إجراء فحص كحول في التنفس؛ إذ غالبا ما يكون المريض في هذه الحالات مخمورا أو متعاطيا لمخدر ما ثم أبحث في الكمبيوتر عن اسمه، طلال فيصل، ولا أعثر على شيء؛ أي لم يدخل مصحة نفسية من قبل، وليس لديه سجل مرضي لدينا ولا في باقي مستشفيات فرنسا. تعود الممرضة وتقول إن نسبة الكحول في التنفس صفر. يمكنني الآن أن أخرج لهم. ألقي نظرة أخيرة على المشهد، على الفتى المتهالك بين ضابطين فرنسيين، قبل أن نبدأ محاولة الفهم.

لسبب ما، غامض، يتعرف المصريون بعضهم على بعض في الغُربة! احتلّنا طوب الأرض فلم يبق لنا شكل واضح ولا ملامح مميزة حافظت على نقائها العرقي، نسبيا، مثل الأفارقة أو الهنود أو السلافيين. ووقعُ اسم الفتى المدون على بطاقة التأمين الصحي ليس مصريا، ولكن بالأحرى خليجيّ أو عراقي. أتأمل ملامحه، إذ يمكن لهذه الملامح أن تكون لأي جنسية عربية أخرى. غير أن واقع خبرتي بعد عامين يقول إن المصري يعرف المصري، ولم أفهم أبدا كيف! ربما من وقفته المتراخية، مشيته الثقيلة، ابتسامته الساذجة اللئيمة، ارتباكه بسبب وبدون سبب، حركته الخجولة المتعثرة وشعورك - أو شعوره - الدائم بأنه نصّاب على وشك أن ينكشف أمرُه. مضيت إلى الفتى شبه موقن أنه سيكون مصريا. ولم يكذب هو ظني، ولا ترك لي مساحة لأستفسر. ذاك أنه أول ما رآني رفع بصره إليّ، وقال بصوت منكسر حاد، وبحنجرة يبدو أنها استهلكت صراخا:

- كسّم الحب يا دكتور. كسّم الحب!

باستثناء هذا التعليق يرفض الفتى تماما، وبحدة، الكلام بالعربية. يحاول شرح ما حدث بفرنسية مفهومة نوعا ما - رغم امتلائها بالأخطاء، ولجوئه كثيرا للكلام بالإنجليزية لشرح ما يقول، ولم يكن من الصعب

أن ترسم صورة عامة للحكاية. كان مرتبطا بفتاة فرنسية ويبدو أنها أرادت إنهاء العلاقة، ويبدو أيضا ـ كالعادة في مثل هذا النوع من الحكايات ـ أنه لم يتقبل ذلك. ذهب إليها عند البيت وحين رفضت أن تسمح له بالدخول ظل يطرق الباب و يرن الجرس بطريقة هستيرية محاولا اقتحام المنزل حتى اتصلت الفتاة بالشرطة. يخبرني الضابط أن الفتى دفعه في صدره بعنف وهو يصرخ ويحاول مواصلة طرق الباب. كان ينادي عليها، يبكي، وينتزع أوراقا من حقيبته يدفع بها، من تحت الباب، داخل شقتها. لم تفلح محاولات الضباط، وفق روايتهم، في السيطرة عليه فاتصلوا بعربة الإسعاف وجاءوا به من مونبارناس إلى أقرب مصحة ـ هنا ـ عندي في مستشفى سانت آن. يقدم لي المُسعف ورقة بها وصف عام لحالته: التوتر والعدوانية وفقدان السيطرة عليه، وورقة أخرى ببيان حالته القانونية: أنه لاجئ وأنه يقيم في بيت للاجئين! يضيف بشكل دراماتيكي:

ـ نحن لا نعلم عنه شيئا!

أطلبُ من الشرطة أن تفك الكلابشات، فينزعونها في حذر وينزلونه من على سرير الإسعاف. أصحبه مع ممرضتين إلى غرفة العزل في العنبر المغلق. لا يبدي الفتى أي مقاومة، يمشي أمامنا في استسلام منكسر. يجلس على المرتبة الخالية في حجرة العزل الضيقة، ويسأل بصلافة:

ـ كم من الوقت سأبقى هنا؟

تتولى مارجا الجواب وهي تضع اللحاف وزجاجة الماء بجواره:

ـ لا نعرف بعد. هل تريد أن تأكل؟!

يهز رأسه فتلقي له بعلبة بسكويت:

ـ الإفطار في السابعة. يمكنك الآن أن تتحدث مع الطبيب. إنه يتحدث نفس لغتك كما أظن.

يكرر رفضه الكلام بالعربية. أحيانا كان يصعب عليه فهم أسئلتي فكنت أعيد صياغتها بالعربية، في موقف هو الأكثر غرابة مما مرّ عليّ في عامين من العمل في هذا المستشفى الباريسي، ليجيب هو بالفرنسية أو الإنجليزية. أخرجَ لي من حقيبته أوراقا تثبت انتسابه لكلية الحقوق بالسوربون طالبا للماجستير، وأوراقا أخرى بخصوص منحة الكتابة الحاصل عليها من المركز الثقافي CNL لكتابة رواية ما ودعم مشروعات ثقافية. كان متوترا تماما، يتكلم وهو يرتعش. يقول إن المرأة التي ألقت به للبوليس كانت صديقته لعامين، منذ أن تعرف عليها وقت الثورة في مصر. من السهل أن يبدو الأمر أنه مجرد عربي همجي يتحرش بسيدة فرنسية لا تريده، لكنهما كانا في علاقة. يسألني بأداء نصف مسرحي:

ـ هل لو كنتُ فرنسيا كان سيُلقى بي إلى هنا بهذه الطريقة؟

وفي الحقيقة لا علاقة لجنسيته بالأمر؛ عدد المرضى في عنبر الطوارئ من الفرنسيين بسبب مطاردة امرأة ما يفوق عدد أي جنسية أخرى. أحاول تلطيف الجو فأقول له إننا في باريس؛ حيث جنون الحب هو الخلل الأكثر شيوعا والذي يمكن أن تلتقي به مستشفيات الطب النفسي. أسأله عن المكان وعن تاريخ اليوم وسبب مجيئه إلى هنا فلا أجد في إجاباته خللا في الوعي أو الإدراك. أتعجب قليلا حين أسأله، باسما، سؤال الساعة الذي يشغل كل مصري في الأيام الأخيرة:

ـ ثورة ولا انقلاب؟

فلا يبدو أنه فهم السؤال. لا يبدو أنه يطالع الأخبار، لكنه يعرف أن مرسي هو رئيس مصر، وأنه تولى الحكم من سنة بالضبط! يقول بطريقة ميكانيكية:

- مرسي إرهابي. الإخوان المسلمون مجرمون. أنا أعرفهم جيدا وأبي من كبار رجال الإخوان.

يقولها بطريقة فورية وبشكل تلقائي كأنه قالها بنفس الطريقة أكثر من مرة. لم أتمكن من تقييم ما إذا كان هناك هلاوس أو ضلالات أو تهيؤات سمعية أو بصرية. كلامه المستمر عن العنصرية وعن وجوده هنا لمجرد كونه عربيا يرسم علامة استفهام حول أفكار ذُهانية ما، لا يمكن تأكيدها. يردد أكثر من مرة اسم صديق له في باريس يدعى سليمان العطار؛ قائلا إنه مدرس موسيقى وإنه يريد الاتصال به. ولم أستطع تقييم مدى صحة كلامه بخصوص هذا الصديق المفترض. بخلاف ذلك فإن الفتى مصمت تماما، وعدوانيته ظاهرة رغم محاولته السيطرة عليها. أسأله عن الأفكار الانتحارية فيضحك ساخرا:

- لن أقتل نفسي من أجل هذه الشرموطة الباريسية التافهة.

وحين أسأله عن إمكانية إيذائها يجيب أنه صديقها السابق ومن حقه محاولة استعادة العلاقة. يضيف بمرارة:

- حتى الفرنسيين يفعلون ذلك.

- ولكن الفتاة لا تريد التواصل معك ثانية!

فيهز رأسه مثل نمر حبيس في قفص مرددا بصوت خافت:

- أنت لا تفهمُ شيئا...

لا أرى مبررا لمناقشته في شعوره بالاضطهاد أو العنصرية الواقعة عليه من جديد. إن شيئا ما يدفعك تلقائيا للنفور من هذا الفتى، عجرفته البالغة، بالرغم من صعوبة موقفه. طريقته في المطالبة بأي شيء - الأكل أو الاتصال بصديقه أو الإنترنت أو غيره. لحيته المهملة وشعره الطويل الكيرلي غريب

الشكل. إعطائي هاتفه لأقوم بتصويره! ثم اللعب في الهاتف بعدها ـ لأدرك أنه يقوم برفع تلك الصورة على الفيسبوك! طريقته في الكلام بالفرنسية، التي تتراوح بين عامية غليظة أو مفردات وتراكيب أدبية شديدة الغرابة لا تتفق مع هذه الفرنسية العامية، والتي يبدو أنه تعلمها في الشارع وبوضع اليد ـ كما يقال. من يدري، لعل نفوري منه هو تفورنا الطبيعي من بعض في الغربة! هذا شيء أدركه ـ للأسف ـ بعد فترة من الاستقرار في فرنسا؛ شعوري بالانزعاج أو الخجل عند رؤية شخص عربي أو مصري، تلك الرغبة الدائمة في طمس حقيقة أني قادمٌ من تلك المنطقة البائسة التي تصدر اللاجئين والمجرمين والمتطرفين! في كل موقف يومي أريد أن أؤكد على هذه الحقيقة، أنا طبيب، أنا لست من أولئك الذين تمتعضون بسبب وجودهم في بلادكم. أنا طبيب وأقوم بتحضير الدكتوراه. صحيح أني أتكلم الفرنسية بلكنة واضحة، لكن هذا سيتحسن، كما أني أتكلم بشكل صحيح، ولا أخطئ في النحو. أتيت لأتعلم ولم آت هنا لمطاردة البنات أو لنشر دين الإسلام أو لمطالبة مارجا بزيادة حصتي من الطعام. أدركُ أني أفرطُ في التحليل والتفسير، أن فرويد ولاكان بحاجة لشيء من الفرملة؛ أستعيذ بالله من الشيطان واستعدّ للمرور الأسبوعي ـ حيث يستعرض الأستاذ الاستشاري كل الحالات والمرضى في القسم. يتمشى الأستاذ في القسم متأنقا متغندرا ـ لم لا، وقد نام في بيته مطمئنا، بينما أنا هنا مرابطٌ في النبطشية طوال الليل. أخبره أن الفتى الذي جاء أمس فجرا لا يزال نائما فيهزّ يديه بطريقته الباريسية اللامبالية، بما معناه أننا يمكن أن نتكلم معه بعد الانتهاء من المرور على باقي المرضى.

محاولا الحصول على تاريخ مفصل للحالة أتصل بالمسئولة عن الفتى في بيت اللاجئين. تخبرني أنه غريب الأطوار منذ انتقل لديها قبل عام واحد. أسألها أين كان يسكن قبل ذلك فتجيبني:

- مع صديقته، تقريبا.

تصف سلوكه إنه عنيف واستعلائي دائما، كما أنه يدخل ويخرج في أوقات غريبة، يحادث نفسه، يضحك ويبكي بلا سبب وهو يجلس وحيدا. كثيرا طوال الوقت ما يعزف على الأورج أو يغني بصوت عال في وقت متأخر من الليل. تحكي لي أنه أقام الدنيا وأقعدها مرة بسبب ضياع نوتة جلدية سوداء يكتب فيها دروسه الموسيقية وتأملاته، قال إنها تضم دروس الموسيقي المغربي المزعوم وتحليلاته، واتهم زملاءه في السكن بسرقتها ثم وجدها آخر الأمر! تضيف: كان يظل أياما طويلة خارج السكن وأحيانا أخرى يبقى فيه وحيدا لا يغادره. تبرر ذلك بأنه فنان، أو روائي، ولكنها تقول ذلك باستخفاف يوحي بعدم اقتناعها، أو ربما تصديقها لذلك. حين أسألها عن مدى خطورته على نفسه أو غيره تقول إنه أمر غير مستبعد تماما مع عدوانيته ومع غرابة أطواره.

من العجيب كذلك أن الفتى ليس لديه أحد في باريس سوى الفتاة التي طلبت له الشرطة - اتصلتُ بها وكما توقعتُ تماما، بمجرد أن نطقتُ باسمه أنهت الاتصال. أتصلُ بصديقه، المدعو سليمان العطار، أكثر من مرة بلا طائل، لم يبدُ أن لهذا الرقم ولا لهذا الشخص وجود على الإطلاق.

آخر المطاف ينتهي الأستاذ من المرور على المرضى ويأتي دور أخينا المصري غريب الأطوار. يبدو متحفزا تماما منذ اللحظة الأولى. كنتُ أشعر بحرج خفي وهو يتكلم بطريقته المليئة بالأخطاء. قال له الأستاذ إنني يمكنني أن أقوم بالترجمة له - لكنه رفض ذلك بصلف قائلا إن الكلام بالعربية يؤلمه! يحكي الحكاية من جديد. الفتاة التي كان مرتبطا بها ومقيما عندها، طلبه للجوء، الوضع في مصر، الإخوان. يعرف لأول مرة من الأستاذ الطبيب الفرنسي أن الإخوان لم يعودوا يحكمون مصر؛ أن

انقلابا عسكريا قام ضدهم عزل مرسي عن الحكم! لا يبدو مهتما تماما، يكرر نفس الكلام، بنفس العنجهية، وبنفس العدوانية الظاهرة. يخبره الأستاذ أنه ينبغي علينا أن نتأكد أنه لن يمارس تلك الأفعال التي تقتحم خصوصية الآخرين مرة ثانية، وأنه بحاجة إلى أن يبقى لدينا أسبوعا أو اثنين حتى يمكن تقييم ذلك، فيعود للكلام عن الفرنسيين وعن العنصرية. يلملم الأستاذ أوراقه وهو ينهي الحوار فيُجن جنون الفتى ويضرب بيديه على الطاولة:

ـ أريد الخروج من هنا؛ هذا ظلم. أنا لم أؤذ أحدا، أنا لست مجنونا.

أحاول تهدئته فيدفعني في صدري. يدقّ البروفيسور جرس الإنذار فيأتي التمريض لتكتيف الفتى. ننجح، بعد جهد، في حقنه بمادة مهدئة، وربطه في السرير، ثم نرتب موعدا مع القاضي لاستصدار أمر باحتجازه في مصحة الأمراض العقلية كما ينص القانون الفرنسي!

بعد ساعتين يجيء القاضي الفرنسي. يستوضحني عما جرى، وكلما حكيت له شيئا يهز رأسه وهو يقول:

ـ لقد قرأت ذلك في التقرير الذي أرسلتَهُ لي.

يعلق تعليقا هامشيا على صغر سن الفتى ـ الذي لا يتجاوز الثالثة والعشرين. إنه من مواليد ١٩٩٠، يقول متعجبا، ثم يعلق على كونه روائيا. يسألني ما إذا كنت سمعت به من قبل أو قرأت له شيئا في مصر. أهز رأسي نفيا، فيقرر أن يثرثر قليلا حول علاقة الأدب بالطب النفسي وأهمية الأدب والفنون بشكل عام، وأنا أستمع له بنصف وعي متسائلا بلا جواب، متى ينتهي هذا اليوم المرهق الطويل وأذهب لأدسّ نفسي في الفراش الدافئ. أُحضرُ الفتى، والذي يبدو أنه قرر أن يهدأ ويمنح انطباعا جيدا حتى يخرج من المستشفى. يزداد نفوري منه، وهو يتكلم بهدوء ورزانة، يحكي حكاية

مجيئه لفرنسا وارتباطه بالفتاة وطلب اللجوء. يدهشني حين يستخدم معلومة التحرك الشعبي ضد مرسي، التي عرفها من ساعتين فحسب، ليؤكد أنه في هذه الظروف لا يستطيع العودة لمصر! الفتى ذكي لا شك، لكن نفوري منه يزداد كلما تكلم. يحكي عن الرواية التي هو بصدد تأليفها. يقول إن هذا الملحن هو ـ ويطرقع بإصبعه محاولا العثور على تعبير مناسب ـ هو مثل موتسارت في الثقافة الغربية.

يثرثر معه القاضي قليلا في هذا الصدد، ثم يسأله فجأة وبلا مقدمات:

ـ ما اسم صديقتك السابقة؟

هنا يستعيد الفتى وجهه العدواني الذي رأيناه أول اليوم، ويجيب بجفاء:

ـ ما علاقة هذا بموضوعنا؟

يضحك القاضي بشكل استفزازي، أتفهمُ ما يرمي إليه، وهو يقول:

ـ ألا ترى أي علاقة؟! أنت هنا بسببها، بالأحرى بسبب محاولتك الاعتداء عليها.

ـ أنا لم أحاول الاعتداء على أحد. أنا لم أمسّها.

ـ في الحقيقة أنا لا أعرف كيف تمضي لديكم الأمور في مصر، لكن هنا عندنا في فرنسا إذا أخبرتك المرأة أنها لا تريد التواصل معك فينبغي عليك احترام ذلك.

يربد وجه الفتى وأشعر إنه على وشك أن يقفز ليقبض على عنق القاضي، والذي يحدجه بدوره بنظرة متحدية وهو يضيف:

ـ لن أستطيع أن أخرجك من هنا قبل أن أطمئن إلى أنك ستحترم رغبة

صديقتك، والتي لم تعد صديقتك الآن، ولن تتعرض لها ثانية. لعلك لا تزال ترفض أن تخبرنا عن اسمها؟

على ما رأيت في هذه الدنيا، فإني لم أرَ في حياتي، أبدا، شيئا مثل النظرة الطويلة التي ألقاها الفتى على القاضي لحظتها، في عينيه مباشرة، بثبات ومرارة وغضب وحزن وعدوانية، وكل شيء. يحرك رأسه في هدوء بين النظر للنافذة والنظر للقاضي، ويبدأ على مهل يتكلم بالعربية، لأول مرة منذ رأيته. كأنه ينشد، كأنه يخاطب جمهورا مجهولا أو أشباحا لا يراها سواه. صوته القادم من أعمق مكان في روحه يردد بعربية، لم أسمع منذ زمن شيئا في فصاحتها، كلاما غير مفهوم، إلا أنه يبدو رغم ذلك ثقيلا، وموجعا تماما. كأنّ عفريتا تلبسه فجأة، حين بدأ يتكلم، متمهلا، ودون أن يترك لأحد فرصة مقاطعته...

* * *

هل تعرف المطرب محمد رشدي؟ مغرم صبابة، قتلونا يابا، ده الحب قادر، واحنا غلابة! العشق خدنا، من بين صحابنا، والليل صاحبنا، يا ليل يا عين. من يومها واحنا، شايلين جراحنا، غلابة يا احنا، يا مجروحين! هذا هو المختصر المفيد للحكاية التي لا يبدو أحدٌ مُهتما بفهمها. إنكم تعصرونني أسئلةً من أول النهار لتطمئنوا إلى أني لن أهاتف المحبوبة البعيدة، بضحكتها الفاتنة ووجهها القاسي. تريد أن تطمئن، وتريد أن تعرف الحكاية، أقول أنا لك: مغرم صبابة، قتلونا يابا. القاضي يسأل والشرطي يسأل والممرضة تلقي لي بكيس من البسكويت. والطبيب المصري العجيب يظن نفسه حكيم الزمان ويسألني، كما يسأل الأطباء النفسيون السذج: ماذا حدث؟ ماذا جاء بك إلينا؟ يسألني عن تاريخ اليوم وعن تاريخ ميلادي، ويظن نفسه ظريفا ويسألني «ثورة ولا انقلاب؟». دعني أسألك

أنا إذن: أيهما أكثر كآبة وتقليبا للمواجع، «بعيد عنّك»، أم «هو صحيح الهوى غلاب»؟! ولماذا لم يلحن بليغ حمدي شيئا من كلمات أحمد رامي؟ سأقول لسليمان العطار إن ذلك منطقي تماما، لمن ألقى السمع وهو شهيد. وأنت طبعا لا تفهم شيئا؛ كالعادة يعني، لم يفهمني أحدٌ من البهائم في مصر، ولا فهمني أحد في باريس المتعجرفة المغلقة على أصحابها.

أما مارييل - اسمها مارييل، بما أن حضرتك مهتم بمعرفة اسمها - فكيف كان لها أن تفهمني؟ فات المعاد وبقينا بعاد، وقد قام بيننا حاجزٌ من عدم التكافؤ الوجداني. ألا يوجدُ هذا المصطلح لديكم في الطب النفسي؟! تراني إذن قد اخترعته اختراعا - كما كنت أخترع كلمات فرنسية غير موجودة فتضحك هي منّي وعليّ. التكافؤ الوجداني يا عزيزي هو أنه في كل حكاية ثمّة واحدٌ يحترق حُبا، وواحد يهز كتفيه بلامبالاة قائلا، أنا آسف! والنار بقت دخان ورماد...

المهم يا دكتور، وأنا أعرفُ أنني أستطرد بشكل مبالغ فيه، أنا طلال فيصل، أخوك في الله طلال فيصل، واحد من حراس اللاشيء، وولي من أولياء الشيطان، أول من قال أحّا في وجه من قالوا نعم. فهمتُ كل شيء وعرفتُ كل شيء، ورغم ذلك ظل السؤال قائما، يا دكتور: يا حبيبي، إيه أجمل م الليل واتنين زينا عاشقين تايهين. ولو قلتَ لي على أي مقام موسيقي يكون لحن هذه الأغنية فسأعطيك نصف يورو. سليمان يؤكد أنه مقام فرح فزا، نهاوند على صول ثم عجم على سي بيمول ثم كرد على ري، ولكن من يفهم! أنا من أيقظتني أمي لصلاة الفجر فدفعت يدها برفق وطلبتُ منها أن تدعوَ لي. وأنا من سألني والدي بأسى: لماذا توقفت عن حضور لقاء الأسرة، الإخوانية، في المسجد؟ فضحكت هازئا ولم أطلب منه شيئا. أنا الذي كُشف عنّي الحجاب وأبصرت النكتة الكبرى ولم أضحك.

أنا طلال فيصل، كنتُ الطالب الوحيد الذي حصل على الدرجة النهائية في اللغة العربية، حفظت كتاب الله في شهرين وفشلت في نسيانه. تخرجت واشتغلت وخرجتُ للدنيا بصدري العاري. كتبت في جرائد لا حصر لها، ترجمتُ وفتحت دارا وهمية للنشر، وقال لي الحظ أنا عبدُك وقال لي الحبّ تعال يا مسكين، أما ماريل فقالت لي لن تنال منّي ما تريد.

حين قامت الثورة كنت في الحادية والعشرين، وبعدها استفتاء مارس، وبعدها ذهبت لباريس ليصرعني العشق، أو أن العشق كان قد صرعني فركضتُ وراءه إلى باريس، وإلى مهرجان كان، ورجعت مصر جريحا. ورغم ذلك واصلت مطاردة قصة الحب أو الطموح، فانتظرت رنين الإسكايب، وقامت أحداث مجلس الوزراء وركبت الطائرة إلى باريس من جديد. لا أعلم، من منا يعرف دوافعه يا دكتور؟ وان قالوا؛ عن عشّاقه، بيدوبوا في نار أشواقه، أهي ناره دي جنتنا.

سافرت إلى فرنسا ورأيت كل شيء، وعرفت كل شيء؛ وعلى بابها المغلق في مونبارناس في الحي الرابع عشر رأيتُ الله، فعرفت أنه غير موجود، وذهبت إليه حافيا وهو جالس على عرشه، خاطبتُه وهو بين ملائكته، صحتُ دامع العينين، قلتُ له إنه، كالحبّ، وهمٌ وخيالٌ وأسطورة. لم يُجبني، فغادرته مسربلا بالخيلاء والوجع. وكان انتقامه منّي يليق بقسوته: جعل ماريل في القلب شوكةً لا تندمل، وجنونا لا شفاء منه، وصرختُ فحملني ضباط الشرطة إليك حتى تشفيني...

أنا طلال فيصل، قيل إني موهوب، وقيل إني نصاب، وهاهم أولاء يقولون إني مجنون! وقال إيه جاي الزمان يداوينا، من إيه جاي يا زمان تداوينا. أدركت أني طاردتُ سرابا، وأدركت أني أحترقُ في هوى من يهز كتفيه بلا مبالاة. كسرتُ كل شيء وأشعلت النار في الأرض والسماء

وصرخت دون صوت. قرأت رسائلها وإيميلاتها ودفاترها وغادرت بيتها إلى مسكن اللاجئين مثقلا بوجيعة لا حد لها. دخل مرسي جولة الإعادة في انتخابات الرئاسة أمام شفيق، ونمتُ أنا معها لتخبرني في الصباح أنها كانت غلطة، وتهددني بالشرطة لو اقتربت منها. أقسمتُ بإله أعرف أنه ليس موجودا ألا أتصل بها ثانية، وأن أنسى.

غادرت ومشيت من مونبارناس لسان جرمان دو بري واشتريت مفكرة جلدية سوداء اللون من باعة الكتب القديمة في سان ميشيل. قررت أن أكتب الرواية التي ينتظرها الجميع عن بليغ حمدي. دخلت حديقة سان لكسمبورج وسمعت يا بو العيون السود وأدركتُ سرّ العربيد الموهوب وسر موسيقاه. هناك قابلت سليمان العطار مصادفة، وتمشّيت معه عاما كاملا تعلمت فيه الفرق بين مقام السيكا ومقام الهزام. قلت لنفسي إن سنة كاملة كافية للنسيان، غير أن الحب أقوى من الزمن، وغير أن الألم لا يحتمل. نزلت من عنده متوجها للبيت - أو بالأحرى لمسكن اللاجئين. ثم خطرت في بالي فكرة بدت لي في مترو باريس منطقية. غيرت خط توجهي إلى دونفير روشرو، وقلت يمكن، وقلت لعل المحبوب القاسي لو رآني لرقّ قلبه. غير أن الغباء هو دائي، وغير أن الأمل هو المرض الذي لا أعرف كيف أشفى منه.

فهل يمكنك أن تشفيني يا دكتور....

* * *

يطلب مني القاضي أن أترجم له ما قال، ولا أعرف بم أجيب. يسألني أن أقترح قرارا بشأن احتجازه أو تركه، وأنا أتساءل متى ينتهي هذا اليوم الطويل الثقيل، فأذهبُ لأدسّ نفسي في الفراش.

# طلال فيصل

## ١

واعلم أنّ أقصى ما سيذكره التاريخ مما حدث في يناير ٢٠١١ في ميدان التحرير، بالقاهرة، هو ذلك النزاع القضائي الذي قام بين ملحن مغمور ومطرب لا يقل عنه مغمُورية حول أحقية كل منهما في أغنية «يا بلادي يا بلادي» ـ والتي كانت تذاع بالتزامن مع تنحي الرئيس المتنحي أو انخلاع الرئيس المُنخلع؛ سمّه كيف شئت. تنتشر الغنوة وتحفر مطلعها الموسيقي في آذان الناس ووجدانهم: تتحول أيقونةً للشيء الذي سيعرف لاحقا بالثورة، حتى يصل نجاحها بالاثنين الموسيقيين إلى ساحة المحكمة، بينما نغمة اللحن الرئيسية، والتي كانت تتردد حولنا أيامها في كل مكان، لا علاقة لها بهذا ولا بذاك! إنما هي في الأصل لـ بليغ حمدي. فلا تسألني عن أول البؤس إن كنا لا نعرفُ له آخرا، واضحك واشخُر وابتهج وابكِ ثم ادخل ونم.

ودعني أستعيد تلك الأيام، أنا وماريبل، متنقلين بين الميدان ومكتبها بالمركز الثقافي الفرنسي بالمنيرة، على مدار الـ ١٨ يوما، مندمجين في مراقبة الجموع الهاتفة السابحة في نشوة الأورجازم الثوري. هي بنظرتها الفرنسية، المندهشة البلهاء، وأنا، على وشك الوقوع في الفخ؛ أكاد أصدق أن المصريين عملوها فعلا. آه ما رمانا الهوى ونعسنا! وظهر الجنرال عمر سليمان والرجل الذي وراءه، وهللنا وحملنا المقشات لننظف الشوارع؛ اقتنعنا بأن الثورة انتصرت وأننا على أعتاب أن نصير دولة كبرى. تسافر

هي، ثم يأتي استفتاء مارس كالخازوق بعدها بشهرين، وتقول الصناديق نعم للدين، ولأبي وأصحابه، فأدرك عبثية ما يجري، وأتخذُ قراري.

رأيتُ منفردا، قبل أن يرى غيري، أننا ماضون بإخلاص نحو اللاشيء، وأن الهروب من هذا المستنقع هو الحل المثالي، أو الوحيد. ولعلي قلت ذلك لنفسي لأقنعها بما كانت تريد أن تفعل، من يدري؟ الستّ تغني من مقام راحة الأرواح تفيد بإيه يا ندم، وتعمل إيه يا عذاب ـ هل هو راحة الأرواح؟ إنه من جنس السيكا على كل حال. ولكن أين أنت لتنجدني يا سليمان؟ كأنّ هاتفه لا يزال مغلقا؛ ولم تستطع الوصول إليه بعدُ يا دكتور؟

أستعيد الدهشة وهي تلوح في العينين الخضراوين؛ تتفرج على المصريين، كمخلوقات في محمية طبيعية، فيما أرددُ أنا ساخرا متقززا، كلما جاء الفاصل المتضمن لجملة الفتى الموسيقية، يا بهايم، اللحن لبليغ يا بهايم. اللحن لمُلحن، شاءت الأقدار التي لا تعرف وعيا ولا عدلا، أن يكون مصريا! تخيل مثلا لو كان بليغ حمدي فرنسيا أو ألمانيًا أو أي دولة من دول الشنجن، أي إضافة كان يمكن أن يضيفها للموسيقا العالمية وللوجدان الإنساني، غير أن المسكين جاء للدنيا في هذا المربع البائس الجاف المدعو مصر، الواقع بين بحرين وتحت شمس لاهبة، فكانت اللعنةُ التي يستحيل الفرار منها. حاول قدر ما استطاع: وظّف النغمات الشعبية بقدر ما سمحت الظروف التعسة، حاول أن يصنع من الفسيخ شربات، وضاع نصف مجهوده في مجتمع مُكبل تماما بتراث أزلي من الأخلاق والأساطير والاعتقادات الثقيلة. وهكذا، وبين محاولته أن يعيش بحريته، فنانا، في بلد لا يمكنه أن يفهم ذلك، ورغبته في صناعة موسيقى من تراث هو اللاشيء المحض، كان منطقيا تماما أن ينتهي بالطرد منها على خلفية قضية مضحكة مُتهما بترويج الدعارة! شيء بائس لا يمكن أن يحدث إلا في بلد له سبعة آلاف سنة حضارة وألف مئذنة والعدم الخالص!

ولكن خليك فاكر، مصر جميلة، ومذكورة في القرآن! ويسألونك عن الثورة قل ينسفها ربي نسفا! ذهبت إلى حال سبيلها، وبقيت عبقرية رضيع، يدعى بليغ، كان يلعب بالشخشيخة في المهد، ذات يوم من أيام ١٩٣٢، ينظرُ له أبوه طويلا ويقولُ بصوت عميق، يقطر بحكمة السنين:

ـ هذا الصبي سيكون موسيقارا.

تجيبه الأم الطيبة، عائشة محمد فرج، بابتسامتها الرقراق الحنون:

ـ يا سلام يا عبد الحميد، عيّل لعب بالشخشيخة، قمت خلاص طلّعته موسيقار!

ـ يا ستّي اسمعي منّي، سنرى ـ إن عشتُ. وإن كنت وقتها ميتا فترحّمي عليّ.

يلعلع صوت الناي الحزين والكمنجات في الخلفية؛ ذاك أن الأسطورة لا بد أن تحاط بتفاصيل لصيانتها، ولا بد أن يكون للنبيّ إشارة وختم نبوّة وعلامات تدون في كتب السيرة. لا بد مثلا أن يسرد الروائيّ وقوف أخته صفية بالباب تراقبه طفلا لم يتجاوز العامين، بالكاد تعلم المشي، يحادث المجهول ويلعب على العود فتصدر منه نغمات، يا سبحان الطبيعة الأم، بلا أي إرشاد ولا تدريب. نغفلُ أن الموسيقى هي الشاهد وهي العلامة، مكتفية بذاتها عما دونها، وكل ما عداها هو من تراث العقيدة البائدة. لكن للأسطورة بريقها على كل حال، يسأله أبوه ذات يوم، جالسا وسط أصحابه، وكان صاحبنا بعدُ في الرابعة من عمره:

ـ ماذا ستشتغل حين تكبر يا بليغ؟

فيجيب، وكان حسبما يؤكدُ الرواة، له في الزاي لثغة طفولية مُحببة:

ـ مزّيكاتي.

ويضحك الأب وأصحابه من هذه المُعجزة المتحركة، ويحتضن الطفل متعجبا من الردّ. فما هي الموهبة، وأين هو النسيان، ومن أي مركز في الدماغ تجيء السعادة، وإذا كان السيروتونين هو منبع البهجة والإلهام فلماذا لا يزول هذا الألم، ولماذا لا يثور المصريون، ولماذا أنا تعيس، وكيف حدث أن وقف طفل سمينٌ قصيرٌ، ألثغ، أمام معهد فؤاد الأول للموسيقا عام ١٩٤٢، متطلعا، ليسأله الواقف بالباب عما يريد:

ـ أريد أن أدخل المعهد.

ـ أي معهد يا شاطر؟!

ـ المعهد، هنا؛ لأتعلّم المزّيكا.

وتتجلّي في عينيه البريئتين نظرةٌ مفعمةٌ بالرجاء.

## ٢

كلّ ما أذكره أني كنت عند سليمان العطار في بيته. عزفنا قليلا، كتبتُ في النوتة الجلدية صفحة أو صفحتين، استمعنا معا لـ بوابة الحلواني وأنا مـ البلد دي، وضحكنا، طبعا. ثرثرتُ بشأن تحليلهما موسيقيا، دوّنت ما قلناه في النوتة الجلدية، كعادتي معه، ثم تقاسمنا سيجارة واحدة، لا غير. ثم قررت أن أحكي له الحكاية، من أولها، فاستمع صامتا ولم يعلق. نزلتُ من عنده متوجها ـ كما يفترَض ـ للبيت، أو بالأحرى لغرفتي في مسكن اللاجئين. قرأتُ في الفيسبوك خبرا ما عن بيانٍ للجيش، فتذكرت دعوات الحشد التي انتشرت قبلها بيومين، أو ثلاثة، في سياق التصعيد ضد حكم مُرسي بعد عام تجلى فيه بؤس الإخوان كما يليق بهم. لم أهتم؛ محروقين الاتنين في ساعة واحدة. أغلقت الموبايل. ثم خطرت في بالي فكرةٌ بدت لي في مترو باريس منطقية، وبدت للشرطة الفرنسية بعدها غير ذلك. كأنّي أتذكر كل شيء، فلا أتذكر شيئا مطلقا.

ثمة مشاهد متناثرة، متفرقة. ربما بشيء من المجهود أتذكر الهيكل العام للحكاية، وقد أنسى، وقد أستخدمُ أحداث الثورة المتشابهة المختلطة لأتذكر الترتيب أو التاريخ. الأيام تمرّ على كل حال، أينشتين يحدثنا عن الزمان الذي يسيل في المكان، البعض لا يزال يتبجح بالحديث عن الإعجاز العلمي في القرآن، وأنا لا أشعر إلا بالخدر.

الحياة صعبة بشكل عام يا دكتور، وأنت تريدني أن أحكي لك بالترتيب الزمني من الأحدث للأقدم، أو الأقدم للأحدث، عن الموقف الذي انتهى بي إلى هنا عندك؛ بضابطين فرنسيين على الباب جاءا بي لمصحة سانت آن في الحي الرابع عشر في باريس. إذن، وكما تقول الغنوة، تعال جنبي، هنا هنا جنبي، تعال لأحكي لك. أنا رجل ناشر ومُترجم وروائي ولاجئ محترم، وأنا الذي يكتب عن بليغ رواية ستسجدُ لفصاحتها الإنس والجن.

والطريق من بيتنا إلى هنا كان بالغ الطول، والحكاية مُسلية لمن يسمعها ومؤلمةٌ لمن عاشها، وسُبحان الذي أسرى بعبده من هناك إلى هنا. فانظر خلفك وحاول أن تفهم ما جرى. عشر سنوات، رحلتي من الشك إلى كُسّ ماريل، فما الذي يذكره الغلام الساذج ابن الناس الطيبين حين يذكر الماضي.

أنا طلال فيصل، ولدتُ أول يوم من عام ١٩٩٠، لأسرة صغيرة سعيدة تؤمن بالله واليوم الآخر وحتمية الحل الإسلامي، تسكن في الطالبية بالهرم، ابنٌ من أبناء ذلك الجيل اللذيذ الذي يكتب عن الحنين لفترة التسعينيات، والذين أدخلهم آباؤهم مدارس لغات إسلامية، لتحقيق التوازن المنشود بين الأصالة والمعاصرة. يصلّي أبي الظهر مع الحاج هاني، مدير مدرسة غار حراء، في أحد أعوام التسعينيات، يحادثه في ود، فيجيبه أخوه في الشعبة، وعلى وجهه بشاشة الإيمان ونور التقوى:

ـ ما شاء الله لا قوة إلا بالله، الولد شكله نابه فعلا. لا، لا تقلق، السنّ لن يكون مشكلة.

وهكذا، وفيما يمكن أن يكون أول تطبيق لمفهوم الواسطة في المجتمع الإخواني السعيد، حيث الناس، هنا هنا حلوين، عايشين على السماح، ألوانهم الجميلة، ما فيهاش لون الجراح، دخلتُ المدرسة أصغر من زملائي سنةً كاملة. هناك، سمعنا من المدرس في حصة الدين تفصيلات المؤامرة على الإسلام، الحكايات الأسطورية عن الشيخ كشك الذي قرأ القرآن للكلب المفترس، فنام بين يديه ولم ينهشه. دمعت عيوننا مع معجزات الشهيد سيد قطب في وجه طاغوت الناصرية وهو يقول بثبات، جاهليتكم مثل حبال مشانقكم رديئة. تلك الطفولة المطمئنة في واحة الإيمان، والمراهقة القلقة في حضور الأب القوي الراسخ كالطّود. أسرتنا الطيبة؛ صوت إذاعة القرآن الكريم القادم من المطبخ مع روائح أكل أمي الشهي، موحيا ببناء مستقر لا سبيل لزعزته. رحلات الأشبال واليوم الرياضي والكشافة، الله غايتنا والرسول قدوتنا، اختطاف نظرة سريعة إلى وجه جَنى في جلسة التحفيظ في مسجد بلال بن رباح وسط الزهراوات ـ وزهراوات هي مؤنث أشبال كما أظنّك لا تعلم. لقاءُ الأسرة الإخوانية الأسبوعي في بيتنا، وتقرير مسئول الشعبة للسيد الوالد، نظرة الرضا في عينيه:

ـ ابنك سريع الحفظ ما شاء الله.

يسألني، وهو أعلم بالجواب:

ـ في كم يوم حفظت سورة يونس؟

أجيب في زهو:

ـ يوم، أو تقريبا يومين.

فيمسح شعري بيده ويبسمل ويحوقل ويحذرني من الكبر! ينسى المسكين أن يحذرني من العشق، وهو أصل كل بلاء. كأنّ كل شيء كان يبدو سعيدا وجميلا؛ فمن الذي لا يحسد الأنعام على يقينها الصافي وطمأنينتها الوارفة! الرحلة جميلة، لكن الحبّ ابن وسخة، ولعل الله موجود فعلا، ولعله يعاقبني. تدور الأيام دورتها وتصيرُ بنا إلى ٢٠٠٥ والثانوية العامة. أجدني أخرج للعالم الحقيقي حيث يوجد بشر آخرون، ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين: سنتر اليمامة للدروس في الطالبية، أول شتيمة في الشارع وأول سيجارة، أول بنت تجلس إلى جواري في حصة الإنجليزي، ويتحرك شيء ما أضطر لمداراته، مُتحرجا، بملزمة الشرح. تُرى أين هي الآن؟ المؤكد أنها ليست في مصحة أمراض عقلية في باريس. إن كل شيء يبدو بعيدا وباهتا، ويهتف الكورال الرجالي ومنين نجيب الصبر يأهل الله يداوينا، فتدبر.

## ٣

ولو أنك تأملتَ لأدركتَ أن تلك العلاقة المريضة انتهت فعليا قبل أن تبدأ. ولكن هل لي أن ألوم نفسي على المحاولة، أو على أي شيء؟ ألم يواصل المصريون التظاهر ونزول الشارع وسفك دم أنفسهم بلا جدوى، رغم أن الفشل كان واضحا من البداية! تغني المطربة التي يزعمون أنها كانت في زمن ما، قبل أن تمتلئ بالشحم والدهن، جميلة، وأن صاحبنا فُتن بها، فكانت سببا في طلاقه من وردة: «فاتت سنة، حتى الجواب منك ما وصلشِ».

وأرددُ أنا، كذلك فاتت سنة على فرحة الحصول على التأشيرة، السفر لأوروبا أول مرة، الذهاب لباريس وحضور مهرجان كان والعودة من هناك مَهينا خائبا. فاتت سنة على مراقبة أحداث مسرح البالون من فوق كوبري ١٥

مايو، والاتصال بها من جديد، والسفر إليها من جديد، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فليتجرع شهورا من الاحتراق في علاقة مريضة متأرجحا بين الخصام والصلح، الانفصال والعودة، الابتزاز والترضية، مثل البندول المتوتر. فأيّ حماقة ارتكبتُ بدون أي مبرر درامي، وكم من الوقت سأحتاج إليه حتى أنسى تلك المكالمة اللعينة ليلة أمس، وصوتها الصارم:

- ما حدث كان غلطة!

- غلطة؟!

- صدقني كل ما تفعله الآن ليس له قيمة!

- إنك تستخدمينني، هذا مقزز ومرعب!

تؤكدُ الستّ أن ستاير النسيان ستنزل يوما ما، بينما أفكرُ أني لو كنتُ فرنسيا، مثلا، لما جرؤت على أن تقول ذلك، أو تفكر فيه. كم من الوقت أحتاج حتى يكف رأسي عن التفكير في كل ما حدث؟ هل أحبتني في لحظة ما؟ هل استخدمتني؟ هل آذيتها أكثر أم أنها هي التي آذتني؟ ثمة شيء مؤكدٌ وحيدٌ في هذه الدنيا المتعبة المفعمة بالشكوك: أن محمد مرسي وقف، فعلا، أول أمس في ميدان التحرير كاشفا صدره، بلا واقٍ من الرصاص، لتهديد وهمي، وأن الجموع هتفت له في حماسة، ولا بد أن الحاجّ أبويا، بجرح جبهته الذي يفخر به، مبتهجٌ الآن وسط إخوانه في الأسرة في المسجد الصغير عقب صلاة المغرب، إذ إن مصر قيّض لها من إخوانه المسلمين من يخرجها من الظلمات إلى النور. يجيئني صوتُ أمي مبتهجا عبر الفايبر، ثم تسألني عما بي فلا أجدُ ما أقوله. لا بد أن أختي تمارس في مكان ما نشاطا ما لدعم أخواتها والتخطيط للمرحلة القادمة، فمن كان يتصور أن يتولى حكم مصر مكتب الإرشاد، ألا إن سلعة الله غالية، فهل ينتصر الغفور الرحيم لرأس المال الإسلامي ضد دولة عمرها سبعة آلاف عام من اللاشيء.

إنني أهذي ولا أقول شيئا مفيدا، تلك الأصوات التي تطاردني منذ جئت إلى هنا، تلك الوساوس، ولعلي جننتُ فعليا كما كانت تقول، ولعلّي لو كنت ظللتُ في مصر لكنتُ الآن أشارك في صناعة القرار، وزيرا أو مستشارا أو عضوا في أي لجنة! ولعلّي كنت بقيت على الإيمان بالله الواحد الصمد الذي لم يره أحد، وكنت قد تزوجت واحدة من صويحبات أختي. غير أن الحياة كان لها رأي آخر، واللقاء الجميل كالحلم في المركز الفرنسي بالمنيرة ينتهي بالتهديد وإغلاق الهاتف، وبي ضائعا في شوارع باريس، وحيدا؛ أنا لا أعرف هنا غيرها. كأنّه آن لآدم أن يهبط من جنته إلى الغابة الموحشة. ويعود صوت أمي ليسألني من جديد:

ـ مالك يا بني! تغدّيت؟ كلم أباك صالحه وبارك له؛ الله يبارك لك! عرفت أن الدكتور محمد مرسي كسب الانتخابات؟!

أتعللُ بسوء خدمة الإنترنت وأنهي المكالمة، مؤكدا أني سأتصل لاحقا. وأقول لنفسي إنه لا بد أن لهذا الألم آخرا. إن لامبالاتها قاسية ومهينة، لكن كيف وصل الأمر للتهديد بالشرطة؟ لعلها تتصل ثانية، غالبا لا؛ الأمر انتهى. وحتى لو اتصلت ثانية فلا ينبغي أن تحنّ أيها القلب العلق؛ سأتجاوز، وسأنتهي من الكتاب أو الرواية، سيفوت الوقت، ويصبح كل ذلك مجرد ذكريات. أدندن، ونصبح ذكريات مجرد ذكريات، أقعد على أحد المقاعد الخشبية المتناثرة في شوارع باريس بإهمال، أعدُّ قائمة أغانٍ مطولةً من أغاني وألحان الفتى لأسمعها بلا توقف؛ ستستمر الحياة رغم كل شيء. أتمشى من مونبارناس إلى ضفة السين، والأغاني تتردد في أذني. أذكرُ نفسي بموعد التسليم المفترض؛ وأني لا بد أن أخرج مما أنا فيه.

يا صبر أيوب مين بقا هيصبّره

ع البعد ده، ده حرام كده!

أو كما قال...

أفكرُ في أني حين أكتب هذا المشهد سأزعمُ أني اشتريت زجاجة نبيذ أحمر. تبدو كلمة نبيذ أحمر جميلة حين تُكتب، لكني بعدُ لا أستسيغ طعم الكحول رغم كل شيء. أستعيدُ تجربة الشرب في أثناء حواري السخيف مع أبيها المتعجرف في بيت أسرتها بـ Antony جنوبي باريس. وقد تتغير الأفكار والمعتقدات، غير أن إنكار وجود الله أسهل من تغيير الذوق الذي نشأنا في صحبته. أشتري بدلا منها زجاجة Yoplait بالفراولة، ثم أمضي إلى الباعة المتناثرين على ضفة السين، بأكشاكهم الصفيحية الخضراء في سان ميشيل، فأشتري نوتة من الجلد سوداء اللون، ذات أوراق صفراء خشنة ولها قفل ذهبي أنيق، وقلم حبر أحمر. ثم لا بد أن لهذا الألم آخرا. أدخل على الفيسبوك وأكتب في خانة الـ Status: «أقتفي أثر بليغ حمدي».

مع صورة لبوليفار سان ميشيل والنوتة الجلدية، مفتوحةً وفيها القلم الأحمر...

## ٤

يلوح التطلع في العينين البريئتين، بينما يضحك البوّاب التافه؛ سيغمره النسيان كحشرة زاحفة في غبار التاريخ، من دون أن نذكر اسمه، أو نعرف ما إذا كان يرتدي جلبابا أم قميصا وبنطلونا:

«لا يمكن أن تدخل المعهد؛ أنت لا تزال صغيرا».

هل ترفّقوا به أم أنهم سخروا منه كما يفعلون دوما في المواقف المشابهة؟ هل تركوه يمضي لحال سبيله أم أركبوه حنطورا يعود به لبيته في شبرا! يرجع محبطا، فتُطيّب ماما عيشة خاطره بكلمتين. يستقدم

الأبُ مدرسا لتعليم الشقيقتين، صفية وأسماء، العزفَ على البيانو، ولكن الموهوب هو ذلك الصبيّ الصغير. ومثل موتسارت، يتعلم بمجرد الملاحظة، كأنه لا يحتاج إلى أن يتعلم أصلا. ستقول أخته إن النغمات كانت تخرج بشكل تلقائي من أصابعه الصغيرة، ستتذكر أن العبقرية بلا كتالوج؛ هي منحة الطبيعة، توجد أو لا توجد.

مقدار الذكاء البيولوجي كان بحسابات المنطق الرياضي مضمونا. فإذا كان الحاج فيصل عبد الله، أبوك أيها الراوي القدير العليم الجريح، رجلا مُلتحيا أهّلهُ ذكاؤه للالتحاق بكلية دار العلوم ومنها للانتماء لجماعة الإخوان المسلمين، فإن والد بليغ - عبد الحميد حمدي مرسي - كان من أوائل علماء الطبيعة. فهل هو فارق الزمن أم فارق المصادفة البيولوجية؟ ماذا لو جئت أنا لأسرة، الأب فيها عبقريّ في الرياضيات والأم فيها - كما أمّ بليغ - من طليعة السيدات الوفديات. من يعلم ما تفضي إليه لعبة المصادفة، وستدرك السر حين تدرك العلاقة الغامضة بين الأشياء. وحتى يحدث ذلك فاعلم أن الفتى كبر ودخل المدرسة، ومن نافلة القول إنه كان فاشلا مدرسيا. لم يتفهم ذلك سوى أبيه التقدمي، يناديه ويسأله:

- كل المدرسين يشتكون منك ومن شقاوتك!

يطأطئ الغلام رأسه خزيا، ولكن الأب يبتسم في تسامح:

- طيب، ماذا تريد؟

فتتردد كلمة مزيكاتي بحماسة، وبتلك اللثغة الطفولية. يضحك أبوه ويُدخله الجامعة الأمريكية ليتعلم تعليما أهليا، حُرّا، ويتفرغ للموسيقا التي يحبها. يُجلسه إلى جواره ويشغل له أسطوانات الموسيقى الكلاسيكية.

ثم بغتة - وكما يحدث في أفلام حسن الإمام الميلودرامية الرديئة - يموت الأب الذي كان يتعهد هذه الموهبة بالرعاية، ويتركه وحيدا مع

أخوين وأختين لـ ماما عيشة، والتي هي - مهما قيل عن طيبتها وتسامحها - في نهاية المطاف أم؛ تصرخ فيه لإهماله. تتلقى بأسى خطابات الفصل المتكررة، وتأخذه من يده من مدرسة لأخرى. يطأطئ رأسه مع تقريعها له لسمعته الدراسية السيئة وانعدام تركيزه، ولا يجد ردا وهي تنظر له معاتبة. ينتقل من مدرسة لمدرسة وصولا لشبرا الثانوية، والتي كانت تضم مسرحا كبيرا وفرقة كبيرة، وناظرا يدعى سامي عاشور.

وكأني رأيته، ماشيا في شوارع باريس بعد أن بدأت تطاردني نوبات الأرق الطويلة. أقتحمُ عزلته، ولا يفزع حين يراني - كأنه كان يتوقع رؤيتي، وكأنه سألني من أنت؟ وكأني أجبتُ: طلال فيصل، سواح وماشي في البلاد سواح، والخطوة بيني وبين حبيبي براح، مشوار بعيد وأنا فيه غريب، والليل يقرب والنهار روّاح! فيبتسمُ ويحكم إغلاق معطفه:

- وماذا تريد يا سيد سوّاح؟

أخبره بأني أكتب رواية عنه، فيبتسم في إشفاق:

- عذر مقبول، ولكنك تريدُ من لا يريدك يا حضرة العاشق المجنون، وتتخذ الكتابة عنّي عذرا للنسيان.

ثم يدندن هامسا: «يا ترى، يا واحشني، بتفكر في مين».

ولو أن هذه الأشياء تحدث، فإن حياتي، أنا وهو، صارتا مثل الطباعة فوق صفحة مكتوبة؛ يتداخل النصّان لا تميّز أحدهما من الآخر، أتخيل أنّي هو، أو أني تعلّمت منه شيئا عن الحب أو الحياة. أكلمه وأسمعه، ماشيين في الشوارع ذاتها، بينما يواصل غناءه في عذوبة، متسائلا كأنه يرثي لحالي: عامل إيه الشوق معاك، عامل إيه فيك الحنين!

- وهل ساعدك هذا الناظر، سامي عاشور، في تحقيق حلمك كموسيقي؟

ـ خير مساعدة، طردني!

كان مشهورا بالشدّة، فطردهم جميعا من المدرسة، تلك الشلة التي لم يكن أفرادها يفترقون أبدا.

أما التي تجرعت معه المعاناة في تلك الأيام فهي أمّه؛ ذلك لأن الأمر لم يقتصر على الخيبة في التعليم فحسب!

٥

وإذا كان الطريق طويلا فإني قد مشيته. لأن إذا كنتُ قد لسعتُ فعلا، فقشطة يعني! الطفل المتفوق في مدرسة غار حراء يدركه داء القراءة والسؤال مبكرا، مقارنة بما كان يشغل كل زملائه وإخوانه من تفاهات. قضمت التفاحة فهبطت من جنة الطمأنينة إلى أرض السؤال الخشنة: شغلتني محاولة الفهم، سألت عن الفرق بين عبد الناصر والسادات، ما أفضلية الإخوان المسلمين على غيرهم؟ من هو حسن البنا؟ ولماذا قاتل الصحابة بعضهم بعضا؟ الحسين شهيد، موافق، ومعاوية؟ ويزيد؟ هل الدودة في البيت الأموي، أم أنها في أصل شجرة هذا الدين؟ مزقتني الحيرة الوجودية بحثا عن المعنى.

قرأت لإبراهيم عيسى وفرج فودة ونصر أبو زيد. أدمنت القراءة في الرياضيات والفيزياء وتاريخ العلوم. تعلمت الصياغة والتزويغ من حصص الدروس في سنتر اليمامة إذ ما فائدة حصة فيزياء بائسة لا تشبع رغبتي في معرفة أصل الكون؟ عرفت سكة المحاضرات والندوات في ساقية الصاوي، في رحلة اكتشاف للعالم الجديد، كأن كل شيء ينبغي أن يبدأ في الزمالك، كما ستتكشف لك الحكاية!

أول تمرد على سلطة الأب الإخواني المهيب تمثّل في شرائط

الأغاني: حبيبي يا لمحمد فؤاد، كمّل كلامك لعمرو دياب، ثُم حضن الغريب لتامر حسني. أول مناقشة، هات لي نصا يحرم الغناء! الجدل حول رأي ابن حزم وفتوى القرضاوي. أعرفُ ضعف أبي أمامي بقدر ما أحتقره. وأتسمّع خطوة أختي إذ ترجع من درس القرآن فتخلع الطرحة وتلقيها على الكنبة، ضيقا من الحرّ، وهي تحكي عن مناقشاتها الحامية مع زميلات الدعوة الفردية، ما إذا كان انتخاب الإخوان واجبا شرعيا أم مجرد فضل تعبّدي.

إنني أحدثك عن برلمان ٢٠٠٥ فاكتُم ضحكتك وحاول أن تسمعني للنهاية ثمة آية وحديث وقصة من السيرة النبوية حاضرة دائما ليتم الاستشهاد بها في كل موقف. لقد قال عليّ بن أبي طالب إن القرآن حمّال أوجه، والمعنى أنّ أي حاجة يمكنها أن تعني أي حاجة، وفي الآخر كله كلام، فمن الذي يمكنه الجزم بمعناه! يدور نقاش هزلي، تُغني أختي ويردّ عليها أبي فيما يبدو للمتفرج نقاشا شرعيا دعويا هادفا، بينما يشغلني في قلق سؤال آخر، وأعمق: ماذا سيحدث لو عثرت هي أو هو ـ لا قدر العزيز الجليل ـ على أفلام السكس الـ Hidden في لعبة الفيفا؟ كان الله على العرش وكانت الـ ٢٠٠٥، فكيف ولدت فكرة حركة كفاية؟ وهل كان أيمن نور أهبل فقط، أم أهبل ومتآمر؟

أقول لأبي إني أريد موبايلا فيزمّ شفتيه ويطلب مني أن أتقي الله. وبعد يومين، ونحن ذاهبون لشرائه تقول له أمي بأسى إنه يفسدني بدلعه لي. طلال قُرة عين أبيه، فكم كان سعر الموبايل النوكيا ٦٦٠٠؟ وماذا نفعل إن كانت الطبيعة قد وهبتنا ذاكرة رمرامة تستدعي صورا في غير موضعها بلا مبرر؟ وإذا كان البرادعي، تخيل، قد جاء موضوعا للتعبير في امتحان اللغة الفرنسية في الثانوية العامة، باعتباره رمزا ومثلا، بعد فوزه بجائزة نوبل للسلام، فماذا تُراك قد كتبت عنه يا طلال؟ ما هو اسم الله الأعظم

الذي إذا دعي به أجاب؟ وكيف حصلت على الدرجة النهائية في اللغة الفرنسية وقد تركت سؤالا كاملا، يفقأ عين الناظرين، بلا إجابة، فأغشيناهم فهم لا يبصرون؟! ربما، ولكنّ السؤال، إذا كبرت الكذبة، كبرت قوي يعني، هل تتحول إلى فضيحة، أم حقيقة؟ وكما جاء في امتحان اللغة العربية ذلك العام، ما هو مذكر كلمة عذراء، وقد أدركت ماريبل أني حين نمت معها كنتُ مذكر عذراء، فقالت ما قالت. فلماذا اقترح أصحاب والدي الإخوانجي الطيب، في جلسة عقب صلاة المغرب، إدخالي، لا مؤاخذة، حقوق فرنساوي بمصاريفها الباهظة؟ من يعلم، لعل تلك العبارة المضحكة قيلت ساعتها «ليس لنا كوادر في هذا الثغر، فتوكل على الله». وأجمل ما في الإخوان، والإسلام على العموم، أن هناك سويغا شرعيا لكل شيء، وهناك نية صالحة لأي فعل، أيا كان، وإنما الأعمال بالنيات. فاقلع اللباس وصلّ على النبي وانتبه:

حكايتي معقدة، ومبنية على ثلاثة خطوط متوازية، أولها سيرة موسيقار موهوب أدرك سر الحياة و النغمة الحلوة والنسوان فابتهج وأبهجنا معه، وثانيها حدوتة فتى غرّ غادر بلاده، هربا أو عشقا أو كليهما، فانتهى مُكلبشا في مصحة في قلب باريس، وثالثها سيرة الهرب من الهوس والحزن بمطاردة النغمة الحائرة، ومحاولة تحليلها، في صحبة موسيقار مغربي مديوكر، غير موهوب، ولا قيمة فعلية له في الحكاية.

ويناديني والدي؛ يسألني لماذا لم أعد أنتظم في حضور لقاءات الأسرة؟ ولا أجد جوابا فيضيف بأسى: «لماذا لم تعد منضبطا في الصلاة كما كنت من قبل؟». ولا أرد. يسألني ما إذا كنتُ لا أزال لا أراجع المصحف الذي حفظتُه، ولا أردّ. يمنحني سؤالا إثر سؤال، فيما يعرفه حفظةُ القرآن بالمتشابهات، أجيب الأسئلة جميعها. لعل الشيطان نفسه كان يحفظ كلام الله فماذا يعني أي شيء! هذا الكتاب دخل رأسي ولن يخرج منه ثانية.

يخبرني أبي فيما يشبه المقدمة الإنشائية أنه ليس راضيا عن مجموعي في الثانوية العامة وأن الكتب والأفلام والسفسطة وندوات العلمانيين في ساقية الصاوي لن تنفعني. ثم يشيد على مضض بدرجاتي المرتفعة في اللغات، ودرجتي النهائية في اللغة العربية. يقول شيئا ما عن القرآن أو لغة القرآن، تقريبا، ثم يقترح ـ ما اقترحه إخوانُه في لقاء الأسرة ـ من دخول حقوق فرنساوي. وأهزّ رأسي ولا أعقبُ.

أما الفتى الطيب المهذب الذي نشأ في طاعة الله، فقد أدرك انتشار الإنترنت، وتعرف على أصحاب جدد. وقف بينهم يؤيد المظاهرات الهزيلة في ميدان الجامعة، حول تمثال نهضة مصر، وعلى سلم نقابة الصحفيين. كنا رجالة ووقفنا وقفة رجالة. آمنّا بأن النصر آت وأن الثورة قادمة وأنه مين اللي يقدر ساعة يحبس مصر. تعارفنا بعضنا على بعض أونلاين، جلسنا على البورصة وأكلنا من عند القزاز وكتبنا على المدونات. كنا رجالة ووقفنا وقفة رجالة، لعبنا على الكيبوردات فقامت الثورة، فرحنا وهيّصنا، ولكن اللحظات الجميلة قصيرة، ولا تعني شيئا، لا شيء يعني أي شيء: رعشتك لحظة القذف لا تعني أن العلاقة ناجحة، تنحي مبارك لا يعني أن النظام سقط، صلابة الإخوان المسلمين، وجرح أبي وسط من جرحوا في موقعة الجمل، لا يعني أنهم ليسوا ولاد وسخة. وتخرجي من حقوق فرنساوي لا يعني أني أجيد الفرنسية، بكاء ماريبل في النافذة يومها، والبوليس يشدني كالفأر القذر، لا يعني أنها تحبني، حصولي على منحة كتابة لا يعني أنني كاتب، وصفوف المصلين الباكين لا تعني أن الله موجود، وخلود أسطورة بليغ حمدي لا يعني أن كل أغانيه عظيمة... فاسمع منّي وعنّي، وتذكر أنّ الفتى الذي نشأ في طاعة الله دخل جامعة القاهرة، وبدأ كل شيء، فتدبّر.

## ٦

ولو أنك تأملت في الصورة الأنيقة، التي رفعتها على الفيسبوك، لبوليفار سان ميشيل والنوتة الجلدية السوداء ذات القفل الذهبي، مفتوحةً وفيها القلم الأحمر، لظننتَ كل شيء على ما يرام. وقد جاء في الأثر أن السعيد هو من كانت حياته في الحقيقة كما تبدو على الـProfile. تتصاعدُ الـLikeـات ويتطور الأمر للـShare. وقد قيل إن مجنون ليلى كان يقطع الصحراء، مشيا، هربا من الهوس الذي يطارده. باريس، على أي حال، أفضل من صحراء الربع الخالي، أقول مُعزيا نفسي، وأنا أواصل المشي بحثا عن إنسان آخر، لا داب ولا حب، ولا انجرح ولا شاف حرمان.

أمشي وأمشي. قالوا تسلّ عن المحبوب، تدرّب على النسيان وتأمل في العيون السود؛ ولو تأملت في العيون السود لعرفت كل شيء عن كل شيء، وادخُل لموسيقا صاحبنا من بوابة كبيرة تُدعى محمود الشريف؛ وتذكر المطرب القنوع كارم محمود إذ يغني لابو العيون السود، والذي يتميز، كذلك، بأن جماله زين، أو تذكّر المطرب المعجباني عبد الغني السيد إذ يُعوج طربوشه ويغني لـ بتاع الياسمين، مين يندهلُّـه مين.

أواصلُ المشي من بوليفار سان جرمان إلى حديقة لوكسمبورج المترامية، ثم أواصلُ المشي داخلها. فيها تطالعُني رحلةٌ مدرسية لأطفال فرنسيين سعداء، ضحكات ترن وزقزقة عصافير. آه يا أولاد الزواني، يا أولاد العلمانية الشاملة المستقرة، لو كنتم وُلدتم مصريين لكنتم عرفتم معنى آخر للحياة. غير أن كل شيء قسمة ونصيب، فلترن ضحكاتكم العالية حتى تتعرضوا لأول انفصال عمن تحبون، ساعتها ستعرفون عقار السيتالوبرام وجلسات المعالج النفسي ذات الأربعين دقيقة في سان سولبيس. ستجدون ماريل هناك، فإذا وجدتموها ابصقوا على وجهها؛

فإني نسيت أن أفعل ذلك قبل أن أغادر بيتها، وقولوا لها ولأصحابها الإنتلكتشوال إن هذه الكلمات، وهذا اللحن، لا يمكن للأذن الغربية أن تفهمها ولا أن تميزها. قولوا لها ذلك فإنه يوجعُها ويؤذيها، أو هكذا أرجو!

انسَ ماريبل واكتُب. النوتة الجلدية تبدو أنيقة مغرية بالكتابة، كما في الصورة، والـLikeـات تتصاعد، وصوت كارم محمود يأتي في أذني صافيا، إذ يغني ببال رائق. الموسيقى هي جوهر وجود بليغ، وهي مفتاحه. الكتابة عن حياته دون تحليل موسيقاه تهريج. وقد قال في حوار إذاعي إنه قرر أن يصبح موسيقيا بعد سماع الأغنيتين، وكلتاهما من ألحان محمود الشريف - أسمعهما مرة بالتوزيع القديم ومرة بالتوزيع الجديد؛ أستمع الخيط الموسيقيّ الذي يتسلل في شجن، النايات التي تبكي لحنا كأنه مرثية لحبيب غائب، ثم تدخل النغمة الحذرة المتسائلة، يا بو العيون السود، يا اللي جمالك زين، مِتى الوداد يعود، وتنول مُناها العين. ثم أنتبه لمفارقة أن كل هذه البكائية والشجن تدور وفي الخلفية إيقاع المقسوم الراقص المنفلت الذي لا يعرف الاحتشام!

أسمعُ الأغنية عددا لا أحصيه من المرات في محاولة يائسة للتركيز في الرواية وعدم التفكير فيما لا ينبغي التفكير فيه. أكرر النغمة مرة إثر مرة، وهي مغرية بالترديد على كل حال. أحاول، وأنا أضبط صوتي النحيل عليها، أن أتذكر أين سمعتها قبل ذلك. يقولون إنه من أعراض الاكتئاب النسيان وبذل مجهود مضاعف لاستعادة المعلومات، أو الحفاظ على خيط التفكير، فهل أنا مكتئب لهذه الدرجة، فعلا؟! ولا ألبث أن أتذكرُ فجأة، وأضحك للمفارقة؛ الآن أعرف أين سمعت هذه النغمة، أتذكر بوضوح كالشمس في نهار باريس الصيفي الدافئ، أو كبهجة صوت أمي في الفايبر من ساعتين فرحا بفوز مُرسي في الانتخابات، أو حتى كضحكة الأطفال البُلهاء من حولي الآن في الحديقة؛ يا بو العيون السود/ يا نابليون

يا زين/ ليلتك أنس وفيري جود/ يا بو العيون السود. ذلك الأوبريت الشهير لإسماعيل ياسين في مستشفى المجانين، المعروف بأوبريت العقلاء. وأشعر بأن كل شيء واضح في ذهني وصاف تماما، وأن كل شيء مترابط بشكل لم أنتبه له من قبل. كأني اكتشفت السر وعرفت مكنون قلب الوجود.

تدهمني بهجة طارئة؛ إذا كانت العيون السود هي الأغنية التي صنعت من بليغ ملحنا، فإن أول أغنية لحنها لوردة هي العيون السود. وإذا كان لحنها يصلح لأغنية شجية عذبة فهي تصلح لتكون مونولوجا هزليا مسخرة. وإذا كانت أول أغنية لحنها بليغ لأم كلثوم هي «حب إيه» فقد كانت في الأصل لحنا فكاهيا لثريا حلمي. إن كل شيء مرتبط بخيط واحد واضح. أضحك من فرط الوضوح والصفاء وينطلق صوتي حُرا في فضاء حديقة لوكسمبورج:

«حبيــت وقلت ياريــت، الحبّ يصفالــي

وياريت ما كنت هويت، ولا كان على بالي».

ومن دون مقدمات، يباغتني صوتٌ أجش ذو لكنة مغربية واضحة، مُقاطعا:

- صول، لا، سي بيمول، دو بيمول، مقام صبا! الله عليك يا مصري، يا بو العيون السود.

كيف لم أنتبه لوجوده إلى جانبي طوال جلستي على هذا المقعد البعيد في الحديقة!

يشبك كفيه، يعتدل في جلسته، تتسع ابتسامته وهو ينشد بمزاج، دونما أدنى مبرر:

- ويوم تبعتُكم وتركتُ أهلي/ عجيجَ العود يتبع القرينا.

يمد يده مصافحا، يتطوع موضحا، دون أن يطلب أحدٌ، أن هذا البيت الذي قاله للتوّ، هو لشاعر أموي يُدعى ذا الرمة!

ـ أهلا بك وبه يا سيدي!

يمسح بيده المتغضنة بالتجاعيد على شعره الأشيب، ويمدها لي مصافحا، فيكونُ هذا، في الثاني من يوليو عام ٢٠١٢، أول تعارفي بسليمان العطار...

## ٧

واعلم أن بليغ ينتقل مطرودا إلى مدرسة التوفيقية الثانوية، بصحبة تلك الشلة، المعروفة بشلة الفاقدين، يوسف عوف ومحمد عوض وصلاح عرام ومحمد خفاجي ولطفي عبد الحميد، أو «فتلة» كما سيعرف لاحقا في برنامج ساعة لقلبك، البرنامج الذي سيكون أول خطوة في مشوار نجومية صنّاعه، والذين سيعتمدون بليغ مطربا لفرقتهم! الموهبة كالجريمة يستحيل إخفاؤها، ويستحيل تفسيرها، فاعلم ـ أعزّك الذي لا نعرف إن كان موجودا أم لا ـ أن أصل المسخرة قردٌ طموحٌ أخذ يحرك إبهامه، واكتشف حين لعب به على الأوتار أنه يصدر نغمات عذبة، تجتمع حولها قرود الغابة وتهز رءوسها في بهجة غامضة. أما القردات الفاتنات فأخذن يحركن أعضاءهن في نشوة مُغوية ساحرة.

سيقول العربيد الشقيّ، في خشوع، بعدها بسنوات في لقاء إذاعي:

«الغناء الشرقي باقٍ ما بقيت التلاوة القرآنية».

فابتسم يا رعاك الله، واعلم أن رقص نجوى فؤاد وزينات علوي وسامية جمال باقٍ ما بقي كتاب الله! فاللهم احفظ مصر واحفظ إيمان أهلها. وردّد مع الشيخ الشعراوي إذ يقول بصوته المؤثر، ولكنها مصر.

بين الهزل والجد تقع حكمة الفتى، العاشق الغافل عن العذاب، والذي ينطلق مع أصحابه ليحتفلوا بالكريسماس، وكان عمره أربعة عشر عاما فحسب. يشتركون جميعا في شراء زجاجة كونياك، ويظل يشرب منها حتى سكر طينة. كان يريد أن يعرف ما تفعله الخمر بالإنسان، وحين يصل للبيت تخبئهُ أخته صفية من أمه، حتى لا تنفجر فيه كما تفعل دوما.

تكون هذه أول مرة شرب، وستكون بعدها أول قبلة، عام ١٩٥٠، حين يسقط الفتى لأول مرة في الحب. أما هو فقد كان في الثامنة عشرة، وأما الفتاة فيونانية، واسمها ماريا. وحين يتجرأ صوت الصبي النحيل فيطلب منها بوسة، تهز كتفيها؛ يلح في الطلب فتتصنع التفكير ثم تطلب منه، شرطا، أن يغني لها غنوة لعبدالوهاب، فيضرب الفتى الأرض برجله، اعتراضا غاضبا:

ـ عبد الوهاب؟ سأغني لك غنوة من تلحيني.

ويغني لها، على مهل، روح والنبي يا قمر، للحلو بوس لي عنيه، والنبي يا قمر، فتُضيّق عينيها بخبث:

ـ آه يا أونطجي، غلط!! إنك ستغني هذه الغنوة بعد ثماني سنوات بالضبط في فيلم لكمال الشناوي، اسمه «سامحني»!

يضمّها بعنف، وقد جنّ جنونُ رغبته الحامية:

ـ لنفترض إذن أن الروائي أخطأ في أحد التفاصيل وهو يكتب روايته.

ـ يعني كلامنا الآن مجرد وهم روائي؟!

ـ الكلام وهمي، أما البُوسة فحقيقةٌ لا شك فيها!

ويضعُ شفتيه على شفتيها منهيا النقاش. فقل لي في أي سنّ كانت

قبلتك الأولى أقل لك من أنت، وقل لمن كان في الثامنة عشرة، وعرف فمه طعم الخمر والقبل، وعرفت أذنُه صوت المرأة مُستمتعة بما نفعله فيها، كيف لك تقارن نفسك به، وقد كان عليك أن تفرّ من بلدك ومن أسرتك الإخوانية، وأن تعبر البحر الأبيض المتوسط بعد سنّ الرشد حتى تعرف شيئا من ذلك. يضع يده في يدها ضاحكين كما العشاق في البدايات، منطلقين في شوارع القاهرة التي كانت في زمنهم جميلة.

وبعدها بيومين، أو ثلاثة، قد سافر أهلها في إجازة لليونان، تدعوه للبيت فيحدث بينهما ما ينبغي أن يحدث، لتكون تجربته الأولى، وينفتح الباب عن ناحية أخرى من العالم، بهيجة، تضجّ بالأصوات والألوان!

## ٨

اكتب رسالة لصديقك الفرنسي تخبره فيها بأن الكذبة حين تكبر تتحول لحقيقة، مستقرة وراسخة، يصدقها الجميع ويؤمنون بها. واكتب رسالة أخرى لصديقتك الفرنسية تخبرها فيها بأنك تنسى كل شيء ولا تنساها. حين دخلت كلية الحقوق بالجامعة، كانوا ينظرون لنا، نحن طلبة القسم الفرنسي، باعتبارنا ولاد الناس الذين ضمنوا أماكن العمل في الشركات الـ Multinational قبل إنهاء الدراسة. ويقول الأستاذ ذات يوم، إجابة لاستفسار ما من زميلة عن الجزء الملغى من المنهج قبل الامتحان، وببجاحة تستحق التقدير:

«يا أستاذة، هوّني عليك؛ الذين سيعملون في الجامعة أو النيابة معروفون لنا من الآن».

ولسبب غامض يضحك المدرج على هذه الجملة، التي تؤكد أن مصر زريبة، وأن هؤلاء الطلبة مجرد أنعام، لا يحرك مصيرها إلا ضربة حظ لا يد

لهم في اختيارها. لم تكن حقيقة أننا نعيش في زريبة، ولا بجاحة الأستاذ هي ما يثير الدهشة، ولكن لماذا ضحكوا؟ هذا هو الشيء الذي سيظل مجهولا لي، مثل باقي حقائق الميتافيزيقا، والظواهر الكونية الغامضة، وتغيّر مزاج المحبوب بلا سبب. كنت بعدُ في العام الجامعي الأول، وكنتُ قد بدأت كتابة القصص والمقالات، فأكتبُ شيئا ما عن هذا الموقف. كان شيئا ما ركيكا على كل حال، مثل كل ما كان يُنشر أيامها.

غير أن الجرأة حلوة، مؤكد حلوة. أرسلُه إلى نجم الكتابة عند جيلي، بلال فضل، والذي ينشره بدوره بعدها بأسبوع واحد في بريد القراء بجريدة الدستور، والتي كانت وقتها تملأ الدنيا وتشغل الناس. أرسلُ له ـ بلال ـ إيميلا، نتبادل الشكر والردّ، ووسط الكلام يخبرني بأن أسلوبي جيد وأن لديّ عدة أفكار تصلح للنشر. ينصحني بمحاولة الكتابة في الدستور، والجرأة حلوة والحظ شاطر والحياة أتفه مما نتصور. أكتبُ عدة موضوعات ـ لا يمكن إخضاعها لأي تصنيف ـ وأطبعُ ما كتبت وأركب الميكروباص وأنزل أمام مقر الجريدة لأقابل هناك من يخبرني بأنه متحمس لكتابتي. يعلّق ضاحكا:

«شكلك إخوان وإرهابي، لكن كتابتك حلوة!».

وفي الأسبوع التالي يُنشر موضوعي كاملا! وقد حدث الانفجار الكبير وانبثقت منه خلية لا شكل لها، ثم بدأ كل شيء في غمضة عين. فتأمل في قانون المصادفة واخضع لمشيئته في تواضع يليق بملحد عقلاني محترم، واحترم نفسك واسمع حكايتي بما يليق بها باهتمام.

كل الخطوات المصيرية في حياتي بعد ذلك كانت مجرد خطوات مرتجلة، عشوائية، مثل ضربات البلياردو من شخص غير محترف.

كان الحظ ولا شيء معه. لقد بدأت الكتابة، في تلك الأعوام الذهبية

للنشر والثقافة والترجمة والتمرد وصناعة النجومية الأدبية. أتيتُ مستعدا تماما؛ شاب ملتح نحيل، له خلفية إسلاموية ظاهرة ويتحدث الفرنسية ـ بما يظنه المصريون طلاقة. شاب عنده حكايات عن أبيه الإخواني ولقاءات الأسرة وعالم الإخوان الساحر الغامض، الأسرة والشعبة والدعوة الفردية والهيكل التنظيمي، وعلاوة على ذلك يعرفُ كيف يكتب جملة عربية سليمة. جئتُ في اللحظة المناسبة بكاركتر كامل مكمّل لا شية فيه، كان هو كل صلاحياتي.

كانت الكتابة في الجرائد موضة فكتبنا، ونُشر لي لأني قلت الكلمتين اللتين كان مُرحبا بنشرهما وقتهما. ما أتعس عقارب الساعة حين تظن نفسها مسئولة عن حركة الزمن. أدَّيت الدور بوعي وأتقنته بإخلاص الملحد للعدم، وهكذا كان كل شيء. سبوبة الثقافة في تلك السنوات القليلة الواقعة بين الـ ٢٠٠٥ وحتى قيام ثورة الخامس والعشرين من يناير ـ أعادها الله علينا بالخير واليُمن والبركات ـ حين كانت الدجاجة تبيض ذهبا، جرائد ومجلات ومكافآت إنتاج (تتراوح بين الخمسين جنيها وصولا للخمسمائة لو الجرنال لا يزال في البداية، ويا سلام لو ربنا فتح عليك بجرنال أو مجلة خليجية تدفع بالدولار). الخيطُ يكرّ والخطوة تتبعها الخطوة وقهاوي وسط البلد تتحول إلى بيت. الكليةُ، أذهب إليها لتصوير الكتب والملازم في آخر يوم، ثم حضور الامتحانات فأنجح، وشكرا لكوكب الأرض.

نشرتُ في أكثر من جريدة وترجمت عدة حوارات صحفية. لم أكن قد أتممتُ عامي الجامعي الثالث بعد حين بدأت كتابة نصوص كتابي الأول «سيرة مولع بالهوانم» الذي لعبتُ فيه على حواديت الجامعة والحب عند الملتزمين من السلفيين والإخوان، ثم نشرته في دار نشر ميريت، وانتشر انتشارا لا بأس به.

مضيتُ أترجم بشجاعة أحسد عليها، كلمتين فرنساوي وكلمتين إنجليزي، قل إنك تعرف ولا تقلق؛ إذا أعجزك فهم شيء فتحايل عليه بإعادة صياغة الجملة بحيث يكون لها معنى. الترجمة إعادة إنتاج للنص! يا دكتور والله كله هجص في هجص، فاكتب خطابا للمجهول تشكره فيه على فتح حنفية سبوبة الترجمة، وهوس البست سيلر، والمشهد العالمي، والتعرف على الآخر، وأما الآخر فيُصلب فتأكل الطير من رأسه، تقريبا. ذاك أنه - جل وعلا على عرشه المزعوم - يرزق شاعر النثر والكاتب بالقطعة وطالب الحقوق والصحفي غير المنتظر لجنة القيد بنقابة الصحفيين، طلال فيصل، في قلب الحجر!

بعدها بعدة شهور أجدني جالسا على مقهى غزال بوسط البلد أنتظرُ صديقا ما؛ من المفترض أن نذهب لجريدة جديدة، تُدعى اليوم السابع، على وشك الصدور. يخبرني أنهم بحاجة لمحررين، يتحدثُ عن مرتبات الجريدة المرتفعة، وأجدني، دون أن أدري من أين تأتي الفكرة ولا الكلام، أقاطعه بغير صبر:

«فُكك. كل الجرائد تدفع جيدا وتعدُ بالتعيين والنقابة حتى ينصرف إليها الصحفيون في البداية، جربنا هذا السيناريو قبل ذلك. أنا عندي فكرة أحسن».

وكانت تلك الفكرة هي أول الخيط الذي سيمتدّ من هذه النقطة وصولا للقائي بالجميلة الملعونة، ووصولي لباريس، فتدبّر.

## ٩

ولو أنك تأملت أغانيه، والمزيكا التي أنتجها لفهمته، ولأحببته، ولاتخذته مثلا أعلى كما فعلتُ أنا. يخبرني سليمان في المقهى الكبير

أمام حديقة لوكسمبورج أنه مدرس موسيقى، مغربي، يعيش في باريس منذ خمسة وثلاثين عاما، ويعرفُ عنّي ما أقولُه له، يضحك باستمتاع يبدو حقيقيا:

- أنت مجنون يا مصري؛ يعني كل الأغاني الشرقية الحزينة هي أصلا مونولوجات فكاهية؛ وجهان لعملة واحدة؟!

- عملة واحدة اسمها الطرب، الطرب الشرقي الذي هو جوهر الثقافة الشرقية وروحها. أنا أشرحُ لك...

ومع رشفة فنجان القهوة الباريسية المُرة، أشعر بحماس حقيقي؛ أستعيد قدرتي على الكتابة والتفكير من جديد. لتحل بنا بركات حكم الإخوان، أو بركات النوتة الجلدية الجديدة والمشي في باريس بلا طائل. ها هي ذي الصدفة السعيدة تسوقُ موسيقيا مغربيا فرنسيا من المجهول لنتكلم في الموسيقى. ولعل بليغ صاحبي يبتسم لي من المجهول مشجعا، ولعلي شفيت من الهوس بالملعونة. سليمان يبدو مستمتعا بسماعي، وأنا أتكلم بحماس:

- شوف، هناك خيط خفي بين التلاوة القرآنية - على الطريقة المصرية، والعُرب والنقلات في الغناء المصري. هذا تلاحظُه بوضوح عند ملحن مثل محمود الشريف، الأب الشرعي لبليغ حمدي. استمِع مثلا لجملة: يا بوالعيون السود، يا اللي جمالك زين. هذه الجملة الحزينة....

فيبتسم مقاطعا:

- هذا مقام الصبا الحزايني.

- الأسماء لا تهم، المهم المعنى الكامن خلف الحكاية، المهم الدلالة لا الاسم يا عزيزي!

ـ طيب، كمّل شرح نظريتك يا فيلسوف!

ـ أنا أقول لك، لاحظ كيف تنقلبُ هذه الجملة الموسيقية الحزينة، ساخرةً وكوميدية بمجرد تغيير الإيقاع في مونولوج إسماعيل ياسين، يا بو العيون السود، يا نابليون يا زين. هناك شيء غامض في الموسيقى الشرقية، شيء لا أعرف كيف أوضحه تماما، لكنه يظهر حين نبطئ أو نسارع الإيقاع. أفضل مثال لذلك هو التلاوة القرآنية، ذاك أنها بالغة البطء، كل حرف يُقرأ منفردا، وعلى مهل. كأن الزمن يتوقف تماما، وهنا بالضبط مربط الفرس. إن فكرة الطرب وجوهرها هي توقف الزمن؛ أن الزمن لا يهم، أن الحياة السعيدة هي الفراغ السعيد، هي القعود على هامش هذا الزمن الذي لا يتوقف.

فيبتسم في رضا وهو ينهي فنجان قهوته:

ـ أنت تقصد الربع تون، أذنك حلوة يا مصري يا مجنون.

ـ أنت أدرى بالمصطلحات بحكم دراستك للموسيقى. لكن تأمّل كلام بليغ عن التلاوة القرآنية، وولعه بالشعبيات، ثم ارتباط موسيقاه بالرقص الشرقي. لا يمكن للمرء أن يغفل التشابك بين كل ذلك. من المثير للتأمل أن حب إيه في الأصل كانت مونولوجا فكاهيا لثريا حلمي، أنت تعرفها طبعا!

فيهز رأسه ويبتسم ولا يعلق.

ـ إن الموسيقى الشرقية في جوهرها نقيض تام للموسيقى الغربية، حيث البناء الهارموني هو الأصل والأساس. حيث الزمن، أو العمل، قيمة أصيلة لها كل قدسية واحترام، بينما على العكس في الموسيقى الشرقية، سواء تلاوة أو طرب أو حتى مزيكا رقص، فالقاعدة هي الجلوس خارج الزمن، تجاهله، الاستعلاء عليه ونسيانه. نحن

المؤمنون بالغيب، كيف يليق بنا أن نحترم أو أن نهتم بالحياة الدنيا، بالعمل أو بالزمن. إن سماع الموسيقى، أو الطرب، متضمنا تلاوة القرآن بطبيعة الحال ـ يتحول هنا لطقس أشبه بشرب الحشيش...

فتجلجل ضحكته العالية في فضاء المقهى وهو يقول:

ـ بدأنا بكتاب الله ووصلنا للحشيش. هل أنت ملحد يا بنيّ؟

أضع يدي على صدري وأقول باطمئنان:

ـ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا عظيما.

فيضحك ثانية حتى يسعل:

ـ نقطة نظام من فضلك، مع احترامي لمصر وأهلها، لكن لا يليق بك أن تتكلم عن الحشيش في حضرة مغربي أبدا.

ـ أعتبرُ هذا الكلام وعدا؟

فيضحك مجددا:

ـ وعد؛ كله موجود يا مصري؛ أنا متحمس تماما لمشروعك عن بليغ حمدي، وعندي لك Offre special كما يقول الإخوة الفرنسيون.

ويعرض فكرته فلا أجدها سيئة أبدا، وأفكرُ في أني طوال جلستنا لم أفكر في ماريبل؛ لعل الموسيقى والكتابة شفاء. لا بد أن أنتهي من هذه الرواية، على الأقل التزاما بالـDeadline واستمرارا لدعم المنحة! هكذا نكون قد خرجنا من هذه التجربة بأي شيء مفيد! وأبتسمُ حين يغمض سليمان عينيه، ويبدأ ينشد بدون مبرر، وبمنتهى الروقان:

«أيا قلبُ أخبرني، وفي النأي راحةٌ

إذا ما نوت هندٌ غدا كيف تصنعُ»

وأقول لنفسي إن الحظ، رغم كل شيء، لم يتخلّ عني بعدُ...

## ١٠

واعلم أنّ ماريا تأخذ بيد صاحبنا وتفتح له الباب لطريق النساء، ليمضي فيه بعد ذلك منفردا كيف يشاء. واعلم أننا على طول الحياة، نقابل ناسا ونعرف ناسا ونرتاح ويّا ناس عن الناس، ولكن السؤال الموجع قائمٌ لا يزال: ومين ينسى شعاع أول شرارة حب؟! شهور معدودات وتسافرُ البنت اليونانية، الحبّ الأول لصاحبنا. ويقف صاحبنا على رصيف القطار دامعا، يعانقها للمرة الأخيرة، ثم يغادر مشيا من محطة مصر، يخرج للنيل عبر شارع السبتية، يدندن بنغمة شجية ما، لعلها ستظهر بعد ذلك في عمل ما من أعماله، لعلها ستكون الجملة الخاطفة في بداية أغنية «أعز الناس».

هل واصل المشي على النيل إلى روض الفرج، أم أن كآبته دفعته لذهاب أبعد من ذلك، الخلفاوي مثلا. يدخل البيت باكيا مُتشحتفا، وحين تراه ماما عيشة تبتسم في تعاطف:

ـ صاحبتك سافرت...؟

فينهنه ولا يردّ، وتأخذه في حضنها:

ـ العالم مليء بالنساء الجميلات. المهم أن تكون عيوننا حلوة لترى الجمال.

ثم تستدرك، وكأنها تذكرت شيئا مهما فجأة:

ـ بليغ، إياك في يوم تنظر لزوجة أو لصاحبة واحد صاحبك نظرة سوء. لو عرفت أن صاحبك ارتبط فلا بد أن تبعد عن صاحبته أو زوجته فورا.

فيهز الطفل الكبير رأسه مستجيبا للنصيحة. تمسح شعره في حنان،

وتمنحه جنيها، وهو مبلغٌ لا بأس به في ذلك الوقت. هل ذهب ليسكر كما نرى في الأفلام القديمة؟ هل جلس ليلعب بالعود ويخترع نغمات ستجد طريقها بعد ذلك إلينا، أم تراه دخل مباشرة في علاقة بعدها، وربما علاقتين متوازيتين ـ وهو يجيد ذلك بكفاءة العفاريت؛ وسيفعله في أبوظبي عام ١٩٧٨ مع تسجيل برنامج جديد في جديد، كما سنرى في المشهد رقم ٥٥.

إننا نعرف أنه وُلد بموهبته الموسيقية، والمؤكد عندي أنه كان أذكى مني وأرحم بنفسه. لكن، هل تراه ولد بهذه الخبرة في التعامل مع الجنس اللطيف الظريف المعروف بالنساء، أم أنه احتاج إلى تذوق المرارة حتى يتعلم؟ وأطرح السؤال على ظله المراوغ فترنّ ضحكة سيدنا الخضر القاسية، بلا جواب...

لا تلبث معاناته العبثية مع التعليم أن تنتهي ويحصل على التوجيهية. ومثل أي إنسان مصري، يجد نفسه مضطرا لدخول كلية للحصول على شهادة جامعية، فيلتحق بكلية الحقوق عام ١٩٥٠ تقريبا. يطلب من ماما عيشة أن يدخل معهد الموسيقى فتستحلفه بذكرى أبيه أن يُتم دراسته الجامعية، حتى لا يقول الناس إنها فشلت في تربيته. يزعن لرغبتها ويدخل كلية الحقوق، هذا ضعفٌ إزاء الأمهات أعرفه جيدا، حين كنت أجدني مضطرا للصلاة أمام أمي وأنا لا أؤمن بشيء!

بالرغم من ذلك، يعرف طريقه لمعهد فؤاد، منتسبا، ولشوارع العوالم والآلاتية في الوقت نفسه. في المعهد يستوقفه أول من آمن به من الرجال، الدكتور الحفني، بطربوشه وشاربه الفخيم:

ـ أنت ياولد.

ـ أفندم يا باشا.

ـ أنا سمعتك تلعب على بيانو من قيمة أسبوع، شكلك فاهم!

ـ دا.. دا.. يعني.. شكرا جدا.

ـ من غير تهتهة، غاوي مزيكا؟

ـ ولا شيء غيرها!

ـ المهم تتعلم، وتسمع كلاسيك!

ـ أبويا كان يسمعها، الله يرحمه، لكني مغرم بعبدالغني السيد وكارم محمود.

ـ من؟!

ـ موتسارت، وبيتهوفن، وعبد الغني السيد، أحيانا.

ـ تمام، اذهب للمعهد العالي للمزيكا، هناك ستتعلم أحسن من هنا! سأساعدك.

يقولون إنه كان خجولا، وأنا لا أصدق ذلك؛ لم تعرض لهُ أبدا فرصة متاحة للنجاح أو التعلم إلا ومدّ يده ليقطفها؛ يحمل نوتته وينطلق لشارع الشيخ ريحان ويصعد سلما قصيرا، يدق جرس الباب لتفتح له سيدة أوروبية عجوز ذات ابتسامة مبهجة:

ـ مدام جوليو؟

ـ آه، أنت بليغ؟ من طرف الدكتور الحفني.

ـ بالضبط، اتصلت بحضرتك بخصوص درس البيانو.

فتقول بفرنسية أنيقة منغومة:

ـ Entrez.

# ١١

ومرّ أعرابيّ بامرأة في الصحراء فقال لها، اسقيني يا شابّة وناوليني حبّة ميّة. فقالت: ألا أدلك على شيء ينفعك؛ اعلم أن ثروة العرب ليست في النفط، ولكنها فيمن يريدون أن يصبحوا روائيين وشعراء. كانت هذه هي الفكرة، ماثلة أمام عيني، فكيف لم تخطر في بالي من قبل.

يجيبُ الصديق، باستخفاف، وهو يضبط حجر الشيشة الرديئة على قهوة غزال:

ـ تفتح دارا للنشر؟ من كثرة فلوسك؟!

ويضيف ناصحا بتعقل:

ـ استهدى بالله، وتعال نجرب جرنال اليوم السابع، المرتبات جيدة وهناك فرص للتعيين.

ثم يقرر أن يلقي بتعليق خبيث ليُظهر مدى فطنته:

ـ لعل أباك رجع رضي عنك، وفلوس إخوانك في الله ظهرت من جديد، أيها الإخوانيّ التائب؟

تُسكته شخرتي تماما. يعود يحرك حجر الشيشة بالماشة التي يعلوها الصدأ، ويتركني أقلب الفكرة في دماغي في هدوء. كلام الصديق، نظريا وواقعيا، منطقي؛ أي مشروع يحتاج إلى نقود، لكن لا يصح أن ننسى أبدا أن مصر بلد خيالي، فوق الواقع ووراء التاريخ وتحت السلم. رأسمالي المُحتمل كان كل شخص يظن أنه سيصبح بست سلر مثل الروائي العالمي علاء الأسواني، أبناء جيلي الذين لا يزالون يبتسمون للشمس بطموح غير مفهوم. كانت حركتي النشطة أثناء دراستي الجامعية في الصحافة والترجمة قد جعلتني، تقريبا، على اتصال بكل شخص له علاقة بالحركة الثقافية. هل

رأى أحد الفارق بين النصوص الفرنسية التي زعمتُ أني ترجمتها للصحافة وبين ما سلمتُه لهم بالعربية؟ وهل دقق أحد في سطر واحد كتبته ـ سواء عن الإخوان أو عن الجامعة. تاريخ الأدب هو رص الكلام بعضه إلى جوار بعض للوصول للاقناعات هي موجودة بالأصل عند الناس. واسقيني واملا، واسقيني تاني، م الحب منّك، من نور زماني. أطلبُ من أبي قرضا صغيرا يساعدني في تكاليف نشر أول كتاب، فيغمغم بغير رضا:

ـ دار نشر؟!

واشهد معي حفل افتتاح لدار مكتبُها غير موجود ـ سوى في الواقع الافتراضي. أكتبُ الأخبار عني وعن هذه التجربة الجديدة بنفسي وأرسلها لأصحابي الصحفيين فتُنشر، وتكتسب دار النشر ثقلا ومصداقية من العدم، وتبدأ ملفات الورد تتكدس في إيميل الدار؛ التي تتحمسُ لنشر التجارب الجديدة، ويساهم فيها الكاتب بمبلغ يتم الاتفاق عليه مقابل عدد من النسخ. تحصيل الورق والمطابع يتم تدبيرها خلال المعارف القدماء من أيام الإسلام هو الحل، ويردد أحدهم:

ـ إياك أن تكون هذه الكتب تنشر الكفر أو الرذيلة والعياذ بالله.

ويضحك في سذاجة. الأمور تمضي بنعومة؛ يقولون الآن إنني نصاب، وأنا أقسم لك، غير حانث يا دكتور، إنني لو شئتُ أيامها أن أصير مليونيرا لفعلت، ولكن أكثر الناس لا يعلمون! في شهور قليلة كنت قد نشرتُ كتابين، وفي الثالث أقرر التفرغ تماما للنشر والترجمة. ثم أقرأ في أحد المواقع الإلكترونية خبرا ما، مفاده أن الاتحاد الأوروبي يخصص أربعين مليون دولار لدعم المشاريع الثقافية في العالم العربي، وأنّ المراكز الثقافية تقدم منحا للنشر والتبادل الثقافي. أحّا، ألا يطولني شيء من كل تلك الملايين؛ أقررُ أن أنطلق للمركز الفرنسي، للاستفسار عن برامج دعم الناشرين!

واعلم أعزّك الله أن الحب أوله هزلٌ وآخره جدّ، وأن خط المترو أوله المرج وآخره حلوان، فإذا ركبت ـ لا مؤاخذة ـ في اتجاه حلوان ونزلت في السيدة زينب، فإنك واجدٌ سورا كالحا، فامش بجواره قرابة خمس دقائق، وقف أمامَ بيت قديمِ متهدمِ ببابه رجلٌ عجوزٌ ضامرٌ يكاد لا يبصر، يدخن من جوزة خشبية ويصّرخ فِّي الهواء، قف به يا غلامِ وأقرئه السلام واسأله في أدب:

ـ سلامٌ عليكم، المركز الثقافي الفرنسي لو سمحت؟

سيسبّك سبة بذيئة وهو يصيح:

ـ أنا الحبّ فشخني وربّ العرش نجّاني.

ويشيرُ للشارع القادم. اتبع نصيحته وانحدر مع الشارع يسارا، وعند كشك الأمن سيستوقفُك موظف مصريٌّ نحيلٌ، حتى لونه قمحي، لون نيلك يا مصر، سيفتشك بلا مبالاة، ويغمزُ لك:

ـ داخل المعرض يا حلو؟!

فتهزّ رأسك، ليقول باسما:

ـ ادخل وتلقّ وعدك، واعشق كما تريد، ولكن إياك أن تعود فتشتكي!

تدخل، وتتمشى في المعرض المنصوب لصور فوتوغرافية ما؛ رجل مصري طيب يبتسم، امرأة مصرية طيبة تبتسم، حلاوة شمسنا، وخفة دمّنا، وأنت تشاهد ولا تشاهدُ؛ تختلس النظر للشقراوات المتناثرات في أرجاء المعرض، سبحانك ما خلقت هذا باطلا سبحانك؛ كيف لم أفكر في المجيء إلى هذا المكان من قبل؟! تتمشى وتختلس النظرات وتشاهد حتى تستقر وقفتك إلى جوارها. وتقول الأسطورة إن الكون بدأ بانفجار كبير لخلية تافهة. تقفُ تتكلم مع المصوّر عن شيء ما، وسيقول لك هو ملاحظة ما، لتتدخل هي في الحوار:

ـ أنت أيضا وجهك قديم. لا أعني أنك عجوز، أعني أن وجهك يبدو لوحة قديمة، من عصر غابر.

ثم تضيف ضاحكة في بهجة طفولية:

ـ أنت نفسك تشبه تلك اللوحات من العصر القبطي، أنت تشبه وجوه الفيّوم.

ويكون هذا أول لقاء لي بماريبيل موران، فتدبّر!

## ١٢

ولو أنك تأملت في لحنه وغنائه بترتيبه الزمني لرأيت المعنى، ولعرفت سر افتتاننا به، ولصار الفتى السعيدُ صاحبك ومعلمك مثلما هو الآن، في سعيي هذا، صاحبي ومعلمي. أؤكد لنفسي أن كل شيء يذوب في تيار الزمن، وأوراق النوتة الجلدية ستمتلئ حتما بما سيكتبه القلم الأحمر. تستولي عليّ أحيانا موجة طاغية من الكآبة والشعور بالضياع فأفكر أن أعود لمصر. وأحيانا أنظر في الهاتف، هل تتصلُ الباريسية الملعونة ثانية؟ وهل أكفّ عن طرح هذا السؤال؟ وهل يحترم القلب العلق نفسه؟ وهل انتهى كل شيء؟ تهونُ عليّ نفسي حين أتذكر أن كل شيء في حياتي تغير، لغة جديدة وأرض غريبة ووحشة مقيمة، أما هي فإن حياتها لا تزال على حالها لم يمسسها خير ولا شر.

تتردد الأغاني بلا انقطاع في أذني، بينما أركب المترو الباريسي وصولا لمحطة سان لازار، ثم أركب خط مترو الضواحي RER E كما وصفَهُ لي سليمان. أصلُ آخر الأمر، وأتمشى في تلك الضاحية على أطراف باريس، الـ Banlieue ـ منطقة العرب والمهاجرين، الواقعة خارج كود الـ٧٥ الباريسي، والذي يمثل أحياء أولاد الناس، مفارقا

للضواحي التي يسكنها سليمان وأمثاله من الجرابيع العرب! أتأمل الشوارع والمحال وتلتقط أذني ألفاظ الشتائم الجزائرية أو المغربية، وتستعيد الذاكرة، رغما عنها، منزلها بـ مونبارناس. هل كانت ماريل تراني مثل هؤلاء المتناثرين في النواصي بلا مال ولا علم ولا أمل؟! ما أسخف المقارنات، مع جيرانها وأصحابها ـ طلبة الدكتوراه والنخبة المثقفة وشاربي النبيذ حول مناقشات يرن فيها اسم هيجل وهايدجر وفوكو جنبا لجنب مع القبلات المدغومة الهادئة.

أكتشف وأنا أبحث عن البيت أني لا أعرف لسليمان رقم هاتف، وأسأل عنه فلا يعرفه أحد. ثم أجد بابا متهالكا لعمارة قديمة فأدرك أنها هي، كما وصفها لي في جلستنا أمام حديقة لوكسمبورج. أدق الجرس فأجده معطلا، أدق الباب فينفتح وحده! يخرج لي سليمان مُحييا، وأدخل. أتخذ مجلسي وتطوف نظرتي به وبالمكان الضيق. سليمان مدرس الموسيقى المغربي، ضئيل البنيان، ولا أظن أن فيه من الفن شيئا سوى شعره الأبيض المشعث وهيئته المبعثرة ونظارته الضخمة وجلسته لدوزنة العود. لعله مصيرٌ محتمل، بائسٌ ومحتمل. كل شيء في بيته يوحي بهوسه للموسيقا وكل شيء فيه يدل على محدودية موهبته.

يخرجني صوته من سرحاني هاتفا:

ـ يا مصري، أين رُحت؟

ـ لا أبدا...

فيدندن بصوته الغليظ:

ـ يا ترى يا واحشني بتفكر في مين.

ويضحك في حبور، وهو يدخل المطبخ ليعد شيئا ما. أتأمله ثانية، إنه

مصير مفزع وليس محتملا. تدهمني موجة من الضيق أجتهد في السيطرة عليها، بينما يأتي صوت منشد ما من سماعات اللاب توب، واهتزّت الأرضُ إجلالا لمولده، فيقتحمني صراخ سليمان المتحمس من داخل المطبخ بشكل مباغت:

ـ يا سلام، يا سلام يا حسن يا حفار يا حلبي. يا جمال السيكا البلدي، اصعَد من درجة النوى وافعل بعدها ما بدا لك. براحتك يا شيخ حسن براحتك.

وأخذ بعدها يرطن بالفرنسية فلم أفهم شيئا. تفلت رغما عني ضحكةٌ مُرة؛ يا مرووش يا بن المرووشة؛ كأنّ حياتي المتناسقة كان ينقصها بعدُ هذه التفصيلة العابرة، موسيقي مغربي مهفوف يحادث الهواء بلا مبرر! يخرج من المطبخ وهو لا يزال يردد ألفاظه العجيبة، يضعُ الشاي المغربي على الطاولة، وينظر لي متمليا ثم يغمض عينيه مُنشدا:

«يُرى صحيحا يمشي وباطنه/ سقمُ جوًى ولذعه على الكبد!».

ثم يضحك فجأة ويخبطني على كتفي:

ـ هذا من شعر عبيد الله بن قيس الرقيات. مالك، سرحان يا المصري، بتحب يا ولة يا ولة؟

ـ هل تعيشُ وحدك يا سليمان؟

ـ حاشا لله.

ـ متزوج؟

ـ تقريبا!

هذه ردودٌ تغلق باب الحوار من أوله؛ أنا لا طاقة لديّ، ولا صبر، لذلك

الغموض ونحن آخر اليوم، فألتزم الصمت. أتأمل الشقة، هذه الصالة حيث نجلس، وتلك هي حجرته. أسأله عن ذلك الباب المغلق المهمل الذي يعلوه التراب، أمسح بيدي عليه وأتحسس النقوش الفرعونية البدائية التي نحتتها يدٌ غير محترفة. يدفع يدي برفق ويغمغم:

ـ دعك من هذا؛ إنها كراكيب لا قيمة لها.

أتساءل، بأي منطق يخصص حجرة للكراكيب في شقة باريسية ضيقة مثل هذه؟ ولكنّي لا أعلّق.

ـ هل سنبدأ درس الموسيقى، كما اقترحتَ، متفضلا، عندما التقينا، في المقهى أمام حديقة لوكسمبورج؟

يستدير للبيانو بحركة مفاجئة، ويدق نغمة بسيطة:

ـ كرر ورائي، هذا هو السلم الكبير، دو ماجور، كرر النغمة كما تسمعها بالضبط.

وأكرر بغير حماسة كبيرة، هذا كلام يصلح ليقال في لقاء للتلفزيون أو للكتابة على الفيسبوك. درستُ الموسيقى حتى أتمكن من الكتابة عن بليغ حمدي، ليكن حقيقيا إذن، وهو لن يضر على كل حال، وربما ينفعني التركيز والتدريب الميكانيكي على شيء جديد، مثل العزف، فيشغلني عما أنا فيه! يستولي علي الملل، فأسأله فجأة:

ـ لو أردنا أن نلخص المشوار الموسيقي لبليغ حمدي في ثلاث كلمات، فماذا يمكن أن تكون؟!

ـ قل لي أنت؛ أنت تعرف كل شيء يا فيلسوف!

ـ أنا أقول لك: الصدفة، والبهجة، والسّبوبة

يقوم فجأة، يطلب مني أن أكمل كلامي، بينما يعدّ لنا قهوة ـ يؤكد أني لم أذق مثلها أبدا...

## ١٣

واعلم أن صاحبنا صار يحمل نوتته مرتين كل أسبوع وينطلق لشارع الشيخ ريحان. يبدأ دروس البيانو العملية والهارموني، مع المُدرسة الفرنسية جوليو، فترحم على الخديوي إسماعيل صاحب المزاج العالي الذي أراد أن يجعل منها قطعة من أوروبا حيث أحياء القاهرة وأهلها آية في الأناقة والوقار، الشوارع مغسولة والأوروبيات يتمشّين فيها بحرية، يشتعلن فتنة وبهجة ونورا!

يلتحق الفتى بكلية الحقوق نظريا، يذهب ليقابل أصحابه في مسرح الجامعة المهيب، أو لحضور الامتحانات حين يتذكر. توقظه ماما عيشة، مذكرة إياه بأن لديه اليوم امتحانا، فيخبط جبهته بيديه ويقوم ليعتذر، يقبل رأسها ويسترضي وجهها الممتعض، يؤكد لها أنه سيدخل الدور القادم. غير أنه ينتظمُ، عمليا، في المعهد العالي للموسيقا ـ ومعها دروس البيانو، ويواصل الصرمحة مع شلة مدرسة التوفيقية الفاقدين، يكوّنون فرقة صغيرة تغنّي وتلقي المونولوجات في الأفراح، ويغنّي هو معهم حين يواتيه المزاج أو حين تدخل كيفه راقصة ما. وكثيرا ما يغير رأيه في آخر لحظة، أو ينسى! يتصل به صلاح عرام صارخا:

ـ ألا تزال في البيت؟ عندنا فرح وبيننا وبين الناس اتفاق وقابضين عربون.

فيجيب بلامبالاة:

ـ غيرت رأيي؛ غزالتي ليست رائقة للغناء الليلة.

يغلق السكة تاركا صاحبه يشدّ في شعره. إنه يواصل طريقه المرسوم بلا طموح، متجردا من كل شيء سوى من رغبته في أن يعيش لحظته حتى ثمالتها. وحين يستقرون على تقديم البرنامج الشهير «ساعة لقلبك» يطلبون منه أن يغني تتر البرنامج ـ نظرا لعدم وجود ميزانية، فيوافق بغير اكتراث.

يمكنك أن تميز صوته المبتهج بكل سهولة وهو يغنّي، صوت الرجل الذي سيكون رسولا للبهجة، ومُرقّصا لوسط كل بنت حلوة. الرجل الذي فهم مبكرا جدا أن الدنيا لحظة؛ فلا معنى لتضييعها في شيء غير البهجة والزأططة ونسيان الشيء الذي ما زلتُ أذكره. ليست مصادفة أبدا، أنه يقدم في الخطوة الأولى لمشواره الفني ما سيمثّل منطقه في الحياة: يقف خلف الميكروفون مرددا:

«ساعة لقلبك بتقول/ فرفش واضحك علطول».

ويطرح تساؤلا، إجابته هي الملخص المفيد للفلسفة التي سيعيشها حتى آخر يوم:

«ليه حتبوّز ولَّا تكشر ولَّا تزُوم/ وتشوف أحلام تعملها هموم».

وما يلبث أن يندفع متعجلا ليلحق بموعده في ركن الهواة بالإذاعة، حيث يُسجل اسمه حتى يلتحق بها رسميا. يدخل للجنة الامتحان فتطلب منه غناء شيء، فيغني لـ«ليل العاشقين» ويطلب منه أن يرحم شوية، ويغني لملحن يدعى محمد عمر، كان معروفا وقتها وسيجرفه تيار النسيان بعد ذلك (ماذا تتوقع من شخص يحمل اسما بلا ملامح مثل محمد عمر). تشكره اللجنة على أدائه وتطلب منه الانتظار في الطرقة قليلا حتى يعرف النتيجة. وأراه خارجا يصفر ويداه في جيبه. أراقبه فيغمزُ لي وهو يشعل سيجارة، فأدرك بوضوح بلاغة ما قيل في لحظة تاريخية سابقة: إنه من يؤت الحكمة فقد أوتي شيئا عظيما.

تقول مارييل إني أشبه وجوه الفيوم، بلحيتي ونحولي، ثم تنفجر في ضحكة أخرى كأنها اكتشفت سرا طريفا. علمتُ فيما علمت بعد ذلك أن شاعرا يدعى مرسي جميل عزيز كتب ذات مرة: والحب عمره ما جرح/ ولا عمر بستانه طرح/ غير الهنا وغير الفرح. ولا أعرف حقيقة، وأنا أتأمل الآن حكايةً ستتدلى أمامي عما قليل، كيف يمكن لي أن أردّ عليه.

تسألني عما أفعل. أخبرها بأني تخرجت من كلية الحقوق وأنني متفرغ الآن للكتابة والترجمة، عن الفرنسية والإنجليزية، ولدار النشر التي أنشأتها منذ عدة شهور، والتي جئت للمركز الفرنسي مستطلعا عن الدعم المتاح لها. تُظهر لي اهتماما فأتمادى:

ـ هل تعرفين مثلا أننا أشهر دفعة في كلية الحقوق، حتى إن هناك موقع سكس مخصوصا يحمل عام ميلاد طلابها، ١٩٨٩ دوت كوم.

ترنّ ضحكةٌ متهتكة فأذوب، بينما يرمقنا رواد المعرض باسمين للسنارة المصرية إذ غمزت في البحر الفرنسي. تخبرني بأن فرنسيتي لا بأس بها. أخبرها بأني ترجمت عدة نصوص وكتب في الأعوام الماضية، وأني أكتب من أول سنواتي الجامعية في عدة جرائد، وأني أصدرتُ رواية. يُضحكها العنوان «سيرة مولع بالهوانم». تمد يدها خلف رأسها لتربط شعرها بإحكام وهي تعلق ببساطة:

ـ المصريون معروفون بولعهم بالـ MILFـات.

تباغتني الكلمة على غير انتظار فأرتبك بوضوح، وتضحك هي من ارتباكي:

ـ كم عمرك؟!

تسألني، فأضيفُ للعمر الحقيقي عاما، ٢٢ بدلا من ٢١، ثم أترجم لها، بلا داع، وبأسوأ فرنسية ممكنة قول صلاح جاهين، أنا شاب لكن عمري ولا ألف عام! سأعرفُ بعدها أنها تكبرني بسبع سنوات. نواصل حوارنا ونحن نتمشى في المعرض، وأقول لنفسي، الفرنسية الشقراء البلهاء، جاءت لمصر مستعدة للانبهار، وها هي ذي تمارسه الآن باحتراف تحسد عليه. بعد كل هذا الوقت لا أعرف بالضبط، من منا كان الأبله ومن كان المتفرج الشرير. السعد وعد يا عين، والاسم نظرة عين. تطل من الصور وجوه فوتوغرافية، ترقبنا في رثاء، ويشدني سيدنا الخضر من كتفي فأدفعُه بعيدا عنّي وأسألها:

ـ ماذا تفعلين في حياتك؟

ـ أكتب الشعر وأقرؤه.

أهز رأسي مغمغما، ثم أسألها:

ـ أعني، بالنسبة للفلوس، مثلا؟!

تضحكُ، وكعادتها التي سأعرفها بعد ذلك على مهل، لا تمنح الجواب فورا. تواصل التمشية وهي تتأمل الصور، ثم تقول كأنها تشرح أمرا معقدا:

ـ بالنسبة للفلوس، أعملُ هنا مثلا!!

وتضحك ثانية بعصبية وهي تلعب بالسبابة والإبهام في مقدمة شعرها. تغويني لمعة عينيها فأتمادى. يبدو أني ظريف فعلا، وجذاب؛ كلما تكلمتُ أو سألتُ أو علقتُ أو سكتّ تضحك.

ـ مكتبي فوق.

وتشير بذراعها المكشوف أعلى السلم الخشبي العريض، الفخم، الذي يميّز المركز. أنتشي، وتبدأ اللعبة.

هنا بدأت الهواجس، والوساوس، والأصوات التي ستطاردني حتى آخر الحكاية. ألتفتُ لسيدنا الخضر، أسأله، أنا لطيف لأنها تضحك، أم أنها تضحك لأني لطيف؟ يعني، هل أنا جذاب فأعجبتُها، أم أني أعجبتُها، فقررَت أن تعتبرني جذابا؟ يهزّ سيدنا رأسه واجما دون رد. وسأظل دون جدوى لمدة عام كامل بعدها أحاول أن أذكر نفسي بلا جدوى، أن غلطة موسى كانت في السؤال، وما كان ينبغي له أن يسأل.

نصعد لمكتبها في المكتبة بالدور الثاني. تخبرني، وهي تضع أمامي فنجان القهوة، أنها في مصر منذ ستة شهور؛ عقدُها في المركز لمدة سنة، ولكنها تفكر في البقاء!

ـ ربما عليك أن تتزوجي رجلا مصريا إذن؟

ـ وأعتنق الإسلام؟ وأسمي نفسي فاطمة الزهراء؟؟!

ماريل ضئيلة الحجم لكنها تضيء بالفتنة، وجسدها ـ مثل معظم الأوروبيات ـ متناسق التكوين، لها فم واسع وعينان خضراوان، شقراء، وتلم شعرها للخلف في جديلة قصيرة. أجيبها متصنعا الجدية والوقار:

ـ اعتناق الإسلام فكرة جديرة بالنقاش الجاد، فهو كما تعلمين دين السلام والسماحة، كما أنه كرّم المرأة أكثر مما فعل الغرب.

تفلت منها ضحكة عالية رغما عنها، ثم تقفز خطوة لتغلق الباب الزجاجي الذي يفصلنا عن المكتبة وروادها. تلتمع العينان الشقيّتان:

ـ الآن عرفت ماذا تريد مني! لعلك تقترح كذلك أن أرتدي الحجاب أو البرقع.

وتغمز فأبتسمُ:

ـ لقد تعلمنا منكم ـ من أوروبا ـ المنهج التجريبي، فلا يصح أن يرفض المرء شيئا قبل أن يجربه.

ـ آها، أنت من مؤيدي المنهج التجريبي إذن؟

تقول، وتمدّ يدها لحقيبتها، تخرج منها شالا قطنيا مزركشا، وتلفه حول رأسها الصغير. لا يظهر سوى الوجه، والعينين الخضراوين، والابتسامة الشيطانية. في هذه اللحظة، في هذه اللحظة بالضبط، كان كل شيء قد حدث، وأما الباقي الذي سيتمدد أمامنا فليس أكثر من تفاصيل لا بد من حكايتها، لنفسر كيف تطور الأمر على هذا النحو، وصولا بنا إليك يا دكتور.

نتفق على ميعاد آخر ونتبادل أرقام الهواتف. يا قمر ليلي، يا ظل نهاري، يا حبي، يا أيامي الهنيّة، عندي لك أجمل هدية، كلمة الحب اللي بيها، تملك الدنيا وما فيها، واللي تفتح لك كنوز الدنيا ديّه، فتدبرّ.

## ١٥

ولو أنك تأملت يا سليمان، يا صاحبي المنشغل بإعداد القهوة المغربية في هذا المطبخ الصغير القذر، لوجدت أن سيرة الفتى وموسيقاه يمكن تلخيصها في ثلاث كلمات: الصدفة والبهجة والسبوبة، هي جوهر وجود الفتى ومفتاح فهم كل ما يخصّه.

أولا، الصدفة ـ وهي الموهبة الموسيقية القادمة من المجهول، النغمة الساحرة التي لا تعرف لها مصدرا، نغمات مثل: طاير يا هوا طاير ع المينا، على رمش عيونها، ازاي ازاي أوصف لك يا حبيبي ازاي، يمكنك

العد إلى ما لا نهاية. قطع الألماس التي عناها موسيقار الأجيال عبد الوهاب وهو يُعرّض بالفتى قائلا ـ ألحان بليغ فتافيت من ألماس على سطح من صفيح، أو حين قال بعد ذلك، حين أسمع لبليغ جملة ما أشعر بأنها جاءته من المجهول، وأنه لا فضل له فيها!

هذه هي الصدفة؛ شيء غير خاضع للعلم، ولا للتخطيط المسبق، غير قابل للتفسير. المفهوم الصافي للموهبة التي لا تجد البيولوجيا لها سرا حتى الآن. الأهم هو طريقة تعامل الفتى مع هذه الموهبة. ستجد له دائما في كل أغنية جملة معينة هي التي تعلق في ذهنك، هذه الضربة الخاطفة التي تلمع في ذهنه فيدونها بسرعة ويعرف أنها سر نجاحه، وهي نجاح الأغنية بكاملها. غير أنك كثيرا، أيضا، ما تعجز عن تذكر أي شيء من باقي الأغنية. اللحن وظيفته أن يخرج لحظتها، يصادف أن يكون جميلا، ويصادف أن يكون لحنا ميكانيكيا، مثل رص النغمات بعضها وراء بعض ـ لمجرد الحشو، ولكنه لا يهتم.

هنا ننتقل من الصدفة إلى البهجة؛ كل أغانيه ـ وخصوصا في البدايات كانت أشبه بما يعزف في الملاهي والبارات للأجانب، Jingle بسيط لطيف. تأمل غناءه لـ تتر ساعة لقلبك، إيقاع النقر في الخلفية، الجملة القصيرة، الولع بغناء المجاميع، ترديد آلات النفخ الشبيه بموسيقا أفلام شارلي شابلن. حتى لحنه الرسمي الأول عام ١٩٥٣، وكان عمره عشرين عاما فحسب، والذي سيشتهر لفايدة كامل، ليه فاتني؛ إنها نفس الجمل القصيرة الخفيفة الخاطفة، متبوعة بترديد الكورال الرجالي لجملة «ليه ليه» لو أنك تأملت لعرفت، هذا رجلٌ يلعب، حتى الجملة الموسيقية، ذات الظل الدرامي الشجي «ليه فاتني ليه، ليه يهجر ليه» سرعان ما يتداركها الغناء الجماعي، فتبدو جرعة الشجن مثل شيء عابر في سياق البهجة الكبير، والذي لا ينبغي أن يعكر صفوه أحدٌ.

هنا نصل للكلمة الأخيرة في مفتاح فهم موسيقى الفتى، السبوبة؛ هذه، يا سليمان، دماغ شخص سبّوبجي، نحتَجي، لا يلقي كبير بال لفكرة أنه ملحن كبير أو موسيقار بالمعنى الرسمي. إنه النقيض التام لما يفعله عبدالوهاب مثلا في الموسيقى، وللطريقة التي كان يشتغل بها.

ألتفتُ له لأرى وقع كلامي عليه، لكنه كان قد اندمج في عزف تلك النغمة التي لا تخطئها الأذن، نغمة «تخونوه» على البيانو، ولم يبدُ أنه يسمعني أصلا! النغمة ساحرة بحق؛ أستعيدُ الرجل المدهش صاحب الدماغ الملعونة؛ أكتشف أن الأغنية أحلى مما أتصور، وأن سليمان يعزف أجمل مما كنت أتوقع، وأن النسيان سيحتاج إلى وقت أطول مما أريد! حين ينتهي من العزف يمنحني نظرة مشفقة:

ـ لا بد أن نشتغل بمنهج؛ أنا مهتم جدا بهذا الذي تكتبه عن بليغ. سأشرح لك مبادئ الموسيقى والمقامات الشرقية، وبالتوازي سنحلل بعض أغانيه بترتيبها الزمني لفهم تطوره الموسيقي، ولكن لي عندك طلب واحد.

ـ يا سلام، تحت أمرك.

ـ عندما تتوطد صداقتنا، ستحكي لي حكايتك، حكايتك المؤلمة التي تتجنبُ الحديث عنها.

أهمّ بمقاطعته، فلا يتركني أكمل عبارتي:

ـ وحتى يحدث ذلك، أريد منك أن تريني أولا بأول ما تكتبه في رواياتك.

وهذه أسهل من الأولى، وأهزّ له رأسي باسما:

ـ اتفقنا يا عمّ سليمان.

ـ اتفقنا يا مصري يا مجنون.

ثم يعود ليعزف على البيانو من جديد...

## ١٦

واعلم أن الموظف يخرج للفتى من الغرفة، ينبّهه إلى أن التدخين ممنوع في داخل مبنى الإذاعة، ويهنّئه بالنجاح في الاختبار. اللجنة التي سمعت صوته، برئاسة محمد حسن الشجاعي (وهو شخص محدود الموهبة يعتبر نفسه موسيقيا وهو ليس أكثر من موظف جاءت به دراسته للموسيقا إلى مقعد رئاسة الإذاعة) قررت اعتماده مطربا! في الشهور التالية يسجل بليغ للإذاعة عدة ألحان، مطربا، ويرفض الشجاعي أن يسمح له بالتلحين، كالعادة.

تقول الأسطورة إن بليغ كان جالسا في حاله، في أحد جوانب أستديو ١٢ بالإذاعة، يدندن لنفسه على العود، وجاءت امرأةٌ ما ـ ستكون كل قيمتها بعد ذلك أنها أول من آمن به من النساء، وأنها تزوجت بعد ذلك وزير الداخلية النبوي إسماعيل ـ وقالت له:

ـ يا بليغ، ماذا تفعل؟!

ـ أغني لحنا.

ـ لحنك؟

ـ آه والنعمة.

ـ وأنا سأغنيه!

لتكون هذه هي أغنية «ليه فاتني» لـ فايدة كامل، والتي تحقق انتشارا

لا بأس به؛ ما يمكن أن ندعوه، النجاح الحقيقي الأول للفتى، وليس أدلّ على ذلك من أن الشجاعي استدعاه بعدها ـ كما يقول الرواة، وقال له بغلّ:

ـ ركبت رأسك وفعلت ما تريد ولحّنت!

فيضحك الفتى ويمضي وهو يصفر في ابتهاج. يلحن لفايدة كامل بعدها أغنية «ليه قابلني» وتحقق نجاحا مماثلا. إن مقعده على المجد محجوز من البداية، والفتى الأنيق الفوضوي يبدأ يظهر نجمه، ويلحن أكثر من أغنية تحقق قدرا من النجاح. ينتشر اسمه، وسط زملاء يستخفون به ـ حجما وسنا. إنه مجرد طفل؛ بالكاد تجاوز العشرين عاما. في سهرة مع كمال الطويل ومحمد الموجي، وهو أصغرهم سِنًّا وأقلهم إنتاجا ونفوذا، يسأله الموجي، باستعلاء:

ـ إلى أين تطمح يا بليغ في التلحين؟

ـ طموحي كموهبتي، بلا حدود، ربما...

فيقاطعه كمال الطويل ساخرا:

ـ أكمل يا عزيزي، تريد أن تلحن للست أم كلثوم مثلا؟!

يهزّ كتفيه ويقول، لم لا! فيهز الموجي رأسه باستخفاف ويقول بهدوء:

ـ اسمعني جيدا يا بليغ. قبل أن تفكر في التلحين لأم كلثوم عليك أن تستمع لألحاني أنا وكمال الطويل لعشر سنوات متواصلة وبعدها، يحلها رب العالمين!

ويضيف بسعادة، وهو ينهي الحكاية:

ـ ساعتها أجبته بكلام لا تسمح الرقابة بنشره.

تلك الأيام الجميلة، حيث الجميع، المطربات والآلاتية والراقصات والعوالم متحمسون له، وكما يحدث عادة، تُجري ضربات البلياردو

مشيئتها، فيقابل بعد هذه الجلسة بأسابيع قليلة من سيفتح له كل الأبواب، بكرم ومحبة ومن دون حدود.

## ١٧

أغادر المركز الفرنسي، وبعدها بيومين سيكون Dateـنا الأول. أذهب إليها في مكتبها بالمركز، كما اقترحت. أمرّ عليها وننطلق من هناك. أنتظرها بالباب، وأراها تخرجُ لي، تخطرُ في مشيتها الواثقة وعلى وجهها تلك الابتسامة الساخرة الأبدية. كانت ترتدي فستانا أبيض من الكتان السميك وتلف حول عنقها شالا أحمر. لم تعجبني النظارة الشمسية الكبيرة التي كانت ترتديها، وأعجبتني البساطة التي قبّلتني بها في الشارع على الخد، وسؤالها لي بالعربية، بدلع:

ـ يلا بينا؟

أسأل ضاحكا:

ـ بتتكلمي عربي يا ماريبل.

فتردّ بجدية تامة:

ـ أيوا. واحد، اثنان، ثلاثة، مرحبا، ازيّك.

نتمشى إلى شارع قصر العيني. تسألني عن فكرة المشروع الذي أريد تقديمه للمركز بالضبط، فأبدأ أرتجل أي كلام يخطر في بالي: كتاب كومكس عن سوبر هيرو مصري، رواية عن سيد قطب والفترة التي قضاها في أمريكا، رواية عن حياة بليغ حمدي. تُميز اسم سيد قطب ـ بالطبع ـ وتسألني من بليغ حمدي! أصفر لها بفمي مقدمة ألف ليلة وليلة، فتجيب ببلاهة: «آها، أم كلثوم!».

أشرح لها أن بليغ هو تقريبا موتسارت الأغنية العربية بلا بلا بلا، ولا تبدو مهتمة تماما.

كانت دائما هنا وليست هنا، وكثيرا ما كنت أتمنى بينما أتكلم لو تنظر لي. أتعمد نطق كلمة ما بطريقة خاطئة أو أقول تركيبا أعلم أنه غير سليم حتى تستوقفني، وما كانت تستوقفني. ويتكرر دوما، أن أكون في وسط الكلام، فتقاطعني لتنطق بتعليق غامض أو تسأل عن الساعة!

كنت مندمجا في الحديث عن الرواية وعن دار النشر، حين قاطعتني بغتة:

- الفرنسيون مولعون بكلمة أول؛ حين تقدم على منح النشر أو الكتابة لا بد أن تدعمها بكلمة أول كذا.

- مثلا، كتابي الذي أريد نشره هو كتاب كومكس، ربما هو أول كتاب كومكس بالعربية.

تردّ بسخرية:

- والفرنسيون لا يحبون كلمة ربما.

لم تسألني يومها عن أي شيء يخصني، كأنه كان لقاء عمل فعلا! المناقشة تبدو جادة؛ تعيد صياغة اقتراح كتابة الرواية؛ بحيث تكون عن بليغ وأعوامه هربا في باريس، وبالتالي يكون هناك مبرر لطلب منحة كتابة في باريس تحديدا. تحرك يدها وهي تضيف بشكل إنشائي:

- اكتب كلمتين عن التشدد الديني، عن قمع حرية الفنان. نحنُ، الأوروبيين، نحب هذا الكلام.

ثم تضيف أنها يمكن أن تصوب الاقتراح الذي سأكتبه لغويا وتصوغه بشكل مناسب للجنة التي تقوم بالتحكيم بين الطلبات. هل تعني ذلك؟ أم أنها تريد فتح باب اللقاء ثانية، أفكر:

ـ اتفقنا؟!

ـ اتفقنا.

وتمد يدها مصافحة.

ـ هل نقرأ الفاتحة؟

لا تفهم الإفّيه، أحاول ترجمته فينهار كل شيء، ولكنها تبتسم بشكل مهذب، وتضيف بشكل مكشوف:

ـ اللعبة واضحة، فقط اكتُب كثيرا من الكلام الفارغ المنظم، الكلام الكبير، الكلام الذي يوحي أن وراءه شيئا ما!

هكذا كانت تراني إذن من البداية، فكيف لم أنتبه؟ أقول بسذاجة:

ـ سأكتب وأنت تعيدين الصياغة.

فترد بعربية رصينة:

ـ مزبوط، تمام تمام.

أسألها عن سبب مجيئها لمصر أصلا، فتجيب باختصار:

ـ أم الدنيا.

سأخمن، ثم سأعرفُ بعدها يقينا سبب مجيئها لمصر، وسيصبح الأمر مزعجا، ولا يطاق. سينفتح باب الجحيم وسأجلس بجوار الشيوخ البكّائين في حكاية ألف ليلة، لكن في تلك اللحظة من كان ليهتمّ. أنا سعيد، أنا في حضرة الباريسية الحلوة؛ يا سلام ع الدنيا وحلاوتها في عين العشاق، وشموع الشوق لما يقيدوا ليل المشتاق، يا سلام يا سلام.

نذهب ونتناول الطعام في مطعم «العهد الجديد» بالحسين. أحكي

كثيرا، كثيرا؛ أقول كل شيء، أبي، أختي، الكتابة، الإخوان، سنوات الجامعة، كيف بدأت العمل بالصحافة والكتابة. أكتشف بعد ساعتين أنها لم تقل شيئا. تهز كتفيها وهي تنظر للبعيد:

ـ ماذا تريدني أن أقول؟ ليس لدي أشياء مثيرة في حياتي مثلك. درست، عملت، سافرت. يعني، حياة فرنسية تقليدية مملة.

تعتدل في جلستها وهي تقول بعذوبة:

ـ أحب أن أتفرج عليك وأنت تتكلم.

أسألها أين تسكن، فتبتسم:

ـ تريد أن توصلني؟!

ـ يعني، لو لم يكن لديك مانع، نتمشى سويا ثم أوصلك للبيت وبعدها..

ـ حتى بيتي في الزمالك، ها، وماذا بعد؟

أداري ارتباكي بضحكة قصيرة:

ـ وأودعك، ربما، بقبلة عذبة تحت ضوء القمر.

ومين ينسى، شعاع أول شرارة حب، أو رنين ضحكتها العالية التي لفتت أنظار الجالسين ساعتها إلينا. قالت شيئا ما بالفرنسية لم أميزه، وحين استوضحتُه منها، هزت يدها بما يعني أنه، لا يهم:

ـ حسنا. يمكنك أن توصلني للبيت. لكن بشرط!

تترك نصف الطبق وتقول إنها شبعت. تشعل سيجارتها في هدوء وتنظر بعيدا، فتدبّر.

ولو أنك تأملت في مسألة الموسيقى هذه، خصوصا مصطلحات الموسيقى العربية، لوجدتها بحرا بلا ساحل؛ لا تقلّ تعقيدا وصعوبة عن الرياضيات أو الفيزياء. تمتد جلساتنا الأولى، أنا وسليمان، كل مرة للفجر ولا أحصل إلا على صداع سخيف. يشرح لي ما هو المقام، وما هو الربع تون. تعجبني الألفاظ حتى وإن كنت لا أفهم تماما معناها. تبدو أشبه بتعاويذ سحرية؛ عجم، بياتي، ركوز، دييز، نصف بيمول، كرد صول! ألفاظ بعضها يوحي بفخامة غامضة؛ لونجا أو بَشرَف، وبعضها الآخر يبدو مثل ألفاظ الصنايعية؛ تحميلة، والكثير منها مضحك؛ مثل جهاركاه التي أضحك دون مبرر كلما سمعتها، فيضحك معي سليمان. كثير من العبارات تبدو فلسفية وصالحة للكتابة، مثل الجملة التي بدأ بها سليمان شرح الإيقاع والفرق بينه وبين الميلودي، أو اللحن:

«الموسيقى هي ناتج حركة النغمات في الزمن».

أدون هذه العبارة في النوتة الجلدية السوداء، يمكن أن أضيفها لروايتي، فأبدو عميقا!

في ختام كل جلسة يقول لي إن أذني موسيقية وإني سريع التعلم. أقول لنفسي إنه، غالبا، يقول هذه الجملة لكل طالب، ولا أعلق. تتكرر اللقاءات مع هذا الرجل العجيب؛ أهاتفه فلا يرد، ثم يتصل هو بي، وكل مرة من مكان مختلف، بلا مواعيد، بلا قواعد. من المرجح أنه لن تدوم مجانية هذه الدروس طويلا، لكني أشعر بأني أحسن حالا. ما زلتُ أفتح عيني صباحا فأفكر فيها وفي قصتي معها، وكذلك قبل النوم. لكني أحسن حالا، وقد صار بإمكاني الآن أخيرا، وبعد خمسة شهور من ذلك التهديد، ومن لقائي الأول بسليمان، أن أعزف مطلع «تخونوه». صحيح أنه عزف بائس وركيك، لكن الأذن تستطيع تمييز نغمته على كل حال.

هل تعرف يا سليمان لماذا يحبّ المصريون بليغ حمدي؟ أقول أنا لك؛ لأنه ـ نجح في تحقيق المعادلة التي يحلم كل مصري بتحقيقها، أن يعيش على مزاجه، ثم في الوقت ذاته يحقق الأسطورة والنجاح والخلود! كيف تكون علقا وناجحا في الوقت نفسه؛ كان تعبيرا مثاليا عن الرجل الذي ترك نفسه تماما لما يريد، أفرأيت من اتخذ إلهه هواه؟ رجل محترم وفل الفل؛ ينبسط ويقضي حياة لطيفة، يشرب وقتما يريد، يسافر، يلحن، دون ارتباط لا بمشروع ولا قيمة ولا معنى كبير. يتزوج صباحا ويطلق مساءً ويلحن حين يطيب له اللعب بالعود!

بعد أغنيتيه مع فايدة كامل، وبعد عدة أغانٍ متناثرة يبدأ الفتى مشواره الرسمي ملحنا موهوبا هاويا أكثر منه محترفا، وفي عام ١٩٥٥ وحده، سجلت له شركة كايروفون، المملوكة لعبد الوهاب، ٦ أسطوانات كاملة، ثم يسافر مع فايدة كامل لبيروت فيتلقفه المطربون والمطربات هناك. كان يلحن أغنية يوميا تقريبا! تطلبه الإذاعة السورية، ليسجل في أربعة أشهر ٢٢ لحنا لكل مطربي سوريا ومطرباتها. كل هذه الألحان طارت مع الريح ولم يصلنا منها شيء، باستثناء «ما تحبنيش بالشكل ده» لـ فايزة أحمد، وهي أول أغنية لشاعر هاوٍ، سيصبح رفيق مشواره بعد ذلك، يدعى عبدالوهاب محمد، وبعدها «حسادك علموك». بعد لقائه بمحمد فوزي ينتقل لـ مصر فون، وفي فترة زمنية لا تزيد على عامين أكثر من خمسين أغنيةً لا نعرف عنها شيئا، تذكر ما قلناه عن السبّوبة، فلم يتبقّ لنا منها سوى أيقونة الميوعة والدل «مكسوفة» لشادية بجملة القانون، ثم الكمنجات، الاستهلالية الخاطفة مثل ضربة سريعة قاضية.

إنه يستقر في مكانه الصحيح؛ عالم الموسيقى والمعجبات والمطربات والعوالم! يحصل مقابل تسجيل الأسطوانة على خمسين جنيها زائد نسبة من أرباحها. ألحان عابرة وعلاقات عابرة وحياة سعيدة وفلوس تأتي

وتذهب بلا حساب، كل شيء موجود، يمر الوقت في رخاوة تمهيدا لمجيء عام ١٩٥٧، بما سيحدث فيه...

## ١٩

في حفلة يدعوه إليها كامل الشناوي يلتقي صاحبنا بمحمد فوزي، وإنما المزاجنجية إخوة! يقتسمان زجاجة الكونياك، ويغنيان معا، يا نخلتين في العلالي، وياللي شغلتِ القلب تعالي. يضحكان بلسان ثمل، ثم يقول له فوزي في تلك السهرة، وهما يُجهزان على الزجاجة إن شركته، شركة مصر فون، تحت أمره، يلحن ما يريد كيف يريد:

«دون عقد، ودون اتفاق. أي لحن تعمله، تعالى سجله فورا!».

إن كل شيء يمضي بسرعة، يُدخله فوزي عالمه، يتعرف على المطربين والملحنين، تتوطد صداقته بالمهندس الشاب الذي يهوى كتابة الأغاني، والذي يدعى عبد الوهاب محمد، وينضم إلى المجموعة المبتهجة. يلحن تخونوه، وتستقر مكانته، وإن كل شيء يمضي بسرعة.

يرن التليفون فيرفع السماعة ليردّ على صاحبه محمد فوزي؛ يحكي له عن اتصال أم كلثوم به اليوم؛ تريد تجريب ألحان جديدة، وتطلب منه ـ فوزي ـ أن يلحن لها:

ـ دبّرني يا وزير.

ـ أدبرك؟! هذا خبر الموسم.

غير أن فوزي غير متحمس إطلاقا. لماذا؟ السبب لا يهم. يخبره بأنه أجابها بدبلوماسية، عندي لك ملحن سيغير شكل الموسيقى في الخمسين عاما القادمة، فتهز رأسها وتهمهم.

ـ وهل اقتنعت بي؟

يسأله بليغ بسذاجة:

ـ اقتنَعَت؟ لقد طارت من الفرح! الستّ ولا عرفتك أصلا يا حبيبي!

أم كلثوم أكبر وأصيعُ من أن تنبهر بكلمتين بمجرد السماع، حين يحدثها عن ألحان هذا الفتى المنتظر ـ لا تتذكر لحنا واحدا من كل ما يسرده لها فوزي: ليه فاتني؟ مكسوفة؟ حسادك علموك؟ لا شيء. ولكن حين تأتي سيرة عبدالحليم تبدأ تهتم نوعا ما، تتذكر لحن تخونوه بصعوبة، وتوافق على مضض أن تقابل الفتى في بيت الصديق المشترك، الطبيب زكي سويدان.

رغم كل محاولات فوزي، ورغم التحدي السابق من الموجي والطويل، ورغم كل شيء، لا أظن أن الفتى كان مهتما بوجود أم كلثوم في السهرة. لقد ذهب دون عود، دون لحن واضح في رأسه، دون جملتين مفيدتين يمكن له أن يقولهما. لعل كل ما كان يشغل باله وقتها بنت حلوة رآها في مكان، ويفكر كيف يمكن له أن يقتنصها.

السهرة لطيفة والضحكات ترن هنا وهناك. أم كلثوم تتفرج، وتحاول أن تفهم طبيعة هذا المخلوق العجيب الذي رشحه لها فوزي ليلحن لها، ولا تصل لشيء. تسأله بعد انقضاء عادة المجاملات والتحيّات، وبنفاد صبر:

ـ يا بني، أنت سرحان؟ انتبه هنا...

فينتبه الفتى تأدبا:

ـ طبعا طبعا يا ستّ.

تضرب المرأة كفا بكف:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، طيب سمّعنا حاجة من شغلك ربنا يبارك لك.

الفتى الغائب عن الوجدان يقوم ويلتقط عودا من أحد الجالسين، ويجلس على الأرض في استخفاف يليق برجل يعيش في سحابته غير آبه بشيء. يبدأ يدوزن، ويبدأ يعزف آخر لحن كان يشتغل عليه. اللحن الذي يفترض أن يكون مونولوجا لثريا حلمي. يضبط النغمة داخل عقله على مهل، يتردد صوته النحيل لامباليا بالحاضرين: حب إيه، حب إيه اللي انت جاي تقول عليه. تتبادل أم كلثوم وفوزي النظرات، وتهمس الست بينها وبين نفسها، يا بن المجنونة، والفتى ولا هُو هنا. تجلس جواره على الأرض، ويشاركهما بالكمان أنور منسي، لضبط مقام البياتي الذي يغني عليه الفتى.

تطالع أم كلثوم فوزي بنظرة لا تحمل إلا معنى واحدا، مؤكدا؛ اشتريت يا عمّ.

## ٢٠

نركب التاكسي من أمام مطعم العهد الجديد وينزلنا أمام مكتبة ديوان بالزمالك. ننزل وأحاسبه، ندخل المكتبة فتطالع العناوين بغير اهتمام، وأشتري أنا نسخة من روايتي وأعطيها لها على الباب، تسألني مبتسمة:

ـ ماذا أفعل بها؟

فلا أجد جوابا حاضرا، ثم بارتباك أقول:

ـ حتى تتذكريني حين ترينها!

تجيب أنها ستقرؤها حين يتحسن مستواها في اللغة العربية. تغمض عينيها وتقول شيئا، يبدو أنها حفظته مؤخرا:

- حبيبي مجنون. حبيبي مهبول.

ثم تضحك في ابتهاج صاف.

- يمكن لي كذلك أن أترجمها لك، وأحكي لك ما فيها - بفرنسيتي البائسة!

- تريد أن نقرأ الحكايات معا، ونحن نشرب نبيذ الـSept Lunes تحت ضوء القمر.

سأعرف لاحقا ماذا تعني، وحتى يحدث ذلك أجدها تحبُك الشال الأحمر وتقول فجأة، بلا مقدمات، إنها تشعر بالبرد وإننا ينبغي أن ننصرف. نتمشّى حتى محطة البنزين ونعرجُ يمينا إلى سفارة البرازيل ومنها لشارع أحمد حشمت. نقف أمام عمارة مهيبة ضخمة. تقول Voila، فأدرك أننا وصلنا.

تلك اللحظات المرتبكة، وأنا بلا خبرة، كيف يتطور الأمر؟ هل أحاول تقبيلها هنا؟ هل أصعد معها؟ هل أطلب الصعود أم أنتظر حتى تدعوني؟ هل أطلب دخول الحمّام، مثلا، ليكون مبررا لصعود! أتراجع عن الفكرة؛ ياله من مبرر مقرف. لم أدرك لحظتها أنها تقرأ أفكاري وتراقبني مترصدة، في رثاء، كيف سأتصرف. على مهل، تهمس في هدوء:

- سأصعد الآن. شكرا على هذه الليلة اللطيفة وشكرا لتوصيلي!

أتحرك معها داخل العمارة ولا ألقى ممانعة، نقفُ عند باب المصعد، أضغط الزر، وأنظر للعينين الماكرتين، أحيط خصرها بذراعي وأقبّلها. هذه هي البوسة، كما نراها في الأفلام، إذن. النشوة المُسكرة يشوبها شيء من الإحباط؛ فمها له مذاق السجائر ومذاقٌ آخر مُرّ، على الأغلب من أثر الكحول. تقبض على ذراعيّ بعنف وتحرك لسانها داخل فمي أكثر من مرة

فأشعر بالارتباك، كأني أمتطى مُهرة بلا لجام، ولا أعرف كيف ألاحقها. أتحسس ظهرها وأدرك أنها لا ترتدي أي شيء تحت القميص الكتاني الأبيض السميك، أشعر بحزّ السوتيان تحت يدي فيُجن جنوني. أحرك يدي من تحت القميص وأتحسس صدرها فتتحرك خطوة للخلف وتدفعني برفق «كفى»!

لا أفهم تماما، فتكرر تلك الـ «كفى» أكثر من مرة، تهمس:

ـ كفى، يكفى هذا اليوم.

يخرج صوتي واهنا، مرتبكا:

ـ أصعدُ معك..؟

فتقول بوضوح، وحسم:

ـ كلا. ليس اليوم.

ثم تطبع قبلة على جبيني وهي تفتح باب المصعد، تسأل:

ـ أنت بخير..؟

فأجيب محبطا:

ـ تمام، تمام.

ـ كان هذا هو الشرط. وشكرا لتفهمك.

تركب الأسانسير سريعا وهي تغمغم بصوتها الفاتن، À tout à l'heure. لا أفهم بالضبط، ولكني أخمن أنها تتمنى لنا لقاء قريبا، أو هكذا أرجو.

أقسم لك بأي شيء مقدس يؤمن به أي أحد، لعل تلك كانت أجمل

لحظة في علاقتنا البائسة على الإطلاق. المشيُ نشوانا عودة للبيت، نزول الكوبري عند الكورنيش والمشي في اتجاه عبدالمنعم رياض حيث ينبغي لي أن أركب إلى بيتنا في الهرم. من دقائق معدودات كان فمي في فم تلك الفرنسية الدقيقة التكوين. تخفّ خطوتي وأنا أكاد أرقص طربا، مستمتعا بنسمة الشتاء العذبة، تهل من جهة النيل. يبدو كل شيء جميلا، في يوم حافل بالمعجزات المُسكرة التي ستكون أول خطوة في طريق الجنون. عند مدخل عبدالمنعم رياض يستلفتني منظر المتجمهرين وعدد عساكر الأمن المركزي. يستوقفني ضابط عند مدخل الميدان:

«بطاقتك!».

يدفعني بغلظة ويطلب مني أن أتخذ طريقا آخر وأروّح بيتنا. أدرك أن هناك قلقا ما. ثم أتذكر، فجأة، الدعوات للحشد التي انطلقت قبلها بأيام، والتي لم أتعامل معها بجدية، بل إني كتبت ساخرا من تلك الثورة التي يتم الدعوة لها بـEvent على الفيسبوك. أعبرُ للناحية الأخرى وأستقل تاكسي للبيت، وأنا أفكر في ماريبل، في كل ما حدث، متى أكلمها ثانية، أفكر في تلك اللحظة التاريخية المدهشة، ذلك اليوم الذي يستحق التدوين. أفكر في القبلة الأولى الواعدة بأشهى الثمار والحكايات، والتي جرت وقائعها ليلة الـ ٢٥ من يناير عام ٢٠١١، فتدبّر.

## ٢١

ولو أنك تأملت في عام ١٩٥٧ لسمعت تخونوه، بنقرات الجيتار والبيانو ساحرة الاستهلال، ولعرفت أن كل ما سيحدث لصاحبنا بعدها هو مجرد توابع لزلزال هذه النغمة، والتي صرتُ بفضلك، يا سليمان

أحسنُ عزفها. إنها الميلاد الحقيقي للفتى، والتي سينتقل بعدها من حال إلى حال...

كان قد جلس ذات ليلة صيف يدخن في هدوء، يمزج البرتقال بالفودكا متنقلا بين الفراندة وغرفة النوم، ليس في باله شيء محدد، ثم طقت في النافوخ فكرةٌ، هوب، يجلس على البيانو، كما أنا وأنت جالسان الآن في هذه الشقة الحقيرة، وجوار هذا الباب القذر المهمل المغطى بالتراب. نقرة ونقرتان، يقوم ثانية ويزيد البرتقال ليكسر مرارة الكحول، ثم يزيد الكحول ليكسر مرارة الليلة المنفردة، ويجلس للبيانو ثانية. نبضة عصبية تنتقل من مكان غامض في الفص الأمامي للدماغ، ثم تستقر في أعصاب اليد، وتتحول لحركة رشيقة، لا تلبث أن تتحول لنغمة أكثر رشاقة. يبتسم، ويدرك أنه التقط شيئا عظيما، ويغلق البيانو في هدوء. يخرج ليشرب سيجارة في البلكونة. يفكر في المؤلف، إسماعيل الحبروك، والذي سيتصل به صباحا ليكتب أي كلام يُركّبه على جسد النغمة الساحرة التي جاءت في غفلة وبلا سابق تخطيط. فلينته من كأسه الآن، وليشعل سيجارة ثانية، وليستسلم لشعوره بالاستثارة، والذي يعقب عثوره على نغمة يعرف مسبقا أنها ستنجح وتكسر الدنيا.

فور أن يستيقظ يرفع سماعة الهاتف ويتصل بها، فيأتيه صوتها الذي لا تخطئه أذنٌ، يقول الدون جوان ببساطة:

- تعرفين طبعا أنك حبّ حياتي؛ إلى الآن لا أستطيع أن أصدق أنك موجودة فعلا!

تضحك ليلى مراد لهذا الفتى النزق، المُغازل الأعظم، والذي يبدأ المكالمة بمعاكستها، حتى قبل السلام. إنه لا يحتاج إلى مقدمات طويلة، لا في موسيقاه ولا في انطلاقه للهدف. يخبرها أن عنده لحنا ما، مناسبا لها.

في اليوم التالي يلتقيان، ويُسمعها اللحن: تخونوه وعمره ما خانكم، ولا انشغل عنكم. وتُجن السيدة باللحن، وتقرر شراءه. غير أن شيئا لا يعني أي شيء. وحين يستيقظ في اليوم التالي، عصرا كالعادة، ويذهب للإذاعة ليبدأ البروفات كما اتفق مع الست ليلى، يجدُ صلاح عرام وإسماعيل الحبروك واقفين بالباب:

ـ خير يا جماعة؟

ـ عبدالحليم ينتظرك عند رمسيس نجيب، الآن!

ـ لكننا سنسجّل الآن مع مدام ليلى.

ـ إياك أن تسجل قبل أن تلتقي بهم، هذا ما قاله حليم!

يتصل بعبدالحليم، الذي يردّ متلهفا:

ـ تعالَ حالا. عشر دقائق وارجع للأستديو بعدها.

يذهب اللامُبالي الأعظم لمكتب رمسيس نجيب، فيجدُ عنده عبدالحليم ـ القابض على الدنيا بيديه وأسنانه حتى الموت:

ـ اسمع، سأغني تخونوه!

ـ تغني تخونوه؟! ومدام ليلى؟ إنها في الأستديو منتظرة هي والفرقة!

ـ أنا سأتصرف.

ـ يا جدع انت؟! أنا متفق مع الستّ.

ـ لا تقلق...

يتناول حليم السماعة ويكلم ليلى، بنت الذوات، ليستأذنها أن يأخذ الغنوة، فهل شعر الفتى بالحرج، أم أنه لم يلاحظ أصلا ما يجري حوله.

يقال إن حركة البشر هي مجرد اهتزاز في الذبذبات الكهرومغناطيسية، ولا شيء غير ذلك، ويقال إنه كان ينسى المواعيد والأيام والنقود والولاعات وكلام الأغاني، وكل شيء. أغلقت الستّ ليلى الخط، وذهبت الغنوة لحليم، وكسّرت الدنيا.

غير أن شيئا آخر ـ بالغ الأهمية ـ سيحدث حين تذاع الغنوة، في ذلك الفيلم الذي يحكي عن هوس عبدالحليم بلبنى عبد العزيز، ووجهها الذي يطارده بلا رحمة على سطح الوسادة الخالية، الأمر الذي يبدو مضحكا وخياليا حين تحكيه أو تشاهده، حتى تعيشه بالفعل، فتدرك، في مرارة، أنه ليس في الأمر أيّ مبالغة...

## ٢٢

تنظر أم كلثوم لفوزي فيدرك أنها اشترت. تطلب من الفتى، ليلتها، أن يذهب إليها في بيتها بعد يومين. ينطلقُ صاحبنا للموعد الذي اتفق عليه معها في بيت زكي سويدان، بعد تلك الليلة العجيبة. يقول البعض إنه ذهب وفي رأسه أنها ستطلب منه لحنا لابن شقيقها خالد ـ والذي كانت تريد أن تقدمه لعالم الطرب منافسا لعبدالحليم. ويقول البعض الآخر إنه ذهب متوقعا أن تطلب منه أن يجرب أن يلحن لها. لكنني أعرف الفتى، وأعرف أنه يذهب وليس في ذهنه أي شيء مطلقا. الاستخفاف سيد الموقف، والفتى عاش مُستخفا بكل شيء. وكان يقدم على كل فعل باعتباره نزوةً أو لعبة يستمتع بها قليلا ثم يتركها ضجرا بحثا عن غيرها. لعله نسي وهو ذاهب إليها، من الذي هو بسبيله سيقابله أصلا. يركن سيارته الزرقاء الصغيرة ويقف بالباب، يتساءل في ذهول، محاولا أن يتذكر:

ـ ماذا أفعل هنا؟

يمسح قدميه عند المدخل، ويرنّ الجرس. تفتح سعدية، خادمة أم كلثوم، الباب وتُدخله للصالون لينتظر الست. يطالع النياشين والصور على الحائط في بلاهة محببة، وينتبه لصوتها وهي تدخل الصالون:

ـ أهلا أهلا.

يرتبك، ويقوم وكأنه يبحث عن شيء ما. يصافحها، فتضحك وهي تتفرج عليه. يكتشف أنه نسي العود في السيارة فتضحك ثانية وتطلب منه أن يذهب سريعا:

ـ اذهب وأحضره يا مدهول.

وحين يعود ويجلس تطلب منه أن يهدأ. تخبره ألا يخاف؛ فهي لا تعضّ، وأنها تريد أن تسمع منه على مهل ذلك اللحن الذي أسمعه إياها في بيت زكي سويدان. لا يبدو أنه يتذكر، فتدندن له المطلع:

ـ آه، المونولوج الذي ستغنيه ثريا حلمي.

ينفد صبر السيدة فتصيح:

ـ ثريا حلمي يا جدع يا مهبول؟! اتعدل في كلامك. سمّعني اللحن قوام بلا مرقعة فارغة.

يجلس الفتى على الأرض، ويسمعها اللحن كما أرادت. تنظر له مليا. تدرك المرأة القوية أنها وقعت على كنز، ولكنها تقول بصوت متماسك:

ـ من كتب هذا الكلام؟

ـ واحد صاحبي مهندس في شركة شل، اسمه عبدالوهاب محمد.

فتجيب ساخرة:

ـ عبد الوهاب؟ كأنه وراءنا في كل مكان!

تطلب منه أن يتصل بصاحبه هذا، وحين يفعل، يأتيه صوته مازحا بغير اهتمام. يرتبك بليغ قليلا وهو يقول:

ـ حاول تلمّ لسانك، أنا أكلمُك من عند الستّ.

ثم في نفاد صبر وبصوت خافت:

ـ أي ستّ؟! الستّ أم كلثوم يا جدع انت.

تتناول أم كلثوم السماعة من يد بليغ، تبرما من هذين الطفلين العابثين اللذين لا يقدران خطورة الموقف. تقول بصرامة لا تفسح مجالا للمزاح:

ـ أنا أم كلثوم يا بني. هل كتبت كلام غنوة حب إيه بصحيح؟ طيب تعال فورا.

تُناول السماعة ثانية لبليغ، وتذهب لتجلس، من دون أن تسمح للابتسامة أن تهرب لترتسم على وجهها الصارم.

يمنحها الفتى لحنا جميلا رشيقا ناجحا، يمنحها جمهورا جديدا، وتمنحه هي ما لا يقدر غيرها عليه؛ الانضباط والجدية. تبدأ البروفات في نظام يليق بالست، وتسمح هي له بتأخير يليق بتقديرها لخفته ولموهبته على السواء. بروفة وراء بروفة، حتى يكتمل اللحن الأول، ويصير جاهزا أن تصعد الستّ أمام الجمهور على مسرح الأوبرا في الأول من ديسمبر عام ١٩٦٠، لتتساءل بكل عنفوان:

«حب ايه اللي انت جاي تقول عليه؟

انت عارف قبله معنى الحب إيه؟!».

## ٢٣

ذاك أنّ أقصى ما سيذكره التاريخ مما حدث في يناير ٢٠١١ في ميدان التحرير، بالقاهرة، هو ذلك النزاع القضائي الذي قام بين ملحن مغمور ومطرب لا يقل عنه مغمُورية على أحقية كل منهما في أغنية هي أصلا لبليغ. فلا تسألني عن أول البؤس إن كنا لا نعرفُ له آخرا، واضحك واشخُر وابتهج وابكِ ثم ادخل ونم. ودعني أستعِد تلك القبلة المقدسة أمام الأسانسير، ثم وصولي بيتنا بعد ثلاث ساعات في تلك الليلة العجيبة.

استيقظتُ في اليوم التالي، ووجدت رسالة منها على الفيسبوك ما إذا كنت قد وصلت سالما، فطلبت منها رقم هاتفها، والذي اكتشفت أني لم أقم بتسجيله، واتصلت بها. قالت إنها في المركز، فاندهشت أن يعملوا في مثل هذه الظروف. وكان قد اتضح للجميع أن الأحداث أكبر مما كنا نتوقع. سألتها ما إذا كان يمكنني المجيء فقالت بوجوم:

ـ هذا لو استطعتَ أن تصل إلينا.

ظننتها تبالغ، واكتشفت في الطريق أنها كانت مُحقة تماما. في كل محطة مترو وأول كل شارع تقريبا يستوقفني أمين شرطة أو مخبر أو ضابط ويطلب البطاقة، يسألني، يا للألمعية يا ولاد المرة، ما إذا كنت سأنضم للمظاهرات، ثم يطلب مني أن أتخذ طريقا آخر. بعد ساعتين ونصف تقريبا أفلحُ في الوصول للمركز الفرنسي بالمنيرة. تستقبلني بحماس وتعانقني. تقدمني لزملائها في المركز وأفهم من سياق الكلام أنها تحدثت عني اليوم! تلك اللحظات القليلة الجميلة المتبقية؛ منظرها وهي تتحرك لتحضر لي شيئا أشربه، جلستها الوادعة وهي تستقر بجواري بينما ينظر أصحابها لنا ويبسمون في تواطؤ مع هذه العلاقة التي تولد في ساحة ثورة مفعمة بالحماس والجنون. تلك اللحظات القلقة، حيث شعوري إننا معا، في

أتون لحظة تاريخية بكل ما في الكليشيه من معنى، أنها مطمئنة لوجودي إلى جوارها. شعوري، الذي ربما لم يتكرر به بعدها أبدا، بأني ذكر؛ يمد جناحه ليحتضن الأنثى التي ليس لها غيره. أتى أمر الله فلا تستعجلوه، وأتذكر ما سيحدث بعدها، متسائلا، لعلنا لو كنا بقينا في مصر لكانت علاقتنا استمرت. غير أني انتقلت إلى باريس، وصارت الكرة في ملعبها، والأمر في يدها، ولكن لا تتعجّل يا دكتور، حكايتي بالكاد تبدأ، فامنح الدراما ما يلزمها من الزمان والمكان.

يدور حوارٌ ما بين زملائها عن تطور الأوضاع وعن الثورة وعن موقف الجيش، وأنا لا يعنيني شيء من كل ذلك. من يومها وحتى إعلان التنحي يكون جدولنا واحدا: أذهب معها وأوصلها للمركز، قد نبقى هناك قليلا، قد أترجمُ أو أكتب موضوعا ما، وقد تكون هي مشغولة باجتماع أو غيره، ثم أعود بها لبيتها آخر اليوم. آه ما رمانا الهوى ونعسنا، واللي شبكنا يخلصنا. وبخلاف حرق أقسام الشرطة؛ يوم الثورة الوحيد الحقيقي، وبعده موقعة الجمل المزرية، والتي أصيب أبي يومها إصابة بالغة سيحمل أثرها في جبهته، فإن الثورة لا تلبث أن تستمد طابع العلوقية المصرية الجميل فتتحول لكرنفال مدهش ينزل فيه المصريون سويا لتناول الإفطار والتصوير بجوار الدبابات، ومش هنمشي، هو يمشي إلخ إلخ. لا أزال أحتفظ للآن بصورتنا معا، أنا وهي، جوار إحدى دبابات الجيش مع عسكري أمن مركزي مصاب بفقر دم مزمن، وصورة أخرى لها وهي تحمل علما مصريا صغيرا، مرتدية الجاكت الجلدي الأزرق الذي تحبه، وتبتسم.

كانت الثورة نكتة لكنها تحولت لواقع ما لبث أن تكشّف عن لاشيء. أذكر من تلك الأيام عندما داهمها المواطنون الشرفاء هي وصاحبتها ـ باعتبار أنهم جواسيس يريدون سرقة أسرار الوطن، فاتصلت بي وهي

تبكي لأنقذها. سرعان ما تطورت الأمور بخطابين لمبارك، وهستيريا في الميدان، ونزول للدبابات، ثم ظهر عمر سليمان والرجل الذي وراءه معلنا انتصارنا الخرافي، فانطلقنا في الشوارع كالمجانين نحتفل بالفوز المزعوم، أنا وماريبل يدا بيد، نصرخ ونذوب في الجموع الثملة بانتصارها، ونهتف وصوت شادية يتردد في الميكروفونات على مقام البياتي، وألحان الفتى الموهوب، يا حبيبتي يا مصر. نمشي حتى ينهكنا المشي، ثم أرجع معها ليلتها لشارع أحمد حشمت، وتدعوني للصعود، ثم يحدث بيننا ما كان ينبغي أن يحدث، فتدبّر!

## ٢٤

واعلم أن أغنية «تخونوه» تحقق له أول ما يمكن أن يسمَّى نجاحا ساحقا، فضلا عن أنها ستحرك الغرام في صدر فتاة جزائرية جميلة في العشرين من العمر، تعيش في باريس. ستسمع هذه الأغنية وهو تشاهد فيلم «الوسادة الخالية» في السينما، فلا تأبه لعبدالحليم وهي يغني ممسكا كأس الويسكي بين فتاتين جميلتين، ولا للكلمات، ولكنها تقرر بينها وبين نفسها قرارا واضحا، أنها يوما ما ستتعرف على الملحن الذي صنع هذا اللحن، وتتزوجه!

أذهبُ لتحصيل الدعم الشهري المقرر. تخبرني الموظفة المسئولة عن المنحة أنهم وافقوا على طلبي التأجيل ستة أشهر، ولكني ينبغي أن أسلم ٢٠ ألف كلمة قبل شهر يونيو القادم. أهز رأسي وأطالعها، وهي ترمقني بقرف.

شتاء هذا العام بارد، والـ ٢٠١٢ توشك أن تنتهي. أقلب في الفيسبوك فتطالعني صورة صبي كثيف الشعر، يرتدي تي شيرت أحمر؛ أعرف أن

اسمه جيكا، وأعرف أنه مات برصاص الداخلية في إحياء ذكرى محمد محمود، وأتساءل، متى يكفون عن النزول للموت بالمجان؟ هل ثمة فارقٌ بين أن يقتلك رصاص الداخلية في زمن مبارك أو في زمن الإخوان؟ أتمشى قليلا رغم برودة الجو، وفي ميدان ريبابليك أجد سليمان في وجهي على غير اتفاق:

ـ أين أنت يا رجل؟

يواجهني بابتسامة ووجه رائقين. نتمشّى حول صينية الميدان، يسألني عما يحدث في مصر، الصدام بين الإخوان والثوار، ويدرك بذكائه أني لا أريد الكلام عن ذلك، فيُصفّر لي اللحن الرئيسي لأغنية «سيرة الحبّ» ويسألني عن المقام. أدندنه بيني وبين نفسي مرتين:

ـ هذا جنس سيكا. سيكا؟ هزام؟

فيرد باسما:

ـ والله وطمر فيك يا مصري، هذا مقام راحة الأرواح ـ الشبيه بمقام الهزام، جنس سيكا أساسي وجنس حجاز فرعي.

ثم يغمض عينيه ويتنفس بعمق بطريقة سينمائية وهو يضيف مُنتشيا:

ـ هذا مقامُ بليغ المفضل.

أهز أنا رأسي، وأجيبه:

ـ منطقي طبعا؛ إنَ الخوف من الحب ومن سيرة الحب، هو عين العقل، والابتعاد عنه هو راحةُ الأرواح.

يضحك، ثم يسألني بإشفاق، كيف سأقضي ليلة رأس السنة، وهي على الأبواب، ولا أعلم. كيف كانت حياتي لتمضي هنا بدونك يا سليمان،

وسط الفرنسيين المتسامحين اللطفاء الذين يحدقون فيّ طوال الوقت بدون مبرر!

دعك منهم واستمع معي؛ إن الأغنية ـ سيرة الحب أعني ـ تظل محتفظة بعقلها أربعة أسطر فقط لا غير، ثم ينهار كل شيء فجأة، ويجنح اللحن بشكل حاد للبيّاتي، لتنشدَ به المرأة التي لا تعرف الزمن:

«لا أنا قد الشوق.. وليالي الشوق».

حتى وإن لم تكن لك خبرةٌ بالموسيقا، فإني أؤكد لك أن جملة مثل «لا أنا قد الشوق» حينما تقال على مقام مثل البياتي، فهي بالضبط مثل بنت جميلة في حضنك، مستسلمةً لرغبتك، بحماس مستتر، بينما تردد كل نصف دقيقة أنها قد تأخرت ولا بد أن تذهب، لا أنا قدّ الشوق، وليالي الشوق، ولا قلبي قد عذابه، عذابه، ترلملم...

وحياة امّك؟

في جلسات طويلة لأسابيع متتالية يبدو سليمان مهتما بشرح وتحليل أغاني بليغ لأم كلثوم. نتدربُ سويا على عزف مقدمات «حب إيه» و«ألف ليلة» و«سيرة الحب» مثل كثيرين، سليمان مقتنع أن أساس تجربة بليغ هو ألحانه لأم كلثوم ومطولاته مع عبدالحليم، ثم تجربته مع وردة ـ وعلى هامش ذلك ألحانه الغزيرة هنا وهناك. غير أني بشيء من التأمل مقتنع بأن ميلاد الفتى الحقيقي هو عثوره على صوته الخاص في الشعبيات. طموحه الذي ولد صبيا مع ألحان محمود الشريف وأحمد صدقي اكتمل في ذهنه في منتصف الستينيات في تجربته مع رشدي، وهذا في رأيي هو قلب تجربته الموسيقية وثمرتها الناضجة.

إن له ألحانا عبقرية هنا وهناك، هذا مؤكد، غير أنه ظل يبحث عن شيء ما وظهر على استحياء مع «بلديات» و «وسع للنور» ثم «قولوا

لمأذون البلد»، وما لبث أن انفجر مدويا عام ١٩٦٤ في أغنية «عدوية» والتي تقول الأسطورة إن نصف البنات اللاتي ولدن في هذا العام تم تسميتهنّ «عدوية» من قوة نجاح الغنوة وتأثيرها. ألا يكفيك دليلا على ذلك أن الشيطان المدعو عبدالحليم لم يتتبه لبليغ ويطلب العمل معه ـ رغم صداقتهما القديمة الطويلة، وغنائه له من قبل «خسارة» و«تخونوه» إلا بعد عثوره، بليغ، على المفتاح السحري، والدجاجة التي تبيض ذهبا، التي تعرف بالشعبيات!

أسأل سليمان عن رأيه فيما أقول، فيجيبني، وقد اعتدت منه ذلك، بما لا علاقة له بسؤالي:

«وما كنتُ أدري قبل عزة ما البكا

ولا موجعات القلب حتى تولتِ»

ويسألني عن قائل البيت فلا أعرف، ويخبرني به غير أنه ينزلق على ذاكرتي ويسقط تحت عجلات المترو الباريسي ليلا وأنا في طريقي عودةً لسكن اللاجئين بعد جلسة طويلة معه، ولا أهتم...

## ٢٥

واعلم أن رجلا وُجد في مرحلة ما من تاريخ هذه المنطقة كان مقتنعا بأن هناك رابطة قوية بين العرب تُدعى القومية العربية، وكان مقتنعا بأنه زعيم تاريخي في مرحلة تاريخية، وأنه يحارب الإمبريالية العالمية والغرب والرجعية والإقطاع والأغنياء والماضي والحاضر وهلمّ جرا. كان هذا الرجل يخطط لينتصر للفقراء وليصنع من مصر دولة كبرى يكون هو، وسط ضباطه وعساكره وشئونه المعنوية، حارسها وحاميها وملاحها ومعديها وعاملا وفلاحا من أراضيها إلخ إلخ. يترتب على كل هذه الاقتناعات

المدهشة أنه يتحول راعيا للثورات، يدفع بجيشه لليمن، ويتولى مسئولية الثورة الجزائرية، مع كل أخ عربي شقيق، وأن تقام إذاعة تدعى صوت العرب لبث هذه الأفكار الكوميدية، ومصر ليست وطنا نعيش فيه لكنها شريط كوميكس عمره سبعة آلاف عام، بدأ منذ أول تحالف أقنع فيه الكهنة الشعب بأن فرعون يتلقى وحيا مقدسا من مكان مجهول.

كنا نقرأ صغارا في أدبيّات الإخوان وصف الإعلام بـسحرة فرعون، وإن كان من فضيلة تُذكر في سياق حكايتنا لـسحرة فرعون فهي أنهم قد أرسلوا دعوة للمطربة الجزائرية المذكورة أعلاه، وردة محمد فتوكي، والتي ولدت في باريس وكانت تتنقل بين باريس وبيروت وتغني بصوت قوي في الملاهي الليلية أغاني لأم كلثوم وأغاني أخرى متنوعة. وسط موجة الاهتمام بالعروبة يتم دعوتها ـ وحينها سيطلق عليها وردة الجزائرية ـ للقاهرة، عاصمة الفن والثقافة والفنون والآداب، عام ١٩٥٩، ويتم الاحتفاء بها، بينما هي تبحث عن صاحب لحن تخونوه، والذي صار الآن مشهورا تماما في الوسط الفني، حال إعداده أغنية أم كلثوم الجديدة، وكونه أصغر ملحن لها في تاريخها!

يدعوها محمد فوزي لحفل استقبال، على شرف وصولها إلى القاهرة. ويكون صاحبنا حاضرا بطبيعة الحال، يستلفتُ انتباهه الجسد المنحوت، العنق الأبيض الباذخ والعينين السوداوين، ويمكن لمن يراها في أوبريت الجيل الصاعد أو الوطن الأكبر أن يفهم افتتانه. يذهب ليتعرف عليها فتقول في خفة:

ـ أنت بليغ، أنت الذي لحنت تخونوه؟

فيهز رأسه بلا مبالاة وهو يطفئ السيجارة:

ـ أعجبتكِ الغنوة؟

ويحدث أن نقع في الحب، فنصير في غمضة عين أبرياءَ وساذجين:

ـ أعجبتني لدرجة أني يوم سمعتها في السينما، قلت، سأتزوج من صانع هذا اللحن.

ويحدث أن نجد أنفسنا في حضرة مفتون بنا؛ لعله شعر باستثارة مفاجئة، ولعله نظر لها مشفقا، ولعلّه ضاق لحظة بهذا الانبهار الثقيل. يتأملها مليا، ويقول في بساطة المحترفين:

ـ ماذا ستفعلين الليلة؟

## ٢٦

كان كل ما يشغلُني مع ماريبل في المرة الأولى هو ألا يظهر أنها المرّة الأولى. أقول لنفسي إن الجنس ليس اختراعا يعني، وإنه يمكن مداراة تلك الحقيقة المخجلة، غير أنها تطالعني، بعد أن ننتهي بنظرة باسمة. تسحب الملاءة البيضاء من فوقي مُعابثة وتُغطي نفسها:

ـ ألن تحدثني عن خبراتك وتجاربك السابقة..

فأدرك أنها أدركت، الملعونة، ولا أعرف بم أردّ:

ـ ربما ليس هناك ما يقال.

فترن الضحكة الماجنة. الآن، وبعد كل هذا الوقت، لا أستطيع أن أعرف هل كنت مكشوفا لها لنقص خبرتي وبراءتي، أم أنه ذلك الذي يدعونه حبّا، يجعلنا مكشوفين بلا رحمة، نتحول لكائنات ساذجة هشة، أطفالا بلهاء مفضوحين في كل حركة وكل التفاتة. تطول فترة الصمت وهي تنظر لي في تلذذ، ثم تسأل بوضوح:

ـ هل مارست الجنس من قبل؟

ولا أردّ، فتضحك ثانية. أضطر لإجابة السؤال بسؤال، مفتعِلا بساطة وتصالحا غير حقيقيين:

ـ ماذا؟ ألم يكن جيدا؟ معذرة يعني لو كنا أحبطنا حضرتك يا باريسية هانم.

فتقبلني في جبهتي، بوجه سعيد ونظرة مُرتوية:

ـ بالعكس، كان ممتازا. هذا ما يسمى بشغف المبتدئين.

ولثلاثة أيام متواصلة، لا تكف السيدة ماربيل عن تجريب شغف المبتدئين، والذي يبدو أنه كان جديدا عليها، طبعا بخلاف كونه ممتعا. لعل هذا كل ما سيبقى من منجزات الثورة والربيع العربي. ثلاثة أيام يا دكتور نلتهم بعضنا البعض؛ الصبي تُلقي به اليد في جحيم التجربة؛ صياد ورحت اصطاد صادوني، طرحوا شباكهم رموش العين، صابُوني. في الليلة الأولى التي أنام فيها بجوار امرأة، يوقظني الخاطر طول الليل، أفتحُ عيني وأنظر فأجدها بجواري، وصدرها يعلو ويهبط في اطمئنان، قطرات العرق المتناثرة في لامبالاة أسفل عنقها، والشذا الطيّب المنبعث من شعرها، رقدتها بجواري، أفكر، الباريسية نائمةٌ بجواري، وتفتح عينيها في خمول:

ـ ماذا أيقظك يا صغيري؟

ـ إنما أريد أن أنظر إليك.

ـ اممم. حسنا، الآن ننام، حتى نرتاح قليلا.

وتغمض عينيها ثم تفتحهما فجأة، وتقول بشغف:

ـ وفي الصباح سنمارس الحب ثانية.

وتمر بإصبعها على أنفي بين الغواية والتحذير:

ـ ماشي يا حبيبي؟

ـ ماشي يا ماريل.

عاريين في سريرها في الزمالك، والشباك مواربٌ، يدخل مع شعاع الشمس ظل سيدنا الخضر، يتسلل للغرفة الواسعة المعتمة ويضع يده على رأسي باسما، أتساءل عما يريد، ويبدأ يغني بصوت جميل:

ـ أقومُ بالليل/ والأسحار ساجيةٌ.

ثم في غمضة عين يختفي؛ كأنه كان حلما، كأنه كان نكتة. أفتح عيني وأجدُها تنفض السرير والملاءات:

ـ هيا يا كسلان، حان وقت العودة للحياة الطبيعية.

أتذكر أن لديها عملا، وأن هناك دنيا تدور بالخارج. أراها ترتدي ملابسها على عجل ـ وأنا بين الغفو والصحو ـ وتطبع قبلة على جبيني:

ـ سأنطلق للمركز. سأتصل بك لاحقا.

وقد سئل من سئل قبل أربعة عشر قرنا، كم يدوم نعيم أهل الجنة؟ وقبل أن يجيب تقول الصناديق للدين نعم، وينعي الناعي هذه البهجة الطارئة؛ فتخبرني بأنها لا بد أن تعود لفرنسا، فكيف لم أنتبه إلى أنها لم تهتم، وكيف يُعمي الحب فلا نرى الكارثة ساطعة فوق رءوسنا.

ـ ستوصلني للمطار؟

ـ أي سؤال هذا؟

أعددت نفسي للمشهد الرومانتيكي بعذوبة تليق بعاشق على أول الطريق، وأنا أحتضنها جالسين على الكرسي في المطار أفتحُ حقيبتي وأعطيها ما أحضرته لها. تفتحُ الكيس فتنطلقَ صيحتها المندهشة في بهجة صافية:

- أووووه.

تحتضن الدبدوب الأبيض على هيئة خروف الذي أحضرته لها، تمسح بيدها على فروه الناعم وهي تردد بعذوبة:

- très mignon.

تقلبه بين يديها وتحتضنه، ثم تسألني عن الاسم الذي سنطلقه عليه:

- اقترحي أنت اسما، إنه صاحبك أنتِ الآن.

فتفكر ثانيتين ثم تصيح ثانية:

- كُشري. ليكُن اسمه كشري.

كأنّ كل ما كان يجيش بصدري منذ عرفت أنها ستسافر، وحتى وصولنا لمقعد المطار، كأن كل همسة وكل لفتة، كل شعور تحرك بصدري من أجلها - كان ينتظر هذا الجواب، كان ينتظر هذه الخفة، وطريقة نطقها بكلمة، كشري، حتى أجد نفسي رغما مني أبكي، بلا سابق إنذار، بلا سابق خبرة.

تنظر لي - ولا أعرف أي نظرة تلك؛ تفهّم، حنين، رثاء، شفقة، أم لعله كان حبا! وتقول بصوت محايد لا أتبين فيه شيئا:

- طلال، أنت طيب جدا. أنت إنسان طيب.

ثم تقبلني على جبهتي سريعا وتقول وهي تغمز:

ـ سأنتظرك في باريس يا عفريت.

ـ وأنا سآت إليك في باريس يا عفريتة.

أقولها وأعنيها، وأفعلها، فتدبّر!

## ٢٧

ولو أنك تأملت لاكتشفت أن كل ما سيتبقى من نكسة ١٩٦٧ ومن حرب الاستنزاف، ومن كل هذه الهيصة الفارغة، هو مشهد الطائرات ـ بالأبيض والأسود ـ وصخبها في السماء. صوت عبد الناصر محدقا في الكاميرا وهو يقول: لقد اتخذتُ قرارا أريدكم جميعا إلخ إلخ، ثم تلك الأغاني التي لحنها بليغ في تلك الفترة. الهزيمة تافهة واللحن عبقري وملهم. فمن يذكر الآن أسماء الجنود المساكين الذين ذهبوا للموت المجاني مقابل لقب شهيد، أو أسماء قادتهم الذين فشلوا حتى أن يمارسوا ديكتاتورية تستحق الاحترام! لن يُبقي قانون الانتخاب الطبيعي الصارم إلا على ألحان الفتى العربيد الموهوب: شادية وهي تتدلع، قولوا لعين الشمس، أم كلثوم إذ تمارس سلطتها بصرامة واقفة في منزلتها العجيبة بين الذكر والأنثى، فدائيون، ثم عبدالحليم في أغنيتيه الماستر، عدى النهار والمسيح، والأغنيتان أصلا تم غناؤهما في تلك الحفلة الشهيرة في لندن!

أفكرُ، هذه حكاية أخرى تستحق مشهدا منفصلا. أدون كل ذلك بسرعة قبل أن أنساه في النوتة الجلدية وأنا أستمع الأغاني متعاقبةً، منتظرا سليمان، الذي يصلي الجمعة في مسجد باريس الكبير بالحي الخامس. يخرج لي مبللا وهو يضع قدميه بسرعة في حذائه الجلدي القديم.

ـ حرما يا حضرة الموسيقار.

ـ جمعا ان شاء الله يا مصري يا زنديق. دعوت لك بالهداية والإيمان.

أقترحُ أن نمضي لمطعم الشاورما المقابل للمركز، بدلا من الكلام فيما لا طائل منه، ويتحمس هو للاقتراح تماما.

فترةٌ كاملة من تاريخ وطن، كانت خلفيتها الموسيقية هي ألحان صاحبنا العربيد الموهوب. النكسة هي «عدى النهار» ولا شيء سوى ذلك. تأخذ الأغنية في وعينا الآن منزلة تشبه الأسطورة، والأسطورة تقتضي أن ينكسر البطل توجعا من جرح هزيمة الوطن الحبيب. لكن لو كان الأمر كذلك لما كان بليغٌ بليغا. إنما هي بقية باقية من لماحية رجل كررنا أكثر من مرة أنه في الحقيقة لا يأبه لشيء.

يمكنك أن تقارن بين مشاركة صلاح جاهين وكمال الطويل مثلا في المشروع الناصري البائس، بوصفهما مؤسسين في الترويج ـ فنيا ـ لأيدولوجية ذات طموح راسخ، وبين مشاركة الفتى في نفس الفترة، فترة الستينيات الإيروتيكية، بالتوجه للشعبيات: أغانيه لـ رشدي ومن بعده عبدالحليم، على حسب وداد قلبي وتوبة وسواح، ألحانه التي رقصت عليها سهير زكي ونجوى فؤاد ومن تبعهما بإحسان إلى يوم الدين. لن تجد له أغنية واحدة عن «ناصر» بشكل صريح، ولا عن أي مفردة من مفردات المرحلة، الاشتراكية أو القومية أو غيره، ولم يعرف عنه أبدا أي انخراط في نشاط حزبي أو ثقافي عام. كانت مشاركته في كل ذلك الزخم السياسي الدائر مشاركة حذرة، متمسكة بمنطقها، وبحكمتها؛ حكمة الهشّك بشّك الخالصة. كان ذكاؤه الفطري عصمته من بحر الخرافة المهول الذي سبحت فيه مصر حتى ارتطمت بصخرة الـ ١٩٦٧ العنيفة.

إن هناك دوما مسافةً قائمة بين صورتنا التي نُصدرها للآخرين وبين

الحقيقة، هي ذات المسافة بين تصورنا عن التاريخ وبين ما جرى بالفعل.
وحين نتحدث عن فيلم طالما تمّ اعتباره رمزا لمقاومة الناصرية في عز وجود صاحبها، فيلم شيء من الخوف، عام ١٩٦٩، الأكثر تعبيرا عن سنوات ما بعد النكسة؛ شادية وهي تفتح الهاويس تمردا على محمود مرسي الظالم، الإحالة لعبدالناصر، ولمصر التي بدأت تتململ بعد الهزيمة، فلا بد أن نتذكر أن الثنائي نفسه، شادية وبليغ، يقدمان في ذات العام، فيلما تافها إيروتيكيا، ومسلّيا، هو «نص ساعة جواز». فيلم لذيذ وخفيف وعدمي، يحقق نجاحا ضخما في بلد قيل إنه يعيش أجواء الهزيمة، ليلحق به فيلم آخر لا يقل خفة ولا عدمية، هو «أبي فوق الشجرة» حيث سيقدم الفتى لحنه المدهش الشجي الذي لا يُنسى، «جانا الهوى» ومعهما، العمل الذي لا يمكن فهم بليغ ولا الكتابة عنه بدونه: أغنية ألف ليلة وليلة، جوهرة ذلك العام، والتي لو سمعتها بإتقان لوجدت كل شيء عن كل شيء؛ هذا ما يعتبره كثيرون لحنه الفذ، والأهم، خصوصا مقدمتها الموسيقية التي تعتبر أعلى درجات نضجه الفني، تلك الفقرات المدهشة والمختلفة من العزف المنفرد، والذي كان فيه ملكا متوجا، حتى إنه سمي ملك الصولو؛ استخدام الأكورديون والساكسفون بطريقة معبرة تماما عن الجو الشعبي. استخدام مقام الـ فرح فزا، من جنس النهاوند، باحتراف مذهل. في مقطع «ولا عمر بستانه طرح، غير الهنا وغير الفرح» حين يستخدم ذلك الإيقاع المعروف الأفراح الشعبية، ولأول مرة في تاريخ أم كلثوم. يقولون إن سن اكتمال العقل، والنبوّات المفترضة، هي الأربعين، إلا أن صاحبنا له شأن آخر؛ رغم أنه لم يتجاوز السابعة والثلاثين، فإن أسلوبه كان قد اكتمل واستوى على عرش الموسيقى تماما. كأنه يريد أن يقول، أنا على كل شيء قدير، كان أحيانا يبدأ في العمل بطريقة متحدية للجميع، ومُستخفة بكل

شيء، يعمل مع الأصوات الجديدة أو دون مُغن على الإطلاق، مكتفيا بالمجاميع، ولا شيء معه سوى اسمه ومقدرته، كأنه يقف في جانب وكل موسيقيي مصر في جانب آخر...

يغمغمُ سليمان:

«فيلم نصف ساعة جواز؟!».

كأنه لا يتذكر هذا الفيلم؛ أذكّره به، حكاية ونغمة، وأرفع بصري فأجد الناس في مطعم الشاورما يحدقون فينا: رجلين عربيين يغنيان في بهجة، وبحماس، لعله لا يقل عن حماس سمير صبري نفسه وهو يغني:

«شكر حلوة الدنيا سكر Lovely والله الدنيا Lovely، لالا لا لالا»...

## ٢٨

واعلم أن الصبية جاءت جاهزة مسبقا للهيام به، وفيما هو يدخن في ثقة، يطالعها وهي تتكلم في حماس. يرقبهما محمد فوزي باسما؛ مدركا أن الصبية الجزائرية دخلت مزاج الفتى، والذي يسألها وهو يناولها كأس الويسكي ماذا تفعل الليلة؟ وحين تجيب بأنه ليس لديها خطط مسبقة، مثل أي امرأة تريد أن تقول نعم بشكل غير مباشر، يسألها ما إذا كانت تحب أن تسمع لحنه الأول لأم كلثوم، حب إيه، قبل أن يسمعه أحد. تتسع عيناها، وتخبره بارتباك بأنها لا تشرب، غير أنها تتناول منه الكأس على كل حال، دون أن تدري ماذا تفعل به. يدرك بخبرته أنه لم يعد بحاجة لبذل أي مجهود؛ لقد انتصر من دون أن يفتح فمه بكلمة واحدة. يتناول منها الكأس ثانية ويشربه على جرعة واحدة، ويغمز لها!

في سيارته، ليلتها، يُسمعها «حب إيه» ثم يبدآن في الظهور معا. يلاحظ

الجميع هذه العلاقة الوليدة، ويتحدث بها أهل الوسط الفني. وخلاصة القول ما يقوله صديقه الصدوق عبدالحليم، تعليقا على وجودهما معا طوال الوقت وفي كل مكان، حين يرى حماسة الرومانتيكي الحالم كامل الشناوي ـ وفق رؤيته الساذجة للعالم ـ مُباركا لتفاصيل ميلاد هذه الحكاية الغرامية:

ـ لقد وقع بليغ في الحب هذه المرة!

ليجيبه عبدالحليم باستخفاف، وهو الفاهم لصاحبه:

ـ يا كامل بيه، بليغ يقع في الحب في الليلة الواحدة ثلاث مرات.

وأنت لا ترى الصورة، لكنك ترى زاوية وقوفك منها. ترى ظلا سياسيا للحكاية، قد يتجلى فيما قيل عن علاقة وردة ببعض رجال السلطة، شائعة علاقتها بعبدالحكيم عامر، في سياق المتفق عليه من سيطرة رجال المخابرات في ذلك العهد على كل شيء، وتهديدهم لها بالفيلم الإباحي المزعوم مع رشدي أباظة، والذي هو مثل الله والحب، يحكي عنه الجميع ولم يره أحد. أو ترى للحكاية ظلا عاطفيا، عن فتاة مغرمة بملحن تعرفه من قبل أن تراه، منذ سمعت له لحنا في السينما بباريس قبل عامين، وملحن على أعتاب أن يتحول لأسطورة، يتنقل بين المقامات وبين حكايات الحب في خفة تليق بموهبته الجامحة.

قد تغرينا صور العاشقين بخلق أسطورة لا شك في جاذبيتها، غير أن الحكاية أبسط من ذلك. فالفتاة رغم غرامها بالفتى، ورغم حبها للغناء والشهرة والأضواء، فإنها ابنة تقاليد محافظة، جاءت بها وظلت معها للنهاية. تجيء لمصر بصحبة، أو تحت حراسة أسرتها، أمها وإخوتها، ويتم الاحتفاء بها في سياق حالة الحفاوة الكبيرة بالقومية العربية التي كانت موجودة أوائل الستينيات، ولكن كل هذا العالم الفني، وأهل

الوسط الغنائي، بتحرره وانفلاته كان غريبا عليها، حتى على الرغم من افتتانها به.

صحيحٌ أن الفتى لا يُقاوَم، وبعد أن يسجل لها أغنية «أحبك فوق ما تتصور» يخرجان معا، مرة بعد مرة، لديه دائما ما يقوله ليحافظ على انتباهها، يسمعها في كل خروجة جملة موسيقية، وتتسع العينان السوداوان انبهارا:

ـ تعرفين أن رقبتك حلوة.

فتشير له محذرة:

ـ احترم نفسك.

يا سلام ع الدنيا وحلاوتها في عين العشاق؛ يحدثها عما سيصنع بها، يطلب منها أن تبقى في مصر؛ بإمكانه أن يصنع منها نجمة لا مثيل لها، فتسأله:

ـ ونتزوج؟

يرتبك الفتى، الذي يضيق بكل ما يقيد حريته، ولا يرد. يسألُ السائل أين كانت أول قبلة، في السيارة؟ في السينما؟ هل دعاها لبيته؟ علمُ ذلك عند من عاش الحكاية. غير أن الأسرة تعبر بوضوح عن انزعاجها من ملازمة بليغ لوردة بهذه الطريقة. وذات مرة حين يرن الجرس حيث يقف الفتى بالباب باسما، متأنقا؛ مرتديا الإسكارف الحمراء وممسكا بباقة من الورد، منتظرا أن تخرج له وردة كما اتفقا بالأمس بعد بروفات أغاني فيلم «ألمظ وعبده الحامولي» يخرج إليه بدلا منها شخص آخر، لا يحبه تماما.

بعيد عنك حياتي عذاب. كان لا بدّ من اختراع طريقة للذهاب لفرنسا، لباريس. أقدّم على منحة الاستضافة الخاصة بمهرجان كان. ولا تسألني عن علاقتي بالسينما، فقد سألني أبوها نفس السؤال بعد ذلك في ذلك اللقاء الكريه في Antony ولا أذكر إجابتي، ولكني أذكر نظرة الريبة في عينيه الزرقاوين. يطلبون مني شهادة من الجهة الصحفية التي أعمل بها، فأضربُ شهادة من جريدة أخبار الأدب يوقع عليها أحد الأصدقاء العاملين هناك بغير اهتمام. ترسل الهيئة المنظمة للمهرجان طلبا لنموذج من مقالاتي عن السينما فأطبع مقالين قديمين لي، منشورين بجريدة الدستور، ويتكفل الفوتوشوب بوضع صورتي وجعلهما عن السينما! هل يقرأ العرب الصحف العربية حتى يقرأها الخواجات! غاية المسألة أن هناك حصة من ضرائب المواطن الأوروبي جرى تخصيصها لهؤلاء البائسين في الجانب المفشوخ من العالم، ربما ليشعر بإنسانيته المكتملة، وأنا أولى من غيري. بعثت لماريل بطلب التقديم على المنحة فراجعته وصوّبته وأرسلَت به لإدارة المهرجان.

نحن نعيش في كوكب منكوب يا دكتور، وأنا على الأقل كانت دوافعي نبيلة. كنت عاشقا تسوقه سذاجة العاشقين. أجمعُ كل مدخراتي من دار النشر المزعومة، والترجمة والمكافآت الصحفية؛ أضعها في صرّة قماشية سوداء قبيحة المنظر. أخطو ألف خطوة حتى تأتيني دعوة الاستضافة الرسمية من المهرجان، ثم أخطو ألف خطوة حتى أصيرَ إلى السفارة الفرنسية في شارع مراد بالجيزة، طلبا لتأشيرة تحملني إلى بلد المحبوب، فيستوقفني بالباب عسكري بائس:

ـ نعم يا أستاذ؟

فأقول مُستسلما:

ـ أهل الحبّ صحيح مساكين.

يؤمّن العسكري على قولي ويفتح لي باب السفارة. أجدُ بالداخل طابورا طويلا يتلوى كالثعبان الجهنّمي، وأقفُ في الدور. أمامي يقف شاب مصري، عاريا كما ولدته أمه، منكسر النظرة، وأمامه كان الصحابيّ غير الجليل ماعز بن مالك، فأسأله مندهشا:

ـ ألم يرجموك في حادثة الزنا؟

فيضحك ولا يرد. تخرج له من المكتب موظفة فتاة فرنسية شقراء شاهق لونها تسر الناظرين، أعطيها الصرة السوداء بما فيها فتتناولها باستهانة، وتقبلُ إلى ماعز فتصافحه وتقبّله في بساطة على الخدّين، كأنهما صديقان قديمان. تمنحني نظرة متجهمة، وهي تقلّب في الباسبور الخاص بي. أشعرُ بالتوتر، أسأله:

ـ يا صاحب رسول الله، هل منحوني التأشيرة؟

يجيبني بأن أوّل سؤال سأله له النبي وهو يستجوبه بعد اعترافه بخطيئته، أبكَ جنون؟ أصيح فيه وقد نفد صبري: إنّ الجنون هو ألا أحصل على التأشيرة، وألا أذهبِ لماريل. يمط شفتيه ويقول: على كيفك. ينظر للموظفة في أسى، فتغمغم بالفرنسية ما بدا أنه بيتٌ من الشعر. يأخذ ماعزٌ منها الباسبور ويرفعه لأعلى، ويقول بصوت جهير للوجوه الكالحة في الطابور المُمتدّ:

ـ استغفروا لطلال بن فيصل، فإنه يتوجع وجعا لو قسم بين أهل الأرض لوسعهم.

أخطفُ الباسبور من يده. وحين أجد التأشيرة تستقر بداخله أصرخُ من البهجة، وأرفع رأسي له فأجده قد اختفى!

قبل أن أصل للبيت كتبت لماريل أنه بإمكاني الآن السفر وقتما أشاء. تقترحُ أن آتي في الأسبوع التالي - بحيث تكون قد حصلت على إجازتها، ثم تتبعها برسالة قصيرة:

- يمكنك أن تقيم عندي طبعا، لا توجد مشكلة.

بدت لي الجملة نشازا غير مفهوم؛ ظننت إقامتي عندها أمرا متفقا عليه بلا حاجة لإشارة، ولكنّي لم أعلق. أحجز الطائرة وأكتبُ لها موعد وصولي مطار أورلي في الثامنة صباحا، متوقعا أنها ستكون في انتظاري، ولكنها تجيبني:

- تمام، ستأخذ المترو لمحطة اسمها دونفير روشرو. سهلة جدا، لن تحتاج إلى تغيير الخط.

ثم مُداعبةً:

- هذه عندنا مثل محطة السادات عندكم، لكنها ليست مغلقة.

وتضيف كالمعتذرة:

- أنت ستصل مبكرا جدا. وأنا أنامُ تقريبا في السادسة صباحا.

ويقول العارفون إن الإشارات دلائل الأحوال، وفيما سيكون إشارة لكل ما سيحدث بيننا بعد ذلك، أجيبها:

- لعلّي لا أزعجُك بهذا القدوم!

فترسل لي قلبا، وكلمة Habiby.

ورغم كل شيء، أصلُ، لتكون هذه هي المرة الأولى في أوروبا. لم أنبهر كما تصورت؛ لا يبدو المترو مختلفا تماما عنه في مصر؛ الأفارقة السود يتحدثون الفرنسية بسرعة، رجل نائم، شحاذ بائس ورجل يلعب

بالأكورديون ويمضي متسولا العملات المعدنية، صوت المرأة المنبعث من الميكروفون الذي يذكر الناس بالمحطة، مكررا مرتين:

«دونفير روشرو. دونفير روشرو».

في محطة دونفير روشرو، أهبط من العربة، وأنظر يمينا ويسارا. في ثانية ألمحها، وأحتاج، كما هو الحال معها دائما، إلى برهة قصيرة لأميزها، وهي تجري نحوي. أشعر بأنها أقصر ـ أو أضأل ـ مما كانت عليه في مصر، ثم أدركُ أني لم أرها في مصر بشكل كاف!

أهمّ باحتضانها وتقبيلها، فتشير لي بإصبعها محذرة. تزمّ شفتيها وتخرج ذلك الديدوب الأبيض من حقيبتها:

ـ ينبغي أن تسلم أولا على كشري؛ المسكين كان يفتقدك طوال الشهرين الماضيين.

فأحتضنهما وأقبلهما.

ـ وحشتيني يا بنت العفاريت.

نتمشى في شوارع باريس الصباحية. طوال الطريق تقبلني، وتهمس في دلع:

ـ هناك طريقان، طريقٌ أحبه وأحب أن أتمشى معك فيه، لكنه طويل. أما القصير فهو يوصلنا للبيت أسرع، لكنه ليس جميلا.

ثم وهي تقبّلني:

ـ ليس جميلا مثل حبيبي.

وقتها، حين كنتُ ضيفا مُرحبا بي، أقفُ أمام الباب المعدني لبيتها، في مونبارناس، تأخذ إصبعي وتضغط به على الكود السري للمنزل ـ على

عادة بيوت باريس كما سأفهم بعد ذلك. وقتها، حين كنتُ ضيفا مُرحبا بي، كانت تهمس بغواية، وتمنح بسخاء، وتعطي ولا تشعر بأنها تعطي، وتقول وهي تضغط بإصبعي على الكود:

ـ ينبغي أن تحفظ هذا الكود. أريدك أن تأتي كثيرا.

ويقول العارفون إن الإشارات دلائل الأحوال. وحين أستعيد الحكاية التي ستتمدد أمامي مثل ورم قبيح أكتشف أن كل تفصيلة كانت تنذر بالذي ستنتهي له. تخلع معطفي وتعلقه على المشجب في مدخل الشقة. نبدأ نخلع ملابسنا:

ـ ماذا تريد أن تفعل اليوم؟

ـ كما تريدين.

ـ هل تريد أن تشاهد برج إيفل؟

وتضحك باستمتاع حقيقي، ثم تضيف بجدية:

ـ كنت أريد أن آخذك اليوم لنقابل أصدقائي.

ـ لم لا! فلنذهب.

ـ لا، لنذهب في يوم آخر.

ـ لماذا؟

ـ طليقي سيكون هناك.

ـ طليقك؟!

ـ بعدين...

ـ لم تخبريني بمسألة زواجك أو طلاقك هذه من قبل؟

- لا يهم...

- أعني..

فتفرد يديها بما يعني إنهاء النقاش في هذا الأمر.

- هل تريدُنا أن نذهب؟

لا أعرف بم أجيبها، ويهمس الصوت الغامض بحكاية ظمآن كان يحسبه ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا!

- كما تريدين. ولكن من الغريب أنك لم تذكري أي شيء قبل ذلك عن هذه الحكاية.

يتردد صوت مارييل خافتا:

- بعدين. سأحكي لك كل شيء بعدين.

فأجيب على مضض وعن غير اقتناع:

- بعدين.

ويهتفُ سيدنا الخضر في وحشية، لم يجده شيئا. وتؤكد السيدة أم كلثوم، والحب عمره ما جرح، ولا عمره بستانه طرح، فتدبّر!

## ٣٠

ولو أنك تأملت لوجدت الفرنسيين يحدقون فينا، أو فيّ - ونحن نغني مع سمير صبري، سكر حلوة الدنيا سكر، فدعك منهم. أشغل له باقي أغاني فيلم «نص ساعة جواز» على الموبايل؛ نستمع إلى شادية وهي تتأوّد بطريقة فاتنة، طبطب الهوى علينا، وأقول، هذه نغمة أخرى ساحرة؛ واحدة من تلك الجمل القصيرة الخاطفة التي برع فيها. يمكن لنا أن نصنع سلسلة من

ألحانه لشادية ونقدمها بوصفها تعريفا للدلع. ينبهني لوضوح الإيقاع بدءا من جملة «قال لي تعالي يا حلوة معايا» كيف تعلو نقرات الطبلة وتصير أعلى. يعطيني أكثر من نموذج لاستخدام الإيقاعات المختلفة في ألحان الفتى، ولعه بالمقسوم، الابتكار الإيقاعي في جملة مثل «وتاني تاني تاني، راجعين للحيرة تاني» أو استخدام إيقاع منسيّ مجهول مثلما فعل في مقدمة أغنية الحب كله لأم كلثوم!

إنني أتحسن بمرور الوقت، ها هو ذا الـ٢٠١٣ يمضي في رتابة، نحن نواصل دروس الموسيقى، وأنا أحاول الانتظام في الكتابة. تصرّ كعادتك السخيفة على أن تسألني عن الأوضاع في مصر، وعن اضطراب الخدمات وانقطاع الكهرباء واختفاء البنزين، وهل ما يحدث حرب على الإخوان أو بسبب سوء إدارتهم. يا سليمان يا عزيزي دع عنك هذا القلق، واعلم أن علوقية هذا البلد المذكور في القرآن هي صمام أمانها. إن أصحابنا المساكين يتساءلون على الفيسبوك إلام يمضي البلد في هذا الجنون، يهتفون يسقط حكم المرشد، وترتفع المطالبات أو التساؤلات بشأن ثورة ثانية، بينما تؤكد أمي في الفايبر أنها مؤامرة من الدولة العميقة لإسقاط الإخوان.

رجوعي إلى مارييل أقرب للمنطق من سماع صوت أمي وهي تقول «الدولة العميقة». غير أني رغم كل ذلك مطمئن، لا لشيء إلا لأن الجنون في مصر يمكنه أن يمضي إلى ما لانهاية، بل ويمكنه أن يمضي جنبا إلى جنب مع الحياة، من دون أي مشكلة. ليس الأمر بأسوأ من الـ ١٩٧٠، حيث الهزيمة الواضحة والنصر الغامض وبينهما حرب استنزاف وشهداء ومجمعات استهلاكية ومقالات رأي وخطب في مجلس الشعب ونقاشات وبيانات ونوم وصحيان وأكل وشرب ودنيا لا تأبه بشيء، دنيا حركتها أقوى من أن يوقفها شيء.

إن المزاج المصري الهستيري الذي يرتفع إلى السماء ثم ينزل بلا سبب واضح هو في الحالتين مزاج رخو، غير جاد، بلا مقصد حقيقي. العلوقية كما أكرر هي إنجازنا الحقيقي والخالد؛ أدركها مبكرا أمل مصر في الموسيقى الموسيقار الشاب، البرنس في ذات نفسه، والذي يلحن ذلك العام، ١٩٧٠، أغنيته الوطنية الخالدة «يا حبيبتي يا مصر» على مقام البياتي كما شرحتَ لي سابقا، والتي ستتحول لأيقونة وطنية في كل ماتشات كرة القدم بعد ذلك، النوتات الأربع الخاطفة التي يعزفها القانون في أولها، والتي تقشعر حين تسمعها، مهما كنت عدميا منخلعا من كل شيء مثلي، وجملة، أصله ما عداش على مصر، التي تصلح للتراجيديا كما تصلح للكوميديا، لينهيها بالقفلة الحراقة، بـ يا حبيبتي يا مصر!

هو هو نفس الملحن، وفي نفس التوقيت. تصور يا مؤمن، يصنع أربعة أفلام مرحة، مدهشة، عظيمة التفاهة عظيمة البهجة، وبين المرح والشحتفة يمكنك فهم كل شيء. يصنع بليغ أربعة أفلام غنائية هو بطلها الحقيقي، والوحيد. ماذا نذكر الآن من فيلم فرقة المرح غير أغاني رشدي «طاير يا هوا» و«ع الرملة» ورقص نجوى فؤاد؟ وماذا نذكر من فيلم يدعى «نار الشوق» غير وديع الصافي و«على رمش عيونها» و«دار يا دار»؟ هل نعرفُ أصلا أن هناك فيلما اسمه «كانت أيام» فيلم من بطولة رشدي أباظة وصباح؟ إطلاقا! لكن صوت صباح، وصورتها بطبيعة الحال، محفورة في وجداننا وهي تتموحنُ بأناقة لا مثيل لها قائلة «عاشقة وغلبانة والنبي» أو بغنج لا يسمح به أكثر الرقباء تحررا «يانا يانا». إن موسيقاه، بلوازمها من دلع وغنج وإيروتيكية وإخلاص للبهجة هي شيء أكثر جلالا من الموت نفسه والله يا سليمان يا أخي.

ماذا كان الفيلم الرابع، اسمه يغيب الآن عن بالي، إنه ذلك الذي يغني فيه عبدالمطلب «يا بو قلب دهب»: كانت لدي خاطرة عن هذا اللحن

مرتبطة بتطور بليغ، دونتها هنا في هذه النوتة الجلدية، شيء بخصوص نقش الحنّة ـ ولكنك لا تزال تضحك، وتردد في غير مناسبة كما تفعلُ دوما:

«خليليّ إن الحب أحسب قاتلي/ فقاضٍ على نفسي كما قد برى عظمي».

وأسألك عن اسم الشاعر فلا تجيب، وأبحث عن النوتة الجلدية فلا أجدُها...

## ٣١

واعلم أن أسرة وردة المُحافظة اعترضت بوضوح على فكرة الزواج من هذا الملحن المصري. يقفُ صاحبنا بالباب متأنقا؛ مرتديا الإسكارف الحمراء وممسكا بباقة من الورد. يدق الباب فيخرج له حميدو، أخو وردة والقائم بحراستها، من دون أن تنقصه الصراحة أو الفظاظة:

ـ لا تعُد إلى هنا ثانية؛ أختي لن تبقى في مصر ولن تتزوج واحدا من الوسط الفنّي.

يشير بيده للخارج، فيغادر صاحبنا شقتهم في جاردن سيتي، يجرجر أذيال الخيبة.

لا يعني ذلك أنه فقد تأثيره عليها؛ فنحن نعلم أنهما ظلّا يخرجان معا، ولكن خلسة، وبدعم من شقيقها الآخر مسعود، والذي كان موسيقيا منفلتا مثل صاحبنا. يتصل بها في منتصف الليل، ويأتي صوتها الهامس:

ـ أنت مجنون؟

فيؤكد أنه مجنون، ويطلب منها أن يلتقيا الليلة، وبعد صد ورد، تنجح مفاوضات العاشق، وتذهب إليه وردة متخفية، إلى سميراميس، كما طلب.

كان هناك، بين آخرين، عبدالحليم وكامل الشناوي وأحمد الحفناوي ومحمد حمزة. يقدّمها لهم بليغ ضاحكا:

ـ المدام بإذن الله.

فترتفع الصيحات والصفير. مزاجه في أحسن حالاته، حتى إنه يغني شيئا من «أنساك» والتي غنتها أم كلثوم قبل شهور قليلة لتحقق نجاحها المذهل. في لحظة ما يدركني الإشفاق على الفتاة الجزائرية المسكينة، بعدُ في السابعة والعشرين من العمر، وهي مغرمةٌ بالفتى وبهذا الجو، وهي من آن لآخر تتأمله وتفكر، أي مستقبل يمكن أن يكون لعلاقتها به؟ هو الغارق في سحابته، يحتضنها حينا، ينقر بأصابعه على كتفها، أو الطاولة، كيفما اتفق، جملة موسيقية ترنّ في رأسه لا يسمعها سواه. يوزع التعليقات الضاحكة والنغمات هنا وهناك، ويمسك يدها من آن لآخر ليسمعها كلمة حلوة ـ مُتذكرا أنها موجودة. ترتبك حين تكتشف أن الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحا:

ـ لقد تأخرت، ستوصلني؟

فيغمغم بكلمتين وهو يشعل السيجارة. السهرة جميلة؛ وهو لا يطيق شعور الاضطرار، ولا الأبواب المغلقة. يحتضنها برقة ويرسل معها محمد حمزة وأحمد الحفناوي لتوصيلها. سيقول أحدهما معتذرا لها في الطريق، بليغ ده أصله مجنون! تقفُ بها السيارة تحت البيت. تخاف أن تدخل من الباب فيشعر بها أخوها حميدو، فيساعدها الرجلان على التسلل؛ تقف على سطح السيارة ومنه تقفز للبلكونة في الدور الأول، ثم تدس نفسها في الفراش في هدوء.

أسرتها التي تدرك افتتان الصبية بالفتى، وأن الأمور توشك أن تخرج عن سيطرتهم، يقررون الابتعاد عن كل ذلك. بعدها بأسابيع قليلة، أواخر

١٩٦٢، يسافرون بها للجزائر، ثم تتزوج من رجل لا يعنينا كثيرا في هذه الحكاية! يحزن الفتى قليلا، ثم لا يلبث أن ينشغل ببروفات الأغنية الجديدة، لتغني أم كلثوم يوم ٥ ديسمبر ١٩٦٢ على مسرح قصر النيل:

«كل ليلة وكل يوم، أسهر لبكرة في انتظارك، يا حبيبي».

## ٣٢

أنا اللي طول عمري باصدق كلام الحب في المواويل، لا أعلمُ شيئا عن طلاق ولا طليق؛ ذهبت لباريس، وحضرت مهرجان كان، فكان ما كان! أعُود إلى مصر بعد أسبوع معها يفوت كأنه حريق تحت الجلد، وكلما نضجت جلودهم أبدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب. أفكر في مرارة أن هذا الشيء مؤلم! هذا الشيء مزعج! وأن هذا الشيء لا يطاق. أرجع إلى بيت أهلي بالهرم، أضع نفسي في السرير، مستدعيا نوما لا يجيء، بينما يتهادى صوت وردة في الراديو من الكشك المجاور للبيت مُغنيا في بهجة:

«غنّوا وحبّوا وقولوا، قولوا معايا يا ناس».

أتقلبُ في الفراش وأردد بصدر ضيق «بس يا وسخة». أنام وأرى ألف حلم مبتور، أصحو لا أذكر منها شيئا. كأني أطفو فوق سطح النوم، أفتحُ عيني لأتذكر أين أنا، في بيتنا من جديد، وصوت وردة يأتي عاليا متبجحا من الكشك، وأنا أردد السؤال المُلح المرير: ما ذنب الأبله الذي ذهب إلى باريس محمولا بسذاجته ليكتشف أنها غارقة إلى أذنيها في ذكرى شخص آخر؟ ذهب به الحب، أو السذاجة، أو الطموح. لو أني قفزت من الشباك الآن لارتطم جسدي بالرصيف وانتهى كل شيء، ولكن كيف؟ كيف يمكن أن ينبثق كل هذا الألم من علاقة لم نتحرك فيها غير خطوتين، ثم أعودُ لأذكر نفسي أن الأمر انتهى وأنه لا بد أن ينتهي!

لقد مسحت رقمها ومنحتها الـ بلوك على الفيسبوك فور عودتي إلى مصر، حتى قبل أن أضع نفسي في التاكسي، وانتهى الأمر. استمتعنا قليلا، أو هكذا أردنا، وانتهى الأمر. الرقم وبروفايل الفيسبوك مقدور عليه، الاتصال مقدور عليه، لكن وجهها المطل من كل شيء، صوتها وهي تقول طليقي، ملامحها وهي لا تستطيع أن تنطق باسمه، فزعها وهي تبعد رسائله عن يدي! أسبوع كامل لا نفعل شيئا سوى الكلام عنه، وحين أقول لها ببساطة في المطعم ونحن نتناول العشاء الذي كان يفترض أن يكون رومانسيا:

ـ يا مارييل، الأمر أبسط من كل تلك التفاصيل، هذا الرجل لم يكن يحبك.

يربدّ وجهها وتتعطل نظرتها الساخرة، كأني غرست في صدرها شوكة، غير أن الشوكة انغرست في صدري أنا مع رؤية كل ذلك. هذا هو الحبّ، عرفت فالزم، فماذا كنت أصنع طيلة الأسبوع المدبب في أعصابي شوكة من نار. نتكلم عنهُ ونتشاجر وننام معا، ثم نتكلم عنهُ ونتشاجر وننام معا إلى ما لانهاية. أي حماقة ذهبت بي إلى هناك، لأشاهد شخصا يتألم بسبب شخص آخر؟ وأقول لنفسي هازئا محاولا السلوى: ماذا كنت تريد! أن تجدها باريسية عذراء لم يمسسها إنس ولا جان. أن تكون أول رجل في حياتها؟ هيهات! ولكن الأمر ليس ذلك، الأمر أن غيابه أقوى من حضوري، وأن ذكراه أوضح من حاضرها معي.

لعلها ما جاءت إلى مصر إلا هربا منه، ولعلها ما دعتني لقضاء العطلة عندها، ولا ظلّت تراسلني كل يوم بهذه الطريقة، إلا سعيا للخروج من هذا المأزق، الذي لم أعلم عنه شيئا حتى وجدته أمامي بلا مقدمات وجها لوجه. فماذا أريد! ومن يدريني أني لست سوى مجرد نزوة عابرة

للتسلي عن وجع مُلحّ لا شفاء منه! وهل بوسعنا أن نحب مرتين؟ هل يمكنها أن تحبني كما أحبته؟

لماذا أفكر في الأمر، وقد قطعت علاقتي بها ومسحت رقمها وانتهى الأمر. أيّ عدلٍ أن أجدني متورطا في معركة غير متكافئة من البداية. كيف أحارب ذكرى شخص عاشت معه سنوات من قبلي، وهو مقيمٌ وأنا طارئ، هو فرنسي وأنا مصري. أحاول التسرية عن نفسي وأنزل للقاء الأصدقاء، فيهتفُ بي شاعر تافه على مقهى غزال:

- خير يا فنان، ذهبت لباريس ورجعت لنا مكتئبا؟ هل ضحكت عليك نساء فرنسا؟

أنظر له بتقزز، أنت أتفه حتى من أنشر لك أو أنصبَ عليك. أحاول السيطرة على أعصابي لكن أجدني في لحظة أمسك به من رقبته حتى يفصل بيننا أصحابنا من الجالسين على المقهى.

أغادر المقهى وأقول لنفسي: إن الذوبان في هذه الجموع التافهة قد يكون عزاء ومهربا، محاولة العودة للجذور والأصالة؛ مصر الشوارع، مصر الحواري، مصر الناس الطيبين! ربما يخفف عني هذا شيئا مما أعانيه.

أفكر في أن أشغل نفسي بأي شيء عما أنا فيه، ليكن الاهتمام بالسياسة، بالثورة، من باب تجربة شيء جديد. لم أشارك تقريبا في أي حدث من أحداثها، وكنت أنزل في الأيام الهادئة الأولى بصحبة ماريبل لرغبتها في الفرجة لا أكثر. أنزل وأتفرج. تحملني قدماي، بلا وعي، لمكان لقائنا الأول، أجدني أمام ديوان الزمالك، ثم إلى تلك العمارة، حيث شقتها في أحمد حشمت، حيث القبلة الأولى، حيث دخل آدم جنته ليصفعه القدر على قفاه. أتمشى راجعا في اتجاه ساقية الصاوي، أتذكر الندوات

والحفلات أيام الثانوية العامة والجامعة، أبي واعتراضه، ألاحظ أنني صرت سنتمنتاليًا بشكل مبالغ فيه فأشعر بالتقزز من نفسي.

وأنا أصعد على رجليّ كوبري ١٥ مايو يستلفت انتباهي من أعلى زحام وضجيج وتشابكات بين مواطنين شرفاء ورجال الأمن، فتنغلق دائرة الازدراء على نفسها. ستُعرف هذه المشاجرة لاحقا بـ أحداث البالون، ولكن العلم الحديث، لسوء الحظ، لم يكتشف بعدُ طريقة تمكننا من هزيمة الموت أو علم الغيب أو تفادي قصص الحب المزعجة. أقفُ أتفرج مع المتفرجين من فوق الكوبري، والذين أخذ بعضهم، ولا بد أن له منطقا ما، في رفع الموبايلات ليقوم بتصوير ما يحدث. أرجع إلى بيتنا وآكل ما تركته أمي على الطاولة في الصالة دون تسخين. تصورت هكذا أنني فررت، وأنني أنهيتُ العلاقة، فتدبر.

## ٣٣

ولو أنك تأملت لوجدت النوتة الجلدية، وقد ظننت أن واحدًا من جرابيع مسكن اللاجئين قد سرقها، بما فيها من خواطر وملاحظات موسيقية. أقيم الدنيا ولا أقعدها، أبحث عنها كالمجنون؛ لو ضاعت لما استطعت استعادة شيء مما فيها. أخيرا، أجدها على الطاولة كما تركتها، فكيف لم ألاحظها! وحين أرفعها لأقرأ ما فيها في الظلام، كان سليمان قد انصرف!

أربعة أفلام بطلها الرئيس هو صاحبنا وموسيقاه. الفيلم الرابع فيلم لا يذكره أحد هو فيلم ٥ شارع الحبايب، وبعيدا عن محاولة جعل محمد عبدالمطلب يغني على موسيقى الجيرك، مرتديا باروكة، في أغنية يابو قلب دهب! فإن موسيقى الفيلم، وتحديدا أغنية نقش الحنة هي رسالة امتنان من

الفتى لصاحبيه الأثيرين، محمود الشريف وطِلب؛ العودة لتقاليد التخت، الجملة الفلكلورية، تغيير الإيقاع والجُمل الموسيقية القصيرة، مثلا جملة «شاريين، وليه انتم بايعين»، ثم المزج بين الناي والإيقاع في «وحياة الحب اللي ما بيننا»، هذا أسلوب محمود الشريف بامتياز، المنسيّ، صاحب ودّع هواك، ورمضان جانا، وما بيسألش عليا أبدا، إلى آخر القائمة المفعمة بالشجن.

أوائل ١٩٧٠ يدور الكلام حول موهبة صغيرة السن تدرس في الكونسرفتوار، يستمع لها الأخوان رحباني في أحد حفلات المعهد ويتحمسون لها. يطلبون منها أن تلحق بهم في لبنان لتنضم إلى فرقتهم، لكنها تفضل مواصلة الدراسة في المعهد! وفي خضم الهوس الناصري بصناعة معادل مصري لفيروز، والتي حققت الشيء الذي لم يكن مسموحا به، أن يحوز صوت غير مصري يغني باللهجة الشامية كل هذا النجاح وكل هذه الجماهيرية، تبدأ الحماسة لصوت عفاف راضي. يصر الجميع على تجاوز جميع المشاكل المتعلقة بشخصيتها الانسحابية الكارهة للنجاح، ينظم لها رجاء النقاش حفلا في مجلة الكواكب يدعو له أغلب الملحنين، الموجي وكمال الطويل وفريد الأطرش. يستمعون لها ويبتسمون، يثنون على صوتها المتميز ويقولون عبارات دبلوماسية يُفهم منها أن صوتها الأوبرالي الحاد لا يصلح لتقديم أغان شرقية طربية. يرفع الفتى حاجبه في استهانة، يطفئ سيجارته ويأخذها من يدها إلى مكتبه:

ـ الملحنون قالوا إنك لا تصلحين؟

ـ أيوة.

ـ كلهم؟

ـ كلهم!

ـ طب تعالي، اقعدي هنا؛ قولي ورايا.

وتبدأ تردد وراءه:

«ردّوا السلام/ إلا السلام ده غالي/ ردوا السلام وما تطلعوش في العالي...

يا سلام».

يشرح لي سليمان بعد ذلك، مستفيضا، أن وراء جميع ألحانه لعفاف راضي فكرة واحدة ذكية لدرجة مرعبة: استخدام مهارات صوتها الأوبرالية بشكل شعبي، لا تعرف كيف خطرت هذه الفكرة في دماغه الملعون. يستعيد الفتى خبرته في موسيقى الأفراح، مشواره الذي بدأه وسط العوالم، ورغم أنف قواعد الدنيا والمنطق، تتحول عفاف راضي لنجمة تردد أغانيها مصر جميعها. في جميع ألحان بليغ لعفاف يظهر فيها ولعه بشيئين رئيسين، غناء المجاميع واستخدام طبقات مرتفعة، حادة، للغناء. كل جمل ردوا السلام تقريبا يكررها الكورال من الطبقة الغليظة، بينما تغنيها عفاف من طبقته المفضلة، تلك الطبقة العالية الشبيهة بالصراخ. إن جملة «والنبي ده حرام» أو «عطاشا» أو «تساهيل» أوضح مثال، هذا صراخ رسمي لا شبهة فيه. صراخ لا تعرف أبدا كيف لم يجنح للنشاز، فتسمعه وتستمتع به:

ـ اسمع وافهم يا مصري، هذه، بدون أدنى مبالغة، معجزة!

يواصل فرك الحشيش بمزاج على التبغ، وهو يغني بصوته الأجش، ويضحك. يناولني السيجارة:

ـ قل لي يا مصري، من أين تأتي بهذه المعلومات...

ـ أي معلومات؟

ـ عن بليغ، حياته، الحواديت التي تكتبها عنه أو هذه الخواطر عن الموسيقى..

ـ بخلاف كلامنا الموسيقيّ معا، من الإنترنت، من الكتب، من دماغي.

ـ وتظن هذا كفاية؟

ـ يعني، أظن ذلك، ماذا تقصد؟!

ـ لا، أبدا.

ويناولني السيجارة الثانية، وكأنه يريد أن يقول شيئا ما، ويتحرج من قوله...

## ٣٤

واعلم أن وردة سافرت ذلك العام؛ تتزوج من ضابط جزائري لا يعنينا كثيرا في هذه الحكاية. أما صاحبنا فقد أخذ بعدها بأسابيع ـ ومع الانتهاء من تلحين «كل ليلة وكل يوم» لأم كلثوم ـ يشتغلُ على مسرحية مهر العروسة مع رفيق عمره عبدالرحمن الخميسي. تقول الأسطورة إن ألحان هذه المسرحية أفضل ما لحّن في حياته، ولكنك لن تجد لها أي نسخة في أي مكان، فكبّر دماغك كما كبرَ صاحبُنا دماغه وانطلقَ للمعمورة ليتفرغ تماما للتلحين ولمزاجه. ثم أرهِف السمع لرنين الهاتف في ليلة من ليالي صيف ١٩٦٣، يرفع عبدالرحمن السماعة:

ـ دبّرني يا وزير.

ـ الساعة الثانية صباحا، فماذا تريد جلالتك؟

ـ أريد أن أتزوج.

ـ طيب الصباح رباح.

ـ سأتزوج الليلة.

ـ بدأنا جنان آخر الليل.

وبعد نصف ساعة كان عبدالرحمن ومعه صديقهما حسني عبدالعزيز، المخرج الإذاعي، في بيت بليغ بالزمالك لمحاولة فهم ما يحدث:

ـ ومن التي ستتزوجها يا حضرة شهريار أفندي.

ـ آمال.

ـ آمال؟

ـ أمنية.

يشير حسني لـ عبدالرحمن بأصابعه علامة الجنون، فيقول بليغ بصبر نافد:

ـ اسمها آمال لكنهم ينادونها أمنية!

يتذكرها الخميسي فورا:

ـ أمنية طحيمر؟ البنت التي قابلتها في المعمورة، أثناء بروفات مهر العروسة.

ـ هي بعينها.

ـ يا جدع حرام عليك، البنت غلبانة جدا. ابعد عنها الله لا يسيئك.

ـ وأنا يعني فرانكشتاين؟!

ـ أبدا! العفو لا سمح الله!

الفتى صاحب نظرية داوِ الهوى بهوى، خدم الداء الدوا. يتصل بالفتاة المسكينة ويوقظها من النوم، وفي الخامسة صباحا يكون ثلاثتهم، ومعهم فاتن زوجة حسني عبدالعزيز، في بيت أمنية وخالتها، ينتظرون المأذون الشيخ حسن، مأذون حي عابدين الذي يأتي، وهو بين اليقظة والنوم، لا يصدق هذا الذي يحدث. يوقّع الشهود على العقد، والمهر خمسون قرشا. بعد عقد القران يشعر بأنه هدأ بالا، يقبّل عروسه الجديدة، وينطلق لبيته لينام. يغلق الباب وراءه، فتنظر لها خالتها مُؤنبة:

ـ هذا تهريج لا يليق.

وما على العاشق ملام؛ الفتاة الهائمة ترقص طربا من فرحتها، بينما تغمغم خالتها وهي تطفئ النور:

ـ ارقصي يا هبلة، والله لن تعرفي طعم النوم أبدا.

عرفت فيما عرفت أن الزيجة لم تدم غير شهرين. طلقا وعادا ثم طلقا ثانية. وعرفت فيما عرفت أن الفتاة كانت مثل كثيرات أدركهنّ الهوس به، منهنّ من نجا ومنهنّ من هلك. وكان صوتٌ خافتٌ ينبعث بأغنية غامضة لم أسمعها من قبل، كأنها مناجاة عليل لنفسه:

«أنا كنت أحبك مانكرشِي/

الذنب دا منك مش مني/

أنا كنت أحبك وأميل لك/

دلوقت قليل لما انظر لك».

ولم أفهم شيئا. ومن المثير للحزن والسخرية معا أن الفهم غير ضروري، وأنه يمكن للحكاية أن تواصل مسيرها من دونه على كل حال!

وقفت أرقب حادثة البالون من فوق كوبري ١٥ مايو، والتي كانت دليلا على ما أعرفه بالفعل؛ أننا بلا ثمن، شهداء فعليون أو محتملون، فلا شيء أكثر مسخرة من حفل يقام لتكريم الشهداء فيقع فيه خمسون شهيدا، أو قتيلا، حسب ذوقك واقتناعاتك. يتأكدُ لديّ ما أدركته سابقا، أن الحال في مصر يمضي من سيئ لأسوأ، ولا معنى لمواصلة الاهتمام بالثورة، أو حتى بعملي في الصحافة والترجمة؛ أسلّمُ أني أحنّ إليها، وها أنذا أجدُ مبررا واقعيا لمواصلة هذا الحنين، من دون أن أشعر بالحرج من نفسي.

استشرتُ صاحبا كنت أعرف أنه سيقول لي ما أريد سماعه:

ـ أنت مجنون يا بني، هذه البتّ الفرنسية فرصة من السماء.

ذهبت للبيت وقمت بإضافتها من جديد على الفيسبوك، وقلت في عقل بالي، أنا المستفيد على كل حال. سترتب لي دعوة لفرنسا وإقامة لديها ـ أكل وشرب ونطّ مجانا، وتدريب يومي يوميا على اللغة الفرنسية، وبوابة للتعرف على المجتمع هناك، وإن كان هناك هامشٌ للربح فلا مجال للخسارة. وقلت في عقل بالي: يمكن اعتبارها مرحلة مؤقتة، ويمكن اعتبارها علاقة عابرة، ويمكن اعتبارها أي شيء. وقلتُ في عقل بالي إن الغيرة البلهاء يمكن السيطرة عليها، بل ويمكن ترويضها باعتبارها تدريبا نفسيا أحتاج إليه في أول طريق النساء.

ومثل السكتة اللطيفة قبل قول عبدالحليم، زوّق يا نسيم خطاوينا، مدّ الصبي الأبله، والذي ظن أنه قد أحاط بكل شيء علما، خطوته إليها، بين الحذر واللهفة، فليته ما كان، وليته ما فعل! من منّا يمكنه أن يزعم أنه عليمٌ بدوافعه الحقيقية؟ بعثتُ لها رسالة مقتضبة «هالو» فردّت بعد دقيقتين بـ Smiley Face. أسألها ما إذا كان بإمكاننا أن نتحادث على سكايب مساء،

فترد بنفس الرد ولا أفهم. وبعد نصف ساعة تعطف وتكتبُ أنها سترجع متأخرة، لكن يمكننا أن نتحدث طبعا، إذا كنتُ لا أزال مستيقظا.

وأنا أعلم، وهي تعلم أني سأنتظر؛ كل ساعة وكل ليلة وكل يوم، بعد ما اطّمن عليك، حيجيني نوم يا حبيبي! أشعر بنشاط طارئ فأجلس لأكتب وأترجم وأنشر Postـات على الفيسبوك، بوستات العائد مبتهجا من أوروبا. إنك إذا سافرت إلى أوروبا فلا بد أن ترجع مبتهجا منبهرا! إنهم ـ في مصر ـ منسحقون، بطبيعة الحال، والكراهية منتشرة كالهواء. لو تأملت بروفايلات أبناء جيلنا الجميل، لوجدت مجموعة فئران حبيسة في قفص، تجري وتلهث وترتطم بالسلك القذر فتصرخ في هستيريا؛ الجميع يسخر من الجميع بوحشية وقسوة تليق بمحابيس يريدون التهام بعضهم البعض. يريدون سماع كلام معين ـ فاكتُب عن الشوارع الواسعة النظيفة، الباصات التي لا تتأخر، أو الباص الذي تأخر ثلاث دقائق فانهار الجميع من الصدمة! تكلم عن البنات الحلوة في الفساتين، عن التقدير وعن احترام الإنسان، فإن ذلك مما يحصد اللايكات والشير.

لقد ذهبتَ لباريس ورجعت فاحكِ عن معرض الكتاب، عن الكتب المبهرة العظيمة المدهشة التي ينبغي أن تترجم، عن مهرجان كان. انشُر ما التقطته من صور في مهرجان كان ـ حتى وإن كنت تذكر مدى تعاستك لحظة التقاط تلك الصور. العالقون في البلاعة يريدون أن يسمعوا منك ذلك فقله! قُله وحاول أن تستمتع، ولا تتحدث عما يوجعك، ولا عما ضايقك، فإن ذلك لا يعني أحدا، وإن ذلك مما لا يُؤبه له!!

في انتظاري الطويل لها ينخزني الشكّ والضيق؛ ما هذا الاستخفاف؟ لو اتصَلَت هي لكنتُ هرعتُ فورا لمحادثتها، هل لو اتصلَ بها طليقُها...! ثم أذكرُني بما اتفقت عليه مع نفسي من السيطرة على عواطفي، ولو قليلا،

فأحاول التركيز فيما أفعل، منتظرا أن تتعطف الباريسية هانم وتتصل حين تعود.

يمرّ الوقت، أتأرجح بين الملل والشعور بالهوان من الانتظار والشوق لرؤيتها والغضب. يمر الوقت ولا أجد ما أصف به كيف تضطرب في الصدر في اللحظة الواحدة كل ألوان الطيف بهذا الإيقاع اللاهث، أشغل أغنية لمهادنة الوقت، فأكتشف أنه ليس هناك أبلغ مما قالته شابّة مترعةٌ بالعنفوان في السبعين من العمر، استعانت بطفل عبقري منحها سر النغمة المبتهجة، فوقفت على المسرح لتلخّص الأمور ببلاغة، قائلة:

«يا ترى، يا واحشني، بتفكر في مين؟!».

وتغمز لي فلا أعرف هل الغمزة شماتة أم مواساة، أرفع عيني عن شاشة اللاب توب، وأبسطُ يدي مُسلما. بالأمر ثم يجيء، أخيرا، رنين الاسكايب مصحوبا باسمها فترتد الروح في الجسد الهامد. أحاول التماسك لكن يدي تسبقني لإجابتها. طار بيّا الأمل بجناحه، ولمست النجوم ـ ساذجا حالما ـ بإيديّا. تطالعني العينان الخضراوان الصافيتان، فأدرك أني غارقٌ في سحر ابتسامة ساحرة لا تمنح بقدر ما تمنع، فتدبّر!

## ٣٦

ولو أنك تأملت جلستي، مع موسيقار مغربي مُسنّ، في شقة حقيرة على أطراف باريس بينما يتردد صوت عفاف راضي، ردوا السلام، لأدركت مدى بؤس اللحظة التي أمرّ بها. يوقفها ويشغل بدلا منها الحب كله، وهذا فألٌ جيد؛ الأغنية التي افتتحت بها أم كلثوم عام ١٩٧١. تتهادى المقدمة الموسيقية ونحن نلف السجائر في صمت.

يومض السؤال الخافت في ذهني من آن لآخر: ماذا أفعل هنا؟ من

هذا الرجل أصلا؟ لماذا أريد كتابة هذه الرواية، ما هذا الهراء: أتعلم الموسيقى وأدون ملاحظات موسيقية في نوتة جلدية جربانة! تدهمني موجة كآبة غامرة؛ كل شيء بدأ برؤية الجميلة الملعونة في المركز، وها أنا ذا أفكر فيها ثانيا وثالثا، وكثيرون يتحدثون عن تجاوز التجارب العاطفية ولعله شيء مثل وجود الله، نُواسي أنفسنا بالكلام عنه، حتى وإن كانت الأدلة كلها تشير لعدم وجوده. كيف حدث أن كل شيء يذكرني بها، كل شارع، كل كلمة فرنسية، كل كلمة عربية حاولت أن أعلمها إياها، كل أغنية سمعتها معها، أو سمعتها في لحظة من تطور علاقتنا المتوترة، كل شارع أذكر بالضبط ما قيل فيه، بأي نبرة صوت. رنة صوت الإسكايب، انتظاري لها مساءً وأنا في مصر. إنني حتى لا أذكر كيف كنت ولا كيف كان شكلي قبل أن نلتقي.

يناولني سليمان السيجارة وعلى وجهه ذات التعبير القلق المرتبك:

ـ ماذا تريد أن تقول يا شيخ سليمان؟!

ـ مع احترامي لمجهودك، لكن، ألا تحتاج منك هذه الرواية بحثا أفضل من ذلك؟

ـ بمعنى؟!

ـ مثلا، مقابلة الأشخاص الذين عرفوه، عملوا معه، قراءة الصحف، أوراقه الخاصة أو رسائله...

ـ تريد مني مطاردة الأسطورة، والبحث عن الحقيقة؟!

ـ لعلك لو بحثت لوجدت شيئا...

ـ ماذا سأجدُ يعني! يا راجل يا طيب، كبّر دماغك!

ـ لا أعرف. من المؤكد أنك لو بحثت لوجدت ما يمكن أن يفيدك.

ـ وكيف أبحث وأنا هنا، في آخر الدنيا؟!

ـ ثمة طريقة ما للوصول.

ـ حتى لو سلمنا بصحة كلامك، وأنّ هناك شيئا ما ينبغي أن أسعى إليه بحثا في سيرة الرجل، لن تعدو كونها مجرد آراء لأصحابها. ذكريات، أو ذكريات للذكريات. كيف نمسك شيئا ما ونقول بيقين، هذا هو بليغ، وهذا ما يريد قوله.

ثم أطفأت السيجارة، والفكرة تتضح وأنا أعبر عنها:

ـ لدينا الإنترنت، لدينا الخيال ـ وهو أقوى من المعرفة، ثم لدينا العقل، والذي هو أهم من كل ذلك.

ولم يبدُ مقتنعا برأيي، لكنه أخذ يغمغم:

ـ ثمة طريقة للوصول، لكن أنت أدرى بشغلك.

ويستدير للبيانو في حماس، هيا يا بطل:

ـ هل تعرف أننا كنا ندرس هذه المقدمة الموسيقية، مقدمة الحب كله، في المعهد باعتبارها أصعب شيء يمكن تحليله وفهمه فيما يخص الموسيقى العربية، ما اسمُ هذه المقدمة؟

ـ إدليب من الوتريات.

ـ يا سلام، وما هو الإدليب؟

ـ عزف حر من الوتريات بدون إيقاع.

ـ يا عيني، والله طمر فيك يا مصري! وما اسم المقام؟

أردده بيني وبين نفسي مرتين، إنه يبدأ من علامة السي:

ـ راست.

ـ الله يفتح عليك، واعذرني فأنا لا أعرف للعبارة بديلا عقلانيا يناسب إلحادك العقلاني الجميل.

ثم يضحك في حبور.

ـ أنت لا تأخذني بجدية يا سليمان!

ـ العفو، الحق يقال، لم أقابل على طول ما درّست شخصا تعلم الموسيقى بسرعة كما فعلت أنت.

يستلفت انتباهي شيء ما، فأسأل:

ـ ما اسم هذا الإيقاع في أول المقدمة!

يربدّ وجهه، يشرد قليلا، ولعل المسكين أفرط في التدخين:

ـ هذا صعب عليك، أنت ـ مع احترامي ـ لا تزال مبتدئا. هذا إيقاع يدعى الظرافات؛ ميزانه ١٣ / ٨، بمعنى أن كل مازورتين فيها ١٣ نقرة إيقاعية نقرة. هذا إيقاع غريب نادر الاستعمال، لم يستعمله قبل صاحبنا سوى سيد درويش.

يبدأ صولو الجيتار المميز، ذلك الذي تحفظه كل أذن لكثرة ما يستخدم في الإعلانات وفواصل برامج الراديو. بينما سليمان يحرك أصابعه مع الموسيقى كأنه يعزف على الهواء، ثم يصيح بصوته العالي فيفزعني:

ـ واسقيني واملا، واسقيني تاني، يا عيني على تحويلة الهُزام. الله يا ست. الله يرحمك يا راجل يا طيب».

ويبدأ يرطن بالفرنسية ثانية. آه يا بن المرووشة. كأنه مجذوب في حلقة ذكر، يحرك رأسه يمينا ويسارا منشدا:

«لحى الله أقواما يقولون إننا/ وجدنا طوال الدهر للحب شافيا
ولم يُنسني ليلى افتقارٌ ولا غِنى/ ولا توبةٌ حتى احتضنت السواريا»
ولا أعلق، غير أني أقول لنفسي، كأنّ الملعون يقرأ ما يدور ببالي...

## ٣٧

واعلم أنه بعد طلاقه من أمنية طحيمر، يدرك صاحبنا الحقيقة التي سمعها من كثيرين من قبل: أنه لم يُخلق للزواج. يدركها بنفسه ويلمسها بيديه ويطمئن إليها. يحدث أن يحب ويحدث أن يقترب من حافة البئر من جديد، ولكنه قبل أن يمد كفه ليشرب يتذكر ما جرى ويستعيد عقله ويسارع بالفرار! كم من الوقت كان قد مضى على زواجه الانفعالي وطلاقه الدمويّ من أمنية؟ عام أو بعض عام. وما يلبث أن يصاب بالجنون ثانية حين يدركه العطر إذ يفوح من خلف أذن سامية جمال. يُعرّفه عليها محرم فؤاد وزوجته في إحدى الحفلات فيقترب منها بحذر. يستخفه الشعور بالحب من جديد بعد أن يخرج معها مرتين. وكعادته دوما، وهو يحيطها بذراعه، ينقر بأصابعه على الكتف الدقيق وهو يدندن لحنا غامضا يرن في أذنه، فتقول له برقة:

ـ لحن جديد لأم كلثوم؟

ثم تضيف وهي تستكمل حضورها الأنثوي:

ـ لا تدندن هذه الألحان أمام الناس؛ ربما سُرقت. لا بد أن تسجلها أولا في الشهر العقاري.

يتأثر بتلك الرعاية الأنثوية، ويتقدم في علاقته بها خطوة، ثم يرتبك. تدرك ارتباكه فتقول بوضوح:

ـ أريد أن أتزوج.

وتفزعه الكلمة، يتراجع، وحين يتراجع عن تراجعه، ويعود يتصل بها هامسا بكلمة الحب، فتجيبه في سخرية جريحة، مستخدمة أغنيته هُو:

ـ حب إيه؟

وتضع السماعة مغلقة الاتصال.

يتكرر ذلك من بعدها مع إش إش، ابنة محمد عبدالوهاب. غير أنه حين يجد نفسه متورطا، فجأة، في صالون البيت مع أخيه مرسي وصديقه عبدالوهاب محمد، ولم يبق إلا أن يفاتح الموسيقار الكبير في الأمر، ينعقد لسانه ولا يتكلم. يخرج من موضوع ويدخل في موضوع! وبعد أن تنتهي المقابلة يخرجون جميعا فيهتف فيه أخوه مرسي:

ـ الله يكسفك. لماذا لم تتكلم وتفاتحه في طلب يد ابنته؟

فيهز كتفيه ولا يجيب؛ كلما أحسّ بالباب على وشك الانغلاق ارتعد، وفر هاربا!

يسافر إلى بيروت، ويعود، ويلحن، ويلهو، وينام ويصحو، ويتصل بصباح ذات مرة ليجدها غاضبة بلا مبرر:

ـ أين أنت يا ملعون!

وينظر حوله فيجد زنوجا يرقصون ونسوة سوداوات يقدمن له الشاي، ويقول في براءة:

ـ أنا في الحبشة!

فتصيح فيه بين الغيظ والضحك:

ـ حبشة؟ ألم نتفق على الزواج؟

وهو يعدُ الجميلات بالزواج كما يسكب الألحان في سهولة، ويتهرب منه كما ينسى ولاعته ومفاتيحه. أجمل من الحب الوقوع في الحب، وأجمل من الاثنين تلك الطقوس المُصاحبة للبدايات، هي بهجة الدنيا وزينتها.

يسافر إلى بيروت، وإلى أوروبا، وإلى لندن بصحبة عمر الشريف وعبدالحليم. إنه يصنع على هامش حياته الصاخبة أهم الألحان التي تؤرخ لهزيمة ١٩٦٧ في وجدان المصريين. ومن المثير للتأمل أن حفلة حليم الشهيرة في لندن، والتي سيغني فيها فدائي والمسيح وعدّى النهار، تتخذ مكانها جوار صورة ثلاثتهم وهم يلعبون البوكر وبليغ يُحسّب لهم نقاط اللعب في الورق، وتستقر جوارها الاتهامات التي كانت توجه لعبدالحليم وقتها بتهريب العملة، والتي كانت من القوة بحيث أدت لظهوره في التلفزيون لينفي تلك الاتهامات.

إن تاريخ وجدان الشعوب يصنعه الالتقاء الساحر بين انفلات الفنانين من التقاليد، وتسامح السلطة ـ ولو لحظيا ـ مع هذا الانفلات. إن تاريخ الفن، وتاريخ وجدان الشعوب، هو تاريخ أفكار المزاج الطارئة في بال الملوك، كما سيتكشّف في المشهد التالي!

## ٣٨

هل تعنيك التفاصيل؟ هل تعنيك التواريخ؟ نعود نتكلم، حتى تصبح مكالمة الإسكايب اليومية أفيونة مقدسة لا غنى عنها. أقول لنفسي إن الفرنسية واقعةٌ في شباكي لا ريب. نبدأ ما يُعرف في كتاب الشوق بالـ Long distance Relationship. طوّحنا يا هوى طوّحنا، ولولا أني كنت لا أزال في بيت أهلي لتطور الأمر لأكثر من تلك التأوهات المكتومة والمزاح المكشوف بين جسدين اختبرا بعضهما البعض! الأمور في مصر

تتأزم بشكل مؤسف ويصير السؤال أكثر إلحاحا: كيف يمكن الوصول لباريس ثانية؟ نتذكر أنني خريج كلية الحقوق قسم اللغة الفرنسية فتقدم لي في الجامعة لتحضير الماجستير، وتكتب إقرارا بضمان استضافتي في محل إقامتها. تدفع هي مصاريف التقديم، وننتظر.

يعلن المجلس الأعلى للقوات المسلحة عن انتخابات مؤكدة آخر عام ٢٠١١ بينما يحصل اقتراحي عن كتابة رواية عن بليغ حمدي وأعوامه في باريس، والذي قامت هي بكتابته، على منحة المركز القومي الفرنسي. تتصل بي خصيصا، بمكالمة دولية لتبلغني بالخبر من هناك.

هل تعنيك التفاصيل؟ هل تعنيك التواريخ؟ توثيق الشهادات والتصوير والختم وتصديق الخارجية ومدام فاطمة آخر مكتب على اليمين وموعد السفارة؟ انتظار دعوة ماربيل للحصول على التأشيرة؟ حبيبي؟ متى ستأتي يا حبيبي؟ سأموت من دون أن أعرف جوابا. هل يعقل أن تكون قد بذلت كل هذا المجهود لا لشيء إلا لنزوة طارئة؟ وإلى أي مدى يسيطر هرمون الإستروجين على قراراتنا المصيرية، وعلى حركة القضاء والقدر والكواكب السيّارة؟

هل تعنيك التفاصيل، أو الحقيقة؟ فاعلم أن مجموعة من المعتصمين في شارع قصر العيني كانت تلعب كرة القدم، ودخلت الكرة مقر مجلس الوزراء:

«الكورة يا كابتن».

«عيب يا بابا».

كلمة من هنا، وكلمة من هناك، يتطور الأمر لحادث مؤسف سيحمل بعد ذلك اسم أحداث مجلس الوزراء، يموت فيه، كما اعتدنا، عدة أشخاص. وهذا خبر مؤسفٌ وحزين لا قيمة له، أما الخبر السعيد فهو أني كنت لحظتها في الطائرة، فوق، أحلق هاربا إلى حضن المحبوبة

القاسية الغامضة. أصل إلى باريس هذه المرة وقد صرتُ خبيرا؛ أعرف كيف آخذ الباص من المطار لمحطة المترو ـ من دون أن أدفع الـ ١٠ يورو المطلوبة؛ فلا تفتيش يتم عليه. ثم أستقل الخط الرابع من المترو إلى المحطة الموعودة. يرن الصوت الأليف مرتبن مذكرا باسم المحطة ـ دونفير روشرو، وحين أخرج أجدها وراء الحاجز المعدني للمحطة الواسعة، مع رجل عجوز رثّ الثياب. تقبّلني من وراء قضبان الحاجز الحديدي، تفتح لي بوابة المترو بالكارت الخاص بها، وحين أعبر إليها تقول معاتبةً:

ـ إنني أنتظرك منذ ساعة وأكثر، ولولا جورج لكنتُ متّ من الملل.

أطالع جورج، الذي يحييني بابتسامة وتحريك قبعته. واحدٌ من متشردي باريس، وهي مغرمة بالوقوف معهم ومحادثتهم! يرتدي قبعة قذرة ومعطفا مزينا بأوراق الجرائد وحذاء عريضا مثل شارلي شابلن، يقف معها وينشدان معا أبياتا ما من الشعر، تقول لي إنها لـ أبولينير.

أنظر له باسما، وأدرك أني رأيته قبل ذلك، رأيته في طريقي أول مرة للمركز الفرنسي حين صاح في وجهي «أنا الحب فشخني ورب العرش نجاني». ورأيته مع شعاع الضوء يتسلل في صورة سيدنا الخضر، محذرا، أو شامتا. يضع يده على رأسينا معا كأنه يتلو تعويذة ما. أسألها ماذا يفعل، فتهمس بشيء ما ولا أفهم. ثم يغمز لي بعينه!

وأفكر في أنه إذا كان الطريق طويلا فإني قد مشيته، ووصلت إلى باريس، فعلا، وأنه إذا كنتُ قد لسعتُ فعلا، فقشطة يعني، وقلت لنفسي إني غادرت مصر هربا من عبث لا سبيل للخلاص منه، وأن فصلا جديدا ومفعما بالأمل من حياتي يبدأ الآن، فتدبّر!

ولو أنك تأملت في الحفلات المتوافرة لأغنية الحب كله، لأدركت أن عصرا كاملا يذوي. حدّث أينشتين قال، إن النجوم تموت ولكن ضوءها يسافر إلينا عبر ملايين السنين. والستّ، الإدارجية صاحبة المزاج والسلطة، تُغير في كلمات «طريق حياتي/ مشيته قبلك/ في ليل طويل. لا حد جنبي/ يحس بيا/ ولا طيف جميل»، وتقول بدلا منها «لا حد جنبي/ ناخد وندّي/ ولا طيف جميل». هذه تفاريدُ كلثومية تُخبّر عن صاحبتها، الذهن اليقظ والتقاط الإفيه والمزاج الشعبي السوقيّ، بخلاف الصورة الأرستقراطية التي تم تصديرها لنا!

لكنّ الست نفسها تنشّز في مطلع الحب كله في إحدى الحفلات، تحديدا حفلة يونيو ١٩٧١، وتنسى الكلمات في مقطع «شعر ايه/ ده الكلام اللي في عينيك/ خلّى أحلى كلام يغير»! فلا تسعفها الذاكرة ولا البديهة التي كانت دوما حاضرة. ترتبك أكثر من مرة حتى يصفق لها الجمهور تشجيعا وتعاطفا، ليؤكد لنا أن أم كلثوم، مثلها مثل كل شيء آخر، العمر واللحظات السعيدة والعلاقات العاطفية بوعودها الخلابة والخلايا الدماغية الرمادية ونجوم السماء اللامعة، لها نهاية.

الستّ تستند على الفتى، وهي تصعد سلم الإذاعة صامتةً. تجلس وهي تئن من الوجع، لكنها ستجري البروفة على كل حال. بعد أن اكتمل لحنُ ما سيكون آخر أغنية لها «حكم علينا الهوى» يميلُ الفتى عليها، أثناء البروفات. يحدثها عن فكرته في استخدام الكورال، كما هي عادته المفضلة، في هذه الأغنية، وترفع له عينيها الكليلتين، تطالعه بوجهها المنهك، ولا يبدو أنها قادرة على الجدال ولا الاعتراض، فتهز رأسها موافقة.

إن معزوفة صولو العود، تليها مقطوعة الكمان، والتي تتردد قبل الغناء، تسجل رثاء كاملا لزمن مليء بالكلام الكبير. والفتى الذي كان شاهدا على عصر البلاهة الكبير بشعاراته ووزعيقه المثير للصداع، يقف في هدوء شاهدا انحساره، ويسجل بذلك اللحن الحزين شعوره بالإشفاق، وربما بالحسرة، على أصحابه، رُفقة ذلك الزمن وهم يودعون. وآه يا ليل آه ع الوعد والمقسوم، ثم آهات المجموعة، الآهات الرجالي تجاوبها الآهات الحريمي متبوعة بقفلة لجملة أسيانة من القانون والناي؛ المختصر المفيد للتخت الشرقي، رمز العصر المنحسر الذي تمثله الستّ، بألف لام التعريف. هذا وداعٌ لذلك الطموح الكلثومي الثقيل، والذي كان يضطر الفتى للعمل بتلك الجدية والإتقان. سيحافظ على شيء منه مع عبدالحليم، والذي لن يمكث طويلا وسيرحل هو ايضا بعدها بأربعة أعوام وأغنيتين. يرحل الاثنان ويُفسحان المجال ليستعيد صاحبنا الشخص المُستخف القابع فيه، الموهوب الذي يعمل، وبرغم ضخامة موهبته، بمنطق السبوبة، مثل طالب لا يستذكر دوسه إلا متضررا، آخر يوم قبل الامتحان.

وينبعث الصوت من السماعات الملحقة باللاب توب:

«وآه يا سلام/

يا سلام سلّم يا سلام/

خلانا من قلبنا، تا تا تا تم/

بالفرحة نتكلم...».

ـ سليمان، أنت تبكي؟

يمسحُ الرجل الطيب عينيه الدامعتين وهو يبتسم!

ـ هل قلت شيئا ضايقك، أنا آسف يا صديقي!

ـ لا أبدا. بالعكس. بالعكس تماما.

ويتدارك اللحظة الطارئة مستعيدا نفسه، يجلس للبيانو، ويشغل موعود على اللاب توب:

ـ ها يا بطل، قل لي ماذا تسمع في هذه المقدمة الموسيقية المطولة.

ألقي عليه نظرة طويلة من جديد، وكأني أراه لأول مرة...

## ٤٠

واعلم أنّ مدار الأمر هو مشيئة الملوك! عام ١٩٧٢ كانت عشر سنوات قد مرت على استقلال الجزائر. يقررُ الرئيس هواري بومدين أن تقام الأفراح والليالي الملاح، احتفالا بهذه المناسبة المجيدة، وأن تحييها المطربة المحترفة، التي غنت في مصر قديما، النجمة وردة، والتي عرفنا في الفصل الـ٣١ أن أسرتها عادت بها من مصر للجزائر، وأنها تزوجت واعتزلت. لكن هل يعني هذا في مشيئة الملوك شيئا؟! يستدعي الرئيس مستشاره العسكري، زوج الست، ويخبره برغبته، فيدرك الرجل أنه لا خيار أمامه سوى أن يهز رأسه ويجيب في خضوع:

ـ طبعا طبعا. وردة وصوتها حاضرين.

يرسلون في طلب السنباطي، حسب طلب وردة نفسها، لإعداد نشيد وطني، أو أغنية تليق بالاحتفال المطلوب، فيعتذر الرجل، إما عن قلة اهتمام وإما لظروف المرض كما قال لهم، إلا أنه يقترحُ، عوضا عنه، واحدا من صبيانه.

يقترحُ أن يرسل لهم صاحبنا!

تقول الأسطورة إن السنباطي إذا جلس للشرب وضع لنفسه زجاجة لا يشاركه فيها أحد. ولمن يجالسه، أو يجالسونه، زجاجة أخرى. حين يرسل في طلب بليغ، يفتح له زجاجة الويسكي ويحتفظ لنفسه بالأخرى، منفردا بها، ويعرض عليه الذهاب للجزائر بدلا منه. لا يُبدي صاحبنا حماسا إلا حين يعرف أن تلك الفتاة الجزائرية ستغنّي في الحفل:

ـ وردة ستغني؟ لكنّها اعتزلت...

ـ تلك رغبة الرئيس، وأنت تفهمُ الباقي.

يهز بليغ رأسه متفكرا. يتحدث عن مشاغله وارتباطاته الفنية، مع عفاف راضي ونجاة وعبدالحليم. يقول إنّه سيفكر ويرتب للأمر، ما إذا كان سيتمكن من الحضور، فيبتسمُ السنباطي. يصبّ من زجاجته الخاصة في كأسه ويقول بطريقته المتمهلة:

ـ الآن فقط يمكن أن أفهم...

ـ تفهم...؟

ـ أفهم لماذا تناديك الست دايما بـ يا وسخ.

ينفجران معا في ضحك متواطئ. الجميع يعلم افتتانه القديم بالجزائرية، منذ كانت في مصر. رجعت هي إلى بلادها وتزوجت، ومضى هو في حياته، ولكنه ظل يكاتبها من آن لآخر، ثم ابتلعتها الدنيا والغياب، وها هو ذا مزاج هوّاري بومدين يعيدها ثانية إلى مسرح حياته. يغمغمُ صاحبنا باسما:

ـ وحتى لو غنّت في تلك الحفلة، إنها سيدة متزوجة الآن.

ـ هذه خطوةٌ أولى، وأنت وشطارتك يا ولد.

يبتسم الولد، ويسافر للمشاركة في الاحتفالات؛ لتلحين أغنية وطنية للجزائر، وليختبر ما يمكن أن يحصل عليه بشطارته. يركب الطائرة وسط وفد الفنانين المصريين المسافرين للاحتفال. يخبط محمد حمزة على كتفه ويطلب منه القيام ليجلس هو مكانه جوار الشباك. وحين يسندُ رأسه على زجاج الطائرة يبدأ يدندن لحنا خافتا يرنّ في أذنه من الصباح، ولا يعرف ماذا يفعل به. تهبطُ الطائرة أرض الجزائر الشقيقة بحمولتها من الفنانين المصريين. يلتفتُ صاحبنا ويسأل لبلبة ـ التي جاءت معهم ضمن وفد الفنانين:

ـ هل ستأتي لاستقبالنا...

ـ لا طبعا!

ـ ولكنّي كنتُ في استقبالها حين جاءت مصر.

فتمصمص لبلبة شفتيها وتهزّ رأسها تعجبا ولا تجيب.

وبعد يومين بالضبط يكون صاحبنا، أخيرا، في بيتها للعمل، كما يفترض، على غنوة الاحتفال «من بعيد أدعوك يا أملي».

## ٤١

تبدأ أيام العسل. إذا كنت قد لسعتُ أو احترقت بالتجربة فأنا معذور؛ صبيّ قادمٌ من القاهرة العشوائية التي أصبحت خارج التاريخ، يجد نفسه في أحضان باريسية شقراء على سرير عرضه السماوات والأرض. أنا، أنا الذي ـ كما يقول الشاعر ـ ما ذُقت لحم الضأن، أنا الذي لا حول لي أو شأن. كانت أقصى تجاربي مزاحا جنسيا مع شاعرة كالحة على مقهى التكعيبة أو لمسة خاطفة في شارع معتم بوسط البلد.

أستيقظ صباحا لأجدها تنظر لي ببهجة؛ أسأل:

- اليوم إجازة؟

- قررت أن أعتبره أجازة؛ لا أريد أن أتركك.

- والشغل؟

- هذا أهم من أي شغل.

وتحيطني بذراعيها لنغرق في السرير الوثير. لك الآن أن تجرب كل شيء، وأن تتعلم كيف تحرك يديك وكيف تستخدم أصابعك. هنا تستعيد قول الله تعالى، ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين. كل عضو تنبت له معها ألف وظيفة وألف استخدام جديد، فسبحان الله العظيم. قال كم يدوم نعيم أهل الجنة، يوما، أسبوعا، شهرا؛ والمحبوب مبتهج كل صباح، يعدّ لي الفطور الفرنسي الأنيق، الكرواسان والزبد والقهوة وعصير البرتقال معا! هذا هو الغرام فتعلّم. أعرفُ ما لا يسع المرء الجهل به. مثلا، أن أفضل الأوقات لمطارحة الغرام أول الفجر ونحن بين الغفو والصحو، لحظات الصمت قبلها، لحظات الصمت بعدها، مزاجها بالتدخين بعد أن تنتهي، تغلق عينيها وتدندن بينها وبين نفسها لحنا ما لا أميزه. لا أرفعُ عيني من عليها، كأني أخاف أن تختفي بغتة، وهي هنا وكأنها في مكان آخر:

- ألا تغلقُ عينيك؛ ترتاح قليلا.

- أنا أحبّك.

- وأنا أيضا أحبّك، لكن ينبغي أن ننام قليلا.

ليلة بعد ليلة، أراقب تفاصيل المرأة اليومية وهي تستعد لدخول الليل: طقوس الاستحمام اليومي، دهانها لنفسها بالزيت والكريمات، غسل الأسنان، إخراج كل الأجهزة الإلكترونية من الغرفة - لأن ذلك يسبب سرطان الدماغ كما قرَأت في مجلة ما.

تفوت الأسابيع، يُحدث المفتون نفسه وهو يراقبها، تتحرك في البيت هنا وهناك، صامتةً، كما يبدو أنه طبعها الذي عليه أن يعتاد عليه. هذه هي المرأة إذن، وهذا هو العيشُ معها.

ـ هل أنت سعيدة؟

ـ طبعا.

ـ سعيدةٌ أني هنا، وأننا معا؟

وتمنحني قبلة طويلة ولا تجيب.

ويقول المفتون لنفسه، ينبغي أن أتدرب على عدم السؤال، على عدم الإلحاح. بالطبع هي تحبني، لماذا تتركني أقيم عندها إذن. ولكن لماذا تبدو ساهمة طوال الوقت، لماذا يتغير مزاجها بلا سبب، المُحب سعيد دائما، أو هكذا أظن. ولكنني كذلك لست سعيدا طول الوقت؟ غير أن مصدر انشغالي هو أني لا أعلم ما يشغل بالها. لعلها ساهمة لأنها منشغلة بي، لعلها تفكر في نفس ما أفكر فيه. إن كان من شيء أفعله، فهو التدرب على قول ـ وأنا مالي.

يقول المفتون لنفسه، لعلها لا تزال تفكر في طليقها؛ الموضوع تابو أعرف أنه ليس من الحكمة الاقتراب منه، ولكن طيفه حاضر طوال الوقت، وتقول في عذوبة كأنها تهدهد طفلا صغيرا:

ـ تعلّم أن تستمتع!

ـ أنا سعيد طالما نحن معا.

هل اربدّ وجهها حين قلت ذلك؟ وهل فهمتُ ما قالت بشكل صحيح:

ـ يا لها من مسئولية!

وحين تنشغلُ بشيء تقول بغير اكتراث:

ـ اذهب وتسلّ بما تفعل، العب على الفيسبوك.

سيدرك القلب الاطمئنان حين يتوقف عن السؤال عما يشغل بالها، وكيف تراني، وهل لا تزال تفكر فيه. سيدرك القلب الاطمئنان حين يكف عن نخز نفسه بشوكة القلق، ويستمتع. إنّ شيئا لم يتغير، حتى شغفها بي لا يتغير مع مرور الوقت. وها أنا ذا أتعلم منها المفردة الأنيقة الجديدة Faire le cattleya التي يستعملها بروست تعبيرا عن ممارسة الحب. أكررها وراءها فتضحك من لكنتي وأضحك من منظرها وهي مبتهجة. لو يدوم مزاجها هكذا، حلوا خفيفا.

ويفلت لساني مرة فأسأل:

ـ أحيانا أفكر، هل جئتِ بي لهنا حتى نمارس الحب فحسب؟

فتنفخ من الضيق وتقوم لتقف في الشباك، وتشعل سيجارة. أقوم لأصالحها، معتذرا عن التعبير الذي خانني، فتسألني بدون مُقدمات:

ـ ماذا فعلت في ورق المنحة والجامعة والتقديم للماستر؟

وأراقب العينين الصافيتين، الحازمتين، ودخان السيجارة يحيط بالوجه الصغير دقيق التكوين، وأدركُ آني مطالبٌ بإجابة، فتدبر!

## ٤٢

ولو أنك تأملت، لفكرت كما أفكر، متى بدأتُ أبصرُ تلك الوجوه وأسمع تلك الأصوات؟ ومتى بدأ الوهم يختلط بالحقيقة، والخيال بما يمكن لليد أن تمسه؟ كأني أراه لأول مرة، أمد يدي وأقبض على كتفه، فينظر لي ويبتسم!

- نعرف بعضنا البعض منذ شهور الآن يا سليمان، ولا أعرف عنك شيئا!

- يا مصري، أنت لا تسأل.

ثم يهتف بحماس:

- نرجع لموضوعنا. المسرح يستعد لظهور وردة في حياة الرجل، وفي المشهد الغنائي، يمكن لنا الآن أن نبدأ مرحلة وردة في أغاني صاحبنا.

لا أحب وردة تماما، ولا أظن أحدا يذكرها الآن، أو يذكر الكثير من أغانيها. أتذكر لها من أغاني الطفولة، طفولتي أعني «جرب نار الغيرة» أو «حرمت أحبك». كبرنا قليلا وكانت قد تحولت لسيدة عجوز تحكي حكايات الزمن الجميل في الفضائيات، ومع دخول الإنترنت توقفنا قليلا أمام الفيديوهات المشتركة بينها وبين صاحبنا؛ ذلك الغرام العلنيّ والغزل المكشوف. كان بالنسبة لنا شيئا جديدا تماما، وملهما.

حاضر يا سليمان، سنتحدث عن وردة، وعن ألحانه لوردة، ولكن قبل ذلك ثمة شيئان جديران بالتوقف في عام ١٩٧٢. الأول هو «مولاي إني ببابك». تقول الأسطورة إن بليغ والنقشبندي كانا مدعوّين في خطوبة ابن السادات والذي لا يعلم أحد تحديدا ما إذا كان قد شرب أو وضع شيئا في تبغ البايب الخاص به، ولكننا نعلم أنه نادى على الاثنين مُقترحا في بساطة:

- عاوز أسمعك مع بليغ.

ومن يمكنهُ أن يقول لا لمشيئة الملوك، تلك التي أعادت وردة للساحة، وذهبت بالشيخ المعمم المحترم إلى مبنى الإذاعة. يلتفت لوجدي الحكيم ويقول ممتعضا وهو يصعد السلم:

- على آخر الزمن يا وجدي. بليغ ملحن الراقصات والهشّك بشّك.

- يا مولانا نسمعه الأول ثم نتفاهم.

يواصل الشيخ المشي إلى جواره متأففا، يدخلان الأستديو وبعد التحية والسلام ينتحي بوجدي جانبا:

- نتفاهم؟! صاحبك سكران طينة. أي لحن سيخرج منه على هذه الحال!

- يا سيدنا اسمع منه، لو عجبك كان بها، لو لم يعجبك سنعتذر للرئيس بصنعة لطافة.

يهز رأسه غير راض مغمغما:

- ربنا يستر.

يدخل الشيخ الأستديو، يغلق وجدي الباب ويتركهما لاختبار اللحن، وحين يعود بعد نصف ساعة ليطمئن على الموقف يجد الشيخ النقشبندي قد خلع عمامته وجلبابه، يصفق وهو يصيح من فرط النشوة:

- بليغ هذا عفريت من الجنّ، أي والله جنّ.

ولعلنا نفهم شيئا عن هذا الكون الغامض، حين نعرفُ أن الأغنية المستقرة في وجدان المصريين مع طقوس شهر رمضان وصلاة الفجر، كانت حلا تلفيقيا من ملحن مخمور وشيخ ممتعض تلبية لرغبة طارئة في دماغ رئيس صاحب مزاج. وها أنت ذا تهز رأسك يا سليمان ولا يعجبك الكلام، ولن أوجع رأسي بمناقشتك.

دعنا نتحدث فيما تفهم فيه وتتقنه وننتقل للحدث الثاني الذي يعنيني في عام ١٩٧٢، فيلم أضواء المدينة أعني، وأنت بالتأكيد تذكره. صاحبنا

حين يواصل استعراض مهارته في صناعة فيلم هو، بموسيقاه، بطله الرئيس، فعلها من قبل أكثر من مرة، وها هو ذا يكررها هنا في أضواء المدينة. هنا هو كل شيء؛ المقدمة الساحرة الخاطفة في أول الفيلم، صفر يا وابور، اشتغالُه الشجاع على أغنية عطشان يا صبايا والتنويع بلحنين مختلفين من مقام واحد منتهيا بالكوبليه الذي تغنيه صوت شادية. قدرته على تلحين كلمات مثل «قال ايه شرابي مدلدل» ثم لحنه العذب في استعراض روميو وجولييت:

«في كل مكان/ في كل كلام/ في نجمة بعيدة، في كل زمان».

ـ هذه الجملة من مقام النهاوند؟

ـ كرد من درجة قريبة من النهاوند، أجمل شيء ممكن تسمعه يا مصري يا مجنون.

لو أني تعلمت شيئا فهو أن ألحانه من أسهل الألحان التي يمكن تعلم عزفها، وبعضها عزفته سماعيا بلا نوتة ودون حتى أن أميز المقام. هنا يمكن لي أن أعزف على راحتي بعيدا عن مشرفة مسكن اللاجئين المتعجرفة العنصرية التي تنظر لي بريبة، وتطالبني دوما بخفض الصوت، وتسألني بسخافة:

ـ هل أنت بخير؟

أنا بخير لو تركتِني وشأني، فاختر لنا شيئا نعزفه قبل أن يطلع الفجر، وقبل أن ينفتح الستار عن مطربتك الجزائرية أيها المغربي الأشيب...

## ٤٣

واعلم أن صاحبَنا كان عليه أن ينتظر يومين، قبل أن ينتهيا جالسين

معا في بيتها، تدريبا على الأغنية المُنتظرة. يمسكُ عوده، واعيا بقدراته، يراقب منتظرا اللحظة المناسبة للهجوم. المصري صاحب اللسان الحلو، يسأل مستنكرا، معابثا:

- ما هذه الكلمات؟ أنا ألحّنُ هذه الكلمات! والله ورخصت يا تفاح.

- رخصت يا تفاح...؟

- طبعا؛ مؤكد أنك بعد هذه السنوات نسيتِ الكلام المصري!

- نسيت. فشر!

تباغته كلمة فشر منها بهذه الطريقة فيضحك. يمسكُ الورقة الموضوعة أمامهما، ويقرأ باستخفاف:

«عدنا إليك يا جزائرنا الحبيبة/

يا معقل الإسلام يا حصن العروبة/

عدنا تُناغينا رؤى دنيا خصيبة!».

ويطلقُ ضحكته مقصودةً:

- تناغينا؟ أنا ألحّن تناغينا؟! ذكريني باسم كاتب هذا الكلام العجيب الله لا يسيئك.

إنها تدرك أنه يعبث، تماما كما تركته من عشر سنوات، كأن شيئا لم يتغير، ولا يزال يعجبها، وتعرف أنه لا جاء لاحتفال ولا غيره، وأن التلحين آخر ما يعنيه:

- الشاعر الجزائري الكبير صالح الخرفي.

- خرفي؟ وماله!

خطوة خطوة. ها هما ذان يتبادلان المشاكسة والكلام الذي يحمل معنيين:

ـ معذرة يا حضرة الموسيقار الكبير، لو كانت كلمات القصيدة لا تليق بمقام جنابك العظيم.

ـ العفو العفو!

ـ كما تعرف، نحن ـ الجزائريين ـ شعب جاد. ليست صنعتنا الخفة والكلام الحلو مثل المصاروة.

ـ لسانك لا يزال طويلا، ودمك لا يزال حاميا.

ـ وأنت كما أنت. كأن شيئا لم يتغير.

ـ نفس العينين، ونفس العنق...

يقاطعهما دخول مباغت لمن يسأل ما إذا كانا بحاجة لشيء. يلعب بليغ في الورق أمامه مُتشاغلا به وتجيب هي بأنه لا، شكرا. يترك عوده ويميل نحوها هامسا:

ـ لن نستطيع الكلام هنا!

ـ هه، كلام! فيم تريد أن تتكلم؟!

ـ لماذا لم تردّي على خطاباتي ومكالماتي.

ـ خطابات...

ـ بعيد عنك حياتي عذاب. أم كلثوم كادت أن تفتك بي عندما عرفت.

تضحك وهي تضرب كفا بكف، ويدرك أن الباب ليس مغلقا تماما كما تريد للأمر أن يبدو:

ـ اتصلتُ أكثر من مرة. وبعثت لك مع وجدي الحكيم.

ـ لعلك لم تلاحظ شيئا مهما بعد.

ـ ألا وهو...

ـ أنني ستّ متزوجة.

ـ وهذا يمنحك الحق في دفن هذه الموهبة الكبيرة؟

ها هي ذي تفرك أصابعها بعصبية كما كانت تفعل؛ إنها خائفة بقدر ما هي راغبة، وأي كلمة خطأ، أو نبرة صوت في غير موضعها، أو خطوة مندفعة يمكن أن تفسد كل شيء.

ـ واجبك كزوجة وأم لا يلغي واجبك كفنانة. لا يعفيك من مسئولية الموهبة التي منحها لك الله.

وينزل بصوته درجة منتقلا من النهاوند للسيكا:

ـ نسيتِ كلامك عن طموحك في أن تكوني أم كلثوم الثانية؟

هذه الضحكة العصبية تؤكد أن المقصود قد تحقق، ولم يبق إلا ضربة واحدة، بعدها ينتظر الثمرة لتسقط وحدها بين كفّيه:

ـ طيب، أنا عندي عرض ممتاز.

تتطلع العينان المتسائلتان فيواصل في حماس:

ـ سننتهي من هذه الغنوة ونحتفل بعيد الاستقلال حسب الترتيب، وقبل العودة لمصر سأُسمعك شيئا، لو عجبك ترجعين معي...

وتضيّق عينيها في خبث:

ـ ولو لم يعجبني؟

ـ ستخرج الجرائد الجزائرية في اليوم التالي تحمل صورتي وتحتها خبر انتحار فنان في عز شبابه بسبب قسوة الأحباب.

تضرب كفا بكف وتطلب منه التوقف عن الدلع ومواصلة الشغل، فينطلق صوته، بغير كبير اقتناع:

«عد يا حبيب الروح وامسح أدمعي/

فالفرحة الكبرى تجيش في أضلعي/

نادى بنا يوم اللقاء الأروع/

فارفع يديك وضُمّني واهتف معي».

ثم يتمتم بينه وبين نفسه «صالح الخرفي»، فتبتسمُ رغما عنها، وتستعيد نفسها احتراما للسياق وللمكان!

في الحفلة ـ بعدها بأيام معدودة ـ سنرى تلك الفرقة المميزة بعازفيها الذين نعرفهم من حفلات عبد الحليم. يمكنك أن تلمح عازفا على الأورج، تشعر إن وجهه مألوف، فتكتشف بشيء من التدقيق أنه عمار الشريعي! بليغ بنفسه يقود الحفلة ـ بدلا من أحمد فؤاد حسن كما هو معتاد. ينتهي الحفل وينطلق الآلاتية مع الفنانين لتناول العشاء. وبعدها يذهب المدعوون لبيت وردة، ووسط الكلام والضحك يرتفع صوت صاحبنا:

ـ سمع هس. فيه رهان بيني وبين الست وردة. ممكن نسمع؟!

ويبدأ العزف، ويبدأ الغناء.

## ٤٤

تسألني عن إجراءات التسجيل وما سأفعل بتلك النبرة الاستعلائية الجديدة، فأقول بثبات:

ـ تعاقبينني الآن بالسؤال بهذه الطريقة لتُذكريني بأني أقيم عندكِ.

تغمغم بما لا أتبيّنه فأواصلُ:

ـ هذه سخافة وقلة ذوق!

ـ وتعليقك أيضا كان قليل الذوق.

ـ ربما خانني التعبير، ربما كنت أمزح. لكن هذا ليس مبررا للضغط أو استخدام الموقف.

كنت أريد أن أقول المنّ، لكني لم أعرف ترجمتها بالفرنسية. عرفتُ رغم ذلك كيف أقول ما أريد بوضوح:

ـ نحن شركاء في هذا؛ نحن في علاقة، ولو كان الأمر غير ذلك فلنكن واضحين.

ـ لا ترفع صوتك. الوقت متأخّر.

ـ حاولي أن تكوني واضحة. مع نفسك ومعي.

لأول مرة ينطلق الكلام مني بهذا الوضوح، بهذا الثبات. أقول لنفسي إني لم أعد أخاف منها، وإنها لا بد أن تحترمني قبل أي شيء.

ـ نحن لم نوقّع عقدا. مشاعري ليست بحاجة لدليل، لكن يمكن أن نُنهي كل شيء وستستمر الحياة.

تنكمش في نفسها وهي تقول:

ـ لا أريد أن ننهي كل شيء.

يا سيدنا الخضر، كف عن هذه الضحكة السخيفة القاسية لعلي أفهم. لم أكن ضعيفا أبدا طوال علاقتنا، ولم يكن الأمر دائما ملاحقةً أو مطاردة أو رغبةً في زاهد فيك، فكيف انتهينا إلى ما انتهينا إليه؟ كيف!

حين أذهبُ للجامعة أكتشف أنهم بحاجة لامتحان مستوى في اللغة الفرنسية من جديد. أعرف جيدا أني لو امتحنت فسأرسب؛ أحجز موعدا للامتحان بعدها بستة شهور، بما يعني أنني لن أتمكن من البدء في الدراسة إلا في التيرم التالي، أي بعد عام! لن يعجزني العثور على مدرسة لغات وهمية تجري امتحانا وتمنح شهادة ما. أفكرُ، مطمئنا نفسي.

أذهبُ بعدها للمركز القومي للكتاب في شارع فيرني، بالحي السابع؛ تشرح لي موظفة عجوز شروط المنحة، فأعرف أنه بإمكاني صرف مرتبها - الهزيل - بعد شهرين، وأنني - كذلك - مطالب بتسليم عشرين ألف كلمة على الأقل في نهاية ستة الشهور الأولى:

- لكني أكتب باللغة العربية؟

فتبتسم التي تتحدث معي وتقول - وهي تغطي صوتها بغموض غير مبرر:

- لا تقلق. لدينا من يقرأ بالعربية.

كأنها تهدّدني بنت المَرَة. لا أعرف ما هي الصعوبة في رصّ عشرين ألف كلمة كيفما اتفق، أقول في سري، ولماذا بعد ستة شهور، لماذا ليس بنهاية الأسبوع. وأشعر بغضب مفاجئ فأصيح بصوت مرتفع وأنا أركب المترو منطلقا للبيت غير آبه بنظرات الركاب من حولي:

- ملعون أبوك لأبو المنحة في ساعة واحدة!

أدخل فأجد ماريـل منهمكة في قراءة شيء ما، أظل أحكي عما حدث، وهي تهز رأسها وتهمهم، وحين أحكي عن المركز ترفع عينيها عما تقرأ وتقاطعني مبتهجة:

- شارع فيرني، شارعي المحبوب في الحي السابع، أكثر أحياء باريس هدوءًا وأناقة، مثل الزمالك في مصر.

تصفر في حماس كالأطفال ثم تخبرني - بنت المجنونة - أننا ذاهبان هناك الليلة:

- ستلتقي اليوم بأصحابي، في مكان أنا واثقة بأنه سيعجبك.

نركب من بيتها الخط الثالث عشر للمترو وننزل محطة فارين. بعد خمس دقائق نصل لمكان أشبه بقبو، معتم، تصطف فيه مناضد خشبية متجاورة، وعلى الحوائط صور قديمة ورسوم بالطباشير وشموع. أقرأ المكتوب أعلى المدخل بخط شبيه بخط الرقعة العربي «Club des Poètes».

أسألها عن هذا المكان العجيب فتبتسم مؤكدة أني سأفهم بعد قليل.

يطلب البعض طعاما والبعض نبيذا أو قهوة. يبدأ أصحابها في الوصول: جوانا، آنيدمي، جورج ورافاييل. وأنا أكتب الآن أذكر الأسماء ولا أذكر على أي الوجوه كانت، بخلاف جوانا التي أذكر جيدا أنها كانت جميلة بشكل مذهل؛ تطابق صورتنا الذهنية عن الفتاة الأوروبية بالشعر الأشقر والعيون الملونة والبياض الشاهق والصدر الكبير. يباغتني انتصاب مفاجئ فأتبادل معهم الابتسامات والتحيات والكلام الفارغ، ثم أستأذن لدخول الحمام.

أنظر لوجهي في المرآة الصغيرة المستديرة، فأراه من ورائي ثانية، سيدنا الخضر، نفس الوجه اللعين والكيان اللزج والنظرة المُستخفة:

- ها أنت ذا تعيش حياة كالأفلام الأجنبية، فهنيئا لك. عندي سؤال واحد!

ـ سل ما تريد.

ـ هل تريد أن تُبقي على فرنسيّتك المكسرة، أم تريد أن تتكلم بطلاقة وتفهم كل ما يقال؟

أنظر في المرآة ولا أستدير، لكني أشير له بإصبعين اثنين، أنه الاختيار الثاني طبعا.

يضحك هازئا، بوحشية:

ـ انعَم إذن باختيارك الخطأ.

يختفي فأهز رأسي. أطمئن نفسي، هذا صوتٌ قادم من رأس حرفته الخيال، فلا تشغل بالك. إن دعوةً يؤمن بها مليار شخص الآن على كوكب الأرض ما كانت لتظهر لو أن قريشا أدركت الطب النفسي والهلاوس البصرية ومضادات الفصام. أعود لمجلسي فأجدهم قد أطفئوا النور، وماريبل تجلس على مقعد خشبي مرتفع تنشد شعرا، فرنسيا، فتدبّر!

## ٤٥

ولو أنك تأملت

ظهور وردة على المسرح

الستار يُفتح والإضاءة تتوهج

في حفلة ستُعرفُ بحفلة العودة، عودة وردة للغناء.

وصوت المذيعة يتردد في بهجة كرنفالية:

«حان لقاءٌ مع أملنا كلنا، أمل مصر، بليغ حمدي.

نعيش مع زهر ونيل وقمر وفرح الحبايب وقناديل الشجر

نعيش مع ضيفتنا كلنا

حبيبتنا كلنا

حبيبة مصر

وردة!».

صاحبنا خلف الستار

يدخن في هدوء ويبتسم

والعاشق المهزوم قادمٌ من الغيب يسعى

يحاول أن يرصّ الكلمات

يتأمل تحية الجمهور لمطربة تتخذُ مكانها المحجوز للنجاح

من دون حاجة لمجهود أو إعداد!

أرهِف السمع لغناء الصوت الحاد القوي، يتردد بقوة على مسرح نادي الزمالك:

والله يا مصر زمان، زمان

والله زمان زمان يا نيل

والله زمان زمان على هوى

يا ما غنته المواويل!

تضج الكفوف بالتصفيق والحناجر بالتحية

صاحبنا، الفاهم لنفسية جمهوره، يعرف كيف يُمهد وكيف يقدم لنفسه

يعرف أن هذا الحشد عقله في أذنيه

دمعته قريبة، وعاطفته تشعلها كلمة ويطفئها اعتذار

مظلومية سبعة الآلاف عام

تعرف قيمة كلمة الامتنان؛

من أجل ذلك يغني الصوت الحاد مبتدئا الكوبليه:

وحشاني يا أم الحنان، وحشة حبيب للأمان

فيصفّق الجمهور في حماس.

الفتى يعرف ما يفعل بصوت القادمة سعيا وراءه ـ ووراء طموحها.

حتى إذا استوى الأمر وتهيأ الحاضرون لضربته الثانية

ضربها بيده المحترفة

وانطلق الصوت، مترفقا هذه المرة، شجيا، من مقام النهاوند

للعيون السود

وانت عارف، قد ايه، كبيرة وجميلة

العيون السود

في بلدنا!

ها أنت ذا تضحك يا سليمان، وتسخر من محاولاتي لكتابة الشعر، والأمر أني ملزم بكتابة ـ وتسليم ـ ٢٠ ألف كلمة بعد أسبوعين. ثم إن الدكتور محمد مرسي صدّق أنه رئيس لمصر فأصدر قرارا بحظر التجول في محافظات القناة منذ أيام. وصدق المصريون أنهم ثوّار أحرار، فأقاموا دوري كرة القدم تحديا لهذا الحظر، فلماذا لا أصدق أنا كذلك أني روائي،

وأنك موسيقيّ تسمعُني وتعلمني وتناقشني، وأننا نحلل أغاني وموسيقى بليغ حمدي لنفهم، وأنّي قفزت في الهواء سعيا وراء امرأة لم يعد لها الآن وجود، وأني مطالبٌ الآن بأن أحتفظ بتوازني في الفراغ بدونها، متقبلا أن ما جرى قد جرى، ومضى، وأنه لا يعود...

## ٤٦

واعلم أن صاحبنا يقول سمع هس، فيسكت الجميع. يأخذ عوده، ويبدأ يغني للعيون للسود:

«كل غنوة، ع الفرح كانت/

ع الجرح كانت/

ع الصبر كانت/

ع الحب كانت/

كتبتها، وقلتها، كانت عشانك!».

يبتسمُ الحاضرون في تواطؤ مع هذه الإشارات المكشوفة، وصاحبتُنا لا تعرف كيف تتصرفُ وهي لا تزال في بيتها، أما هو فكعادته، لا يأبه بشيء، أي شيء، يجنح من النهاوند للسيكا:

«قد كل كلام، في الحب اتقال/

في الصبر اتقال/

بحبك/

ليلي وانا سهران/

سنين ما بنام/

وبقول موّال/

بحبك/

قد اللي فات من عمري بحبك/

قد اللي جاي من عمري بحبك».

تتبادل لبلبة ووجدي الحكيم النظرات، يطرقع عبد الرحيم منصور بأصابعه في ارتباك. وحين ينتهي من الغناء يضع بليغ عوده جانبا وهو يقول بوضوح:

ـ كسبتُ الرهان؟

يحاول محمد حمزة تلطيف هذا الجو العاطفي المشتعل في بيت امرأة، ما زالت، متزوجة، بلهجة دبلوماسية:

ـ بليغ يعبر عن رغبتنا جميعا في عودتك لفنك وجمهورك.

تؤكد له أنها مشتاقة للغناء في مصر طبعا.

وتمضي السهرة إلى منتهاها، وحين يرجعون آخر الليل استعدادا للسفر في اليوم التالي يمسك حمزة بذراعه:

ـ يخرب بيتك! عرفنا أنك بلا حياء، ولكن بلا عقل؟

يصفّر وهو يخبط بكفيه على الواحدة والنصف:

ـ ما على العاشق ملام!

ـ ملام؟ كيف تعدُها بهذه الأغنية...

ـ أنا حرّ يا أخي.

ـ هذه الأغنية حضرتك بعتها فعليًا لنجاة قبل السفر، مع أغنية نسي، والمفترض أن نُسجلها بعد العودة.

يخبط صاحبنا جبهته؛ كان قد نسي ذلك تماما، ويواصل حمزة محذرا:

ـ نجاة ليست غلبانة مثل ليلى مراد لتفوّتها لك. ولا أستبعد أن ترفع عليك قضية.

ـ يا حمزة يا أخويا، كيف نخشى الخلق ونترك الخالق. خليها على الله!

ويتركه ليدخل غرفته في الفندق، بينما يصيح فيه الآخر بغيظ مكتوم:

ـ يا سلام! اللهم قوّ إيمانك.

يكفي أن تعرف أن هذه الجلسة كانت في يوليو ١٩٧٢، وفي السادس من أغسطس ١٩٧٢ ـ بعد أقل من شهر ـ كانت الطائرة تحطّ بوردة في مطار القاهرة بولديها ـ رياض ووداد، لتجد صاحبنا في انتظارها. وصلت يوم السبت، ويوم الخميس كانت في مسرح الإذاعة والتلفزيون تغني ـ فيما سيعرف بحفلة العودة ـ والله زمان يا مصر، وتغني العيون السود، فيبتدئ بهما العرض الذي ملأ أسماع السبعينيات! تقول الروايةُ إنه وجد نفسه مضطرا للزواج منها، بعد مجيئها تلبية لدعوته، وتقول رواية أخرى إنه لم يكن مهتما تماما، وبعد تأجيلات وترتيبات ومماطلات واتفاقات لشهور، تجلس لتنتظره هي والمدعوون على الفرح كما حدّدا موعده، مارس ١٩٧٣، ولم يظهر إلا بعدها بيومين، قائلا إنه كان في بيروت!

ـ بيروت؟!

ـ نسيت والله. لكن تتعوض، نعمل فرح أحلى منه.

تزعل فيصالحها، ويذعن في نهاية الأمر ويتزوجان! تمنحنا الصحافة

الفنية وقتها صورة لذلك الجو العابث الكرنفالي؛ بليغ ملتصق بوردة، تبتعدُ عنه خطوة فتجده في ذيلها، تنأى عنه فيلاحقها بقبلة، حتى يهتف به الشيخ نصر، مأذون الفنانين:

ـ يا سيدي صبرك، الدنيا لن تطير!

سيحتفظ لنا الأرشيف بصورته وهو يقبلها قبلة عنيفة من شفتيها، وصورة أخرى له هو وعبدالحليم يقبلانها من خديها معا، والذي يقول ضاربا كفا بكف:

ـ بليغ يتزوج؟ آمنت بالله.

يضج الحضور بالضحك، ويستدير هو لنجوى فؤاد:

ـ منظر جميل، لعل العدوى تصيبك أنت أيضا؟

فتنظر لخطيبها كمال نعيم ويتبادلان قبلة متوقدة، لتضج الضحكات من جديد:

ـ انتظر يا شيخ نصر، لدينا هنا زواجٌ ثان.

وهكذا، تتزوج نجوى من كمال، ووردة من بليغ، ويدور الرقص والغناء والكأس للصباح، وتبدأ الحدوتة الشبيهة بحواديت ألف ليلة: حدوتة العصفور والأميرة.

## ٤٧

تنطفئ الأنوار في ذلك المكان العجيب، تعتلي ماريبل كرسيا خشبيا وتقرأ شعرا بالفرنسية. أصحابها يتحلقون حول طاولة بين طاولات تزدحم جميعها برواد المكان. أفهم أن هذا المكان مطعم وبار، وأنه من معالم

باريس وحيّها السابع، يتضمن برنامجه كل جمعة وسبت قراءة للشعر بدءا من الساعة العاشرة مساء. تميل جوانا، صديقة ماريل، وتخبرني همسا إن مارسيل صاحبة المكان مصرية بالأصل، من الإسكندرية، وأنها انتقلت لباريس في سن مبكرة وتزوجت من الشاعر الفرنسي المعروف بيير روناي، وأنشأت معه هذا المكان!

ماريل، مندمجة تماما في قراءة الشعر، من الذاكرة، بلا ورق أو كتاب، نظري مُعلقٌ بها، هي الغارقة، دائما، وحدها في عالمها الخاص. مغمضة عينيها، تقرأ وكأنها ترتل، وفي أبيات معينة تضحك تلك الضحكة القصيرة الخافتة، تلك التي تفلت منها ونحن نمارس الحب. لعلها كانت تأتي هنا معه، ولعلها تريد أن تُظهر لأصحابها أنها تجاوزت، وأنها قادرةٌ الآن على أنّ تحب من جديد.

من العجيب أني أفهم كل ما تنطق به من شعر في صفاء ووضوح ـ لعل الخاطر الذي تبدّى لي في مرآة الحمام حقيقي، ولعله كان سيدنا الخضر فعلا، ولعلّ لغتي صارت طليقة بحق؛ فهل أدخل الامتحان إذن؟! أيّ امتحان؟ لم يأتِ بي إلى هُنا امتحان ولا رواية، إنما جاءت بي الجميلة الملعونة! لا شيء سواها. إنني مفتون، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فليجلس وليستمع للشعر، ولا يعودنّ فيشتكي ويبكي!

تنتهي مما تنشد، يصفقون لها، تتحرك نحو طاولتنا على أطراف أصابعها مثل راقصات الباليه، تدفعني للداخل لأفسح لها مكانا وتجلس جواري. تخبطني بكتفها في كتفي برفق:

ـ أعجبك المكان؟

ـ كأنه حلم. كأني في فيلم أجنبي.

هذه الضحكة المتهتكة، تثير من البهجة ما تثير من الريبة:

ـ هل تعرف أن صاحبة المكان أصلا من مصر، من الإسكندرية...

ـ أنا أحبك.

هذه النظرة المرتبكة، كأن الكلمة تقعُ منها موقعا ثقيلا، ولكني أكرر بإلحاح:

ـ أحبك.

تقبلني على شفتيّ قبلة خفيفة، فيضج أصحابها صاخبين بالضحك والتصفيق. أحتضنها، وأفهم من الكلام أننا بعد انتهاء السهرة سننطلق لاستكمال الليلة عند صديقة أخرى لم تتمكن من المجيء معهم. تتحرك بنا السيارة في شوارع باريس المعتمة. بين الهواجس والنكات وضحكات السكارى وفيض السعادة وشعور جارف بالحنين. أهمس من جديد «أنا أحبك يا ماريل». وحين نتخذ مجلسنا في بيت صاحبتها الضيق أقول لنفسي ها أنا ذا كهارون الرشيد، بملامحي العربية؛ لحيتي السوداء وشعري المجعد الطويل. خليفة جالسٌ بين الأوانس الحسان، وبينهنّ حبيبته التي تملكه بقدر ما يملكها. أهتف، وقد سكرت مثلهم من دون أن أشرب، إن الحب هو أصدق الأكاذيب وأجملها. يتحادثون ولا ينتبه لي أحد، أحاول فتح حوار فأسأل آنيدمي:

ـ وماذا تعملين إذن؟

ـ الشغل تقصد، أم في الحياة.

ـ الشغل، ربما، الاثنين.

ـ يا عزيزي هذه ليلة الجمعة، لا نسأل فيها هذه الأسئلة الجادة.

ويضحك الجميع، أشعر بالحرج، فيما تلتفت هي لماريل:

ـ حدثينا أنت عن الصديق المصري الجديد، كيف يبدو الأمر!

ها هي ذي مارييل ثملة وقد أطلق الكحول لسانها:

ـ أكثر من رائع!

وتربت على فخذي ثم تقرصني من ذراعي، فيضجون ثانية بالضحك:

ـ أنت خنزيرة.

ـ منحرفة.

وبينما أفكر أنا لماذا استخدمت هذه الكلمة تحديدا، pervert، تسألها صاحبتها جوانا:

ـ هل يمكن أن أستعيره قليلا!

وينطفئ تهيّجي لحظة رأيتها في مقهى الشعراء، ولا أتذكر سوى ألم قاسٍ، ونبرة التشفّي المتوحشة في صوت سيدنا الخضر. وأسأل كيف صرت أفهم كل كلمة يقولونها بكل هذا الوضوح؟ ها هو ذا الفيلم الأجنبي يتمخض عن إهانة وشوكة تحت الجلد. إنهم يتكلمون، ويتكلمون، ويضحكون على ما يقولون، ويقال تعليق ما فأفهم منه أن رافاييل نام مرة مع مارييل. يبوخ الجو الساحر ولا يتبقى غير كدر لا حدود له، فمتى تنتهي هذه الليلة التي تبدو بلا نهاية! كأن واحدا من الحاضرين يدرك ما أشعر به من انزعاج، فيقول مُترفقا:

ـ لعلنا نتكلم بسرعة فيصعب عليك فهم كل ما نقول.

إنه يرثي لحالي، الفرنسي التافه، أجيب بعصبية لا أجتهد في إخفائها:

ـ إنّي أفهم كل شيء وكل كلمة.

أبدأ أكرر لهم ما قالوه كلمة كلمة فيتكهرب الجو، تعتدل مارييل في جلستها، كأنها بدأت تفيق، وتقول في رقة سخيفة:

ـ هل تعلمون أنه حصل على منحة من الـCNL لكتابة رواية عن موسيقي مصري كان يعيش في باريس.

تتساقط كلمات «مدهش» و«عظيم» فارغة بلا معنى، يقول قائل:

ـ حدثنا عن روايتك قليلا.

وأجيبُ بفتور:

ـ لا أظن أن أحدا يريد سماع ذلك.

الليلة تفسد، والصمت يحل، بينما يهمس الصوت القاسي في أذني، مُتشفيّا من جديد، إنهم لا يأخذونني بجدية، فتدبر.

## ٤٨

ولو أنك تأملت غناء وردة للعيون السود، ونزولها من على المسرح كما صعدته، نجمة، لأدركت أن الفتى حقق وعده لها بضربتين رشيقتين، ومنحها يده وهي تهبط الدرج، باسما. هذه حكاية الملحن الفذ، العاشق، والمحبوبة التي ذهب واستعادها بنغمته، وها هو ذا ١٩٧٣ يستفتح أسطورتهما معا ـ أيضا بنغمته. كل الظروف تهيئهما لذلك؛ السيدة أم كلثوم تترجل عن المسرح بعد تسجيلها معه لحنه الأخير ـ حكم علينا الهوى، وتدخل المستشفى.

يقول المؤرخ الموسيقي إن وردة ذهبت لزيارة السيدة أم كلثوم في مرضها فرفضت الأخيرة أن تستقبلها. أكتب المشهد واضعا له تصورا، ثم أتذكر أن بلاغة الروائي تتجلى في الحذف كما تتجلى في الإضافة، أفكر، هذه حكاية لا قيمة ولا معنى، فأحذفها مضحيا بمائتي كلمة أحتاجها يوم التسليم:

ـ وإلا، فما رأيك يا سليمان؟

وهو يواصل هز رأسه في صمت، وأنا أكتبُ كالمحموم. ما الذي يبقى من تجربة بليغ مع وردة بعد مضيّ الوقت؟ ع الربابة باغنّي، والتي لم يسمحوا له بدخول الإذاعة يومها، يوم العبور في ٦ أكتوبر، فاعتصم في مبناها حتى سمحوا له بالدخول وتمت كتابتها وتلحينها وتسجيله في ست ساعات.

في هذا اللحن يتاح له أخيرا استخدام المزمار الصعيدي الذي اقترحه على أم كلثوم من قبل في فات المعاد فوبخته. الجمل البسيطة القصيرة التي تلتصق بالأذن من أول مرة تسمعها كاللعنة. حلوة بلادي السمرا بلادي الحرة، فيها كما في كل ألحانه الوطنية تلك الرخاوة العاطفية المحببة، والتي جعلت كثيرا من النقاد المتخصصين يقولون إن نقطة ضعف بليغ هي الألحان الوطنية وتلحينه للقصائد. إلا أنه بهذه الرخاوة كان أكثر الملحنين قدرة على التعبير عن مصر ـ بكل ما في العبارة من دلالات مثيرة للسخرية.

ماذا يبقى من تجربة بليغ ووردة؟ النغمة الجميلة «سلام على الناس الحلوين» في الأوبريت المنسي تمر حنة، والذي ذهب لعرضه في سوريا بعد عبور ١٩٧٣. هناك يسجل أيضا مسلسلا غريب الشكل هو «الوادي الكبير» يجمع بين وردة وصباح فخري، يقدم فيه عدة موشحات، يثبت بها من جديد عدم اهتمامه بتلحين القصائد الفصيحة، ولا استمتاعه بها!

يبقى من التجربة نغمة «خليك هنا خليك، بلاش تفارق». ويبقى أغاني فيلم «حكايتي مع الزمان» حنين حنين حنين، أنا دايبة فيك حنين، ويبقى «مالي بالأحزان وانا مالي»، والألحان الجميلة في مسلسل «أوراق الورد» كل سنة وانت طيبة يا مامتي، وأنا عندي بغبغان، وآه لو قابلتك من زمان، ومعقول أحب تاني! ليس هناك طموح كبير ولا تجديد في الآلات

الموسيقية ولا في التركيب الموسيقي، ولكن هناك دوما نغمة بديعة ساحرة تعلق بالذهن، نغمة مثل نغمة، بوسة ع الخد ده. الموهبة العارية، بلا تدخل من صنعة. هنا يظهر التكاسل التام، لذا تجدُ الفرق واضحا بين المناطق المضيئة في اللحن، وبين الباقي! تتذكرُ ثانية كلام عبدالوهاب عنه. ثم يعلق سليمان، وهو ينقر بيديه على الطاولة في شكل رتيب:

ـ ولا تنس أن تضم لقائمتك أغنية أنا عندي معجزة.

ـ أنا عندي معجزة؟

فيشغلها لي من سماعات اللاب توب، ولم أكن قد سمعتها من قبل، ولا سمعت عنها...

يتهادى الحسُّ القويُّ مفسحا المجال لنفسه، في شقة حقيرة في الـ Banlieue شمالي باريس. يتقدم، فيزيح عن جانبيه كل شيء:

«دا هواك في قلب قلبي/

ولا شيء بيغيّره/

لا الهجرة ولا السفر/

ولا تلوين السهر/

ولا تغيير الهوى/

ولا حب أتصورُه»

يشاركها صوت سليمان الغناء، دون أن يتوقف عن النقر:

«أنا عايزة معجزة تنجدني من اللي فات/

أنا عايزة معجزة تمحي لي الذكريـات/

واحنا في زمان يا عالم، مافيش فيه معجزات!».

نستمع ولا ننطق بكلمة، ساعةً من الزمن، يتوقف بعدها الصوت الشادي، أما هو فلا يتوقف عن مطالعتي الصامتة، بنظرته المُربكة، في جوف الليل...

## ٤٩

يتزوج العصفور من الأميرة، ينفضّ الحفل ويتفرق المدعوون، يمضي كل إلى بيته، ثم يبدأ فصلٌ جديد في الحكاية. قصص الحب تنتهي في التراجيديا بالموت، وفي الكوميديا بالزواج. وإن كان هناك أي معنى لذلك التقليد الكلاسيكي في أفلام اللايت كوميدي بأن يكون مشهد النهاية هو الزواج، فهو أنه، بالضرورة، هو كلمة الختام في قصة الحب باعتبارها قصة حب!

كان كل شيء على ما يرام في تلك الحكاية في ألف ليلة، حتى يقرر بطلها سيئ الحظ أن يترك أبواب القصر التسعة والتسعين، ويمضي وراء فضوله فيفتح الباب المغلق، ويكشف السر، ليجد نفسه منفيا، باكيا وسط الشيوخ النادمين الباكين، يضرب الحجر بيده فتتفطّر بالدم، ولا يزول ندمه ولا ألمه!

إن كل شيء يظل لطيفا ووديعا في قصص الحب، حتى يقرر أحدهما أن يفتح الباب المغلق، أو حتى تفكر الأميرة في السيطرة على العصفور ووضعه في القفص. الصبي الذي لم يحتمل أن يغلقوا عليه باب الفصل فهرب واضطر أبوه إلى أن ينقله لمدرسة خاصة بلا مواعيد ولا بواب حتى يستطيع إنهاء دراسته، كيف له أن يحتمل شيئا مثل الزواج. الصبي مُغرمٌ بالسفر، بالسهر، بالمشي، بالفوضى، ينام في أي مكان ويستيقظ في أي مكان، في دماغه ألف نغمة وفي حياته ألف صديق وفي جدوله ألف

دعوة، والزواج هو النقيض التام لكل ذلك، فكيف كان يمكن للأمر أن يستقيم. أرى في مستقبل سيتدلى أمام الحكاية بعد سنين حوارا تلفزيونيا لـ وردة وهي تتحدث عنه فتقول إنه كان ملحنا عبقريا وزوجا رديئا، ثم تفلت منها ضحكة هستيرية:

ـ بيته كان كباريه.

إن صاحبنا يحبها، لكنّ ما يريده منها غير ما تريده منه. إنه يعيش الحالة، يخطر في باله الخاطر في الصباح فينفذه كيف شاء؛ الواقع بالنسبة له هو ذلك الذي نراه منه على أغلفة المجلات، وهو يحبها لكنه يحب الموسيقى، ويحب السهر، ويحب حياته على ما هي عليه.

يوقظها من النوم؛ يقول لها اسمعي:

«خليك هنا خليك، بلاش تفارق».

فتردد وراءه في تسليم.

ويوقظها من النوم:

ـ أريد أن أكون أبا.

فتهز رأسها ولا تعرف كيف تجيب هذا المجنون؛ كل يوم هو في شأن. تربت على كتفه وتسأله:

ـ أكلت؟!

فيكتشف أنه لم ينم ولم يأكل من أيام. ينام، ويصحو، ويوقظها من النوم؛ اسمعي:

«أنا أنا أنا، غيرك ماليش، بعدك مفيش».

يشير لها بيده أن ترتفع بطبقة الغناء الحادة. تبتسم وتهز رأسها، فيعود

يكرر أنه يريد أن يصبح أبا. وقبل أن تجيب يقوم ليدوّن شيئا ما يلبث أن ينساه في السكة. يرن الهاتف فيجيب ليجده عبد الحليم:

ـ أين أنت؟

وبعد ساعتين يجدُ نفسه، بلا مقدمات، في المطار. يسأله حسن يوسف:

ـ بلغت وردة أننا مسافرون؟

فيخبط جبهته في انزعاج:

ـ وردة!!! أوف! نسيت.

يضربون كفا بكف وهم يضحكون، ويقول عبدالحليم:

ـ أفهم أن ينسى المرءُ بدلة، بيجامة، ينسى مكنة حلاقة، إنما ينسى زوجته؟

إن الصورة البراقة على الغلاف، لعاشق متحرر ينظر للبعيد، تاركا السلسلة الفضية تتدلى على صدره في إهمال، وعلبة السجائر إلى جواره، وأمامه معشوقته ذات الجسد البضّ والعنق الباذخ، تاركة لخيال المتفرج بقية الليلة المفعمة بالموسيقا والشبق ـ هذه الصورة تبهت ويدركها الفتور، ولا تلبث المعشوقة أن تكشف عن وجهها الكلاسيكي المحافظ:

ـ هذا الوضع لا يمكن أن يستمرّ!

فيهزّ رأسه ويكرر الوعود التي لا تلبث أن تتبخر:

ـ تعبت.

ـ سأحاول.

ـ هذا هو أنت، لن تتغير. لا أحد يتغيّر.

وهو يحبها، ويدرك تضررها من هذه الفوضى، ويهمس برقة:

ـ لعلنا لو أنجبنا ولدا...

تشيح بوجهها فيدرك سخافة الجملة، يصمت، ثم يقول في تسليم:

ـ لعلنا بحاجة لهدنة، لأجازة.

كأني شعرت في زمان لاحق بما شعرت هي به، هذا الهوان والذل، التأرجح بين بعد لا تقدر عليه وقرب لا يطاق، وكأني أرثي لحالي في رثائي لحالها، وغاية ما يقال إنه كسّم الحب في كل وقت وكل حين.

## ٥٠

حين أستيقظ وأفتح عيني أدرك أن كل شيء جرى بالفعل، وأنه، مع خالص الأسف، لم يكن حلما. لقائي بأصدقائها في مقهى الشعراء، والشعر، وسهرتنا في بيت صاحبتها، الصوت الغامض في أذني، الغريزة والضحك والهوان، الإشارات الخفية والكلمات والنكات التي تتمنى أنك لم تفهمها. أغمض عيني ثانية على دماغي الثقيل، وأشعر بها تتحرك لتنزلق تحت اللحاف جواري، فأفتح عيني ثانية، وأفاجأ بنفسي أقول:

ـ أنا آسف، بخصوص البارحة أعني...

تضع إصبعها على شفتي:

ـ هذا أكثر مما تحتمل. كان ينبغي أن أفهم ذلك من البداية.

لا أعرف ماذا تقصد بذلك. إنني منهك لدرجة أني لست قادرا على الكلام، ولا قادرا على الشعور بشيء، لا بالخوف، ولا بالرجاء، ولا

حتى بالحزن. إنه شعورٌ بالخدر، سيلازمني بعد ذلك من دون أن أعرف منهُ فكاكا، وكأني أتفرج علي جسدي وهو يحيا حياة لا تخصني، أقول بصوت واهن:

ـ أنا لا أعرف ماذا جاء بي إلى هنا.

وكأني أنتظر منها جوابا، ولكنها لا تجيب. إن علاقتنا تكون في أفضل حالاتها حين تشعر بالذنب، لكن هل هذا ما أريد؟ فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وأنا في الجنة غير أني تعيس، أحترق بالشك والهوان. من يطفئ عقلي ولو للحظة، لعلي أخطأت بالسفر؟ غير أنها تقول إنها تحبني، وهي لا تزال تحتفظ بي في بيتها رغم كل شيء. لقد قدمتني لأصحابها من دون أن أطلب ـ بصرف النظر عما انتهى إليه هذا التصرف. يبدأ الأمر من من نقص خبرتي في التعامل مع صنف النساء، ومن الاختلاف الثقافي بيننا لينتهي بنا إلى الجحيم. من لي بيد ساحرة تمتد فتعيدني إلى ما كنت عليه قبل هذه الحكاية. وهي تكرر في رثاء بصوت متعب:

ـ لو تكف عن هذه الشكوك وعن هذه الأسئلة.

تقبلني وتحتضنني، فأشعر بشيء من الاطمئنان. أقول لنفسي، من جديد، إنني في الجنة، والتصرف الحكيم الوحيد لمن هو في الجنة أن يكف عن التساؤل. دع نفسك واستمتع، وإن الشك والغيرة والغضب كلها من رواسب همجية عبرها الإنسان القرد حين ظهر له إبهام، فقُل لنفسك إنها تحبك، وإلا لماذا تمنحك من نفسها وجسدها كل ما تمنح. لو أتيح لي الآن أن أراها، ولو لمرة واحدة، لسألتها السؤال الذي لا يشغل بالي غيره: هل كان هناك حب أفسدته الظروف والتصرفات المتهورة، أم أنه لم يكن حبا بالمرة، وكل ما فعلته المشاجرات بيننا هي نزعها القشرة عن جوهره الخاوي.

ولكنك تعرف يا دكتور ما سيحدث لو اقتربت منها ثانية!

ترجع مرة من العمل، توقظني وتفتح كيسين أحضرتهما معها:

ـ انهض يا كسول، هيا، جرب هذا.

أفتح فأجد بلوفرا أحمر أنيقا، وبنطلونا أزرق من قماش سميك، أرتديهما بلا فهم:

ـ برافو يا بطل. المقاس مضبوط!

ـ ما هذا؟

ـ ألسنا الآن مرتبطين...؟

ـ ثم...؟

ـ حان الآن موعد لقائك بأهلي...

ثم بدلع محسوب:

ـ أم أنك لا تريد الارتباط بي؟ أنا مجرد بنت فرنسية تلعب بها ولا تريد معها علاقة مستقرة؟!

هل أنكر أني طربت من أعماقي بهذه الخطوة، وبهذا السؤال، حنين حنين حنين، أنا دايبة فيك حنين، واللي بينك وبيني، أشواق كل الأحبة، وحنين المحرومين. أهز كتفيّ كأني لا أبالي، لكني أعلم مقدار ما أشعر به من بهجة. كأني كنت أنتظر هذه الخطوة ولا أجرؤ على طلبها.

ننزل ونتمشى إلى دونفير روشرور يدا بيد، ثم نركب قطار الضواحي، الـRER B إلى بيت أهلها في ضاحية Antony شمالي باريس! أعرف أنها تضيق بالمترو حين يزدحم فأحتضنها. تتفلت مني بتأفف، ثم تبتسم لي كالمعتذرة وتقبلني بسرعة على شفتي قبل أن تضع السماعات في أذنها. ننزل ثم نمشي بضع دقائق في درب زراعي، منطقة تقع بين الريف والحضر

وصولا لبيت صغير جميل تحيط به حديقة مورقة، مثل البيوت التي نراها في كارتون والت ديزني. تشير من بعيد بحماس لرجل يقف أمام البوابة ينتظرنا. لم أكن بحاجة للكثير من الذكاء لأدرك أنه أبوها، غير أني كنت بحاجة للكثير من الصلابة حتى أتجاهل النظرة المُطلة من عينيه، فتدبر.

## ٥١

ولو أنك تأملت الحدوتة الموسيقية لأدركت أنها توشك على نهايتها. إنه فعليا ينفصل عن وردة، ولكنه بسلطة موهبته، والتي أحضرتها قبل ذلك من بلدها إلى حيث يريد، يجيء بها ـ رغم ما بينهما من مشاكل ـ لتقديم تلك الحلقات من برنامج «جديد في جديد» عام ١٩٧٨ ليسجل معها حلقتين. يحتفظ لنا ما تبقى من هذا البرنامج بجلساتهما وهما يغنيان معا، كأنه كان يريد أن يصالحها، بذكرياتهما معا، وكأنه صالحها فعلا!

إنه يستخدم الأغاني التي تُعرّف علاقتهما، «تخونوه» التي صاحبت ميلاد غرامها به، «العيون السود» التي غناها في بيتها، باسما، ليعود بها معه! يغني معها «دندنة» فتبتسم، ويحمر وجهها خجلا من مغازلاته المكشوفة! نعرف فيما نعرف كذلك أن الطلاق تم مباشرة بعد الانتهاء من تسجيل هذه البرامج! ولكن تقديرها لموهبته وغرامها به ظلا قائمين.

عرفت المرأة أنه لا يصلح زوجا، ولكن هل يعني أن كل شيء انتهى؟! لستُ ساذجا، يا سليمان، لأقول إن الفتى لم يعرف الحزن، ولكني حين أتأمل ما جرى لي وأراه في مرآة تجربته أدرك أنه عرف كيف يستمتع بكل شيء، حتى بحزنه. ارتباطه بوردة، وغرامه بغيرها، وحتى انفصاله عنها. الفتى الذي كان لديه من الجرأة أن يرسل لها رسائل غرامية عبر صوت أم كلثوم شخصيا، فيظل يشاغلها وهي متزوجة، ليس من الغريب أن يراسلها

غنائيا بعد انفصالهما، عبر عشيقتين أخريين، للأولى «كان يا ما كان» و«أنا باعشقك» ثم «فاتت سنة»، وللثانية «من غير عتاب» و«زي البحر حبيبي» و«علمناه الحب» وطبعا طبعا، أغنية «آخر هوى».

يسجل في البرنامج كذلك مع ليلى مراد. هو الوحيد الذي نجح في إقناعها بالظهور بعد سنوات الاعتزال الطويلة. تظهر من جديد، بكامل أناقتها وتغني معه أغنيتها القديمة «يا مسافر وناسي هواك». ويقدم معها في البرنامج صوتا جديدا، لفتاة مغربية سمراء لم تتجاوز بعد العشرين من العمر، تُدعى سميرة سعيد! يستعيد صاحب عمره عبدالحليم، بعد رحيله بعام، فيكتب ويلحن رثاءً له أغنية جميلة هي «بنلف» والتي يعطيها لـ وردة و لـ سميرة سعيد في الوقت نفسه، ويغنيانها في البرنامج نفسه! هذه هي المرثية المعروفة.

وفي رأيي الشخصي، فإن رثاءه الحقيقي لعبدالحليم هو جملة الكلارينيت في مقدمة أغنية «حبيبتي من تكون» تلك التي لم يغنّها عبدالحليم أصلا؛ كانت مجرد بروفات وصاغ منها صاحبنا تلك الأغنية وفاءً لصاحبه. حين تسمعها تدرك أنها أغنية بلا كلمات، غاية الأمر أن أميرا من الخليج قرر أن يكون شاعرا واضطر الاثنان ـ بليغ وحليم ـ لمجاملته بصناعة أغنية من الكلمات المتناثرة التي أعطاها لهم. يموت عبدالحليم دون أن يسجل هذه الأغنية، فيتمّها بليغ بعد ذلك وفاءً لذكراه.

من أبوظبي لدمشق لجدة، ومن المغرب للقاهرة. يسافر في رحلة غامضة للهند عام ١٩٨٠ ويسجل في باريس مع موسيقي هندي يدعى ماجد خان شريطا، بتوزيع هندي لموسيقاه مستخدما آلة السيتار. يختار لأغنيته الرئيسة اسم «جزايرية». وحين يرجع مصر يقدم مع سميرة سعيد ألبوما ممتعا شديد الخفة، منسيا للأسف، هو «آخر

هوى» والذي ستجد فيه كل سمات الفتى المبتهج التي صحبتهُ من أول أيامه ـ الاستعانة بجملة شعبية مغرية وصناعة لحن ناجح منها ـ مثل «آه يا لموني» أو«صعيدي ولا بحيري» و«فراق غزالي». يستوقفني تلحينه لجملة «توهة، حبّك يا حبيبي» وترديد الصدى بشكل خاطف مستخدما الموسيقى الإلكترونية.

يتقدم في العمر، يقترب من الخمسين، لكنه لا يشيخ، يواصل اللعب مع الأصوات الجديدة فيصنع «على قد ما حبينا» ليقدم بها علي الحجار، أو «أشكي لمين» ليقدم بها محمد الحلو أولا ثم محمد منير بعد ذلك. لو أنك تأملت جملة الجيتار الساحرة التي يعزفها عزيز الناصر مع منير لأدركت أن الوردة قد تكبر، لكن عطرها يظل فيها.

يظهر الكاسيت ويولّي زمن الأغنية الطويلة، فيودعه بآخر المطولات الغنائية الناجحة، «مستنياك» لعزيزة جلال، ثم «حبيبي يا متغرب» لفايزة ـ رفيقة مشواره منذ البدايات. عطر الوردة الساحر لا يزال هناك، مبثوثا في نغمة مثل «أنا عايزة اشرب من إيدك» ثم بعد كل شيء تبقى من ألحانه لتلك الفترة أغاني مسرحية ريا وسكينة، عام ١٩٨٢، شاهدة على موهبة لا تحتاج لدليل...

## ٥٢

واعلم أن كل شيء كان يمهد لانفصالهما، بشكل أو بآخر. عدم قدرته على التعامل مع حقيقة كونه زوجا، وعدم رغبتها في أن يكون لها أولاد منه، فتجهض مرتين. يمكن للمتجرد أن يتفهم رفضها هذا: إنها لا تعرف أين هو، متى يأتي ومتى يعود، أي حياة أسرية يمكن أن تكون مع رجل كهذا في بيت كهذا. الحب جميل، لكن الحياة في الحقيقة شيء آخر، وهي

مهما كانت مفتونة بها، فهي لا تزال تحتفظ بعقلها. ثمة حكاية غامضة، بعد الإجهاض الثاني، عن سفرها إلى ليبيا عام ١٩٧٧، تؤدي حفلة ناجحة، وتغني فيها «إن كان الغلا ينزاد» وهي أغنية لطيفة حتى وإن كانت لمعمر القذافي! يصفق الجمهور، ويزغرد. وما تلبث أن تكتشف حين تعود أنها ممنوعة من الغناء، وأن أغانيها لا تذاع في الإذاعة بقرار شخصي من الرئيس السادات، الذي كان وقتها في حرب كوميدية مع رئيس ليبيا غريب الأطوار! يتدخل بليغ، بصداقته الشخصية مع السادات، والذي كان يذهب ليجالسه ويعزف له في استراحته بالقناطر. وبعد اعتذار وصد ورد وقرصة ودن، يتم رفع هذا المنع عن حفلات وأغان. وحين يذهب ليبلغها بالخبر، تجيب في فتور:

ـ متشكرة.

يدرك أن مصالحتها لم تعد ممكنة، كما كان يفعل دائما، بكلمة حلوة ونغمة. إن الحياة التي تبدو سعيدة على غلاف المجلة أو في الحوار التلفزيوني، تخفي خلف الابتسامة اللامعة انهيارا مؤكدا. الجمهور الساذج يشاهد فيلم «آه يا ليل يا زمن» ويهز رأسه طربا مع أغانيه الجميلة. يجلس في البيت يتفرج على مسلسل «أوراق الورد» بأغانيه المعروفة، غير أن أحدا لا يراهما وهما ينفصلان فعليا، وهو يغادر شقة سفنكس ليعيش في شقته الصغيرة بالزمالك. تفشل جميع الوساطات، لا محمد عشوب ولا حلمي بكر ولا وجدي الحكيم. يتصل بها أكثر من مرة فلا تجيب، وحين يلتقي بها في إحدى السهرات، تقول بكبرياء جريح:

ـ كنت مشغولة في بروفات في يوم وليلة مع الأستاذ.

اللحن الذي يمنحه لها عبدالوهاب، كأنها تريده أن يشعر بالغيرة، أو أن يعرف أن الدنيا لا تقف عنده، أن بإمكانها أن تتخطاه وتستكمل حياتها

دونه، وهو ليس غبيا أبدا؛ إنه يفهم كل ذلك، يشعر بالذنب، ويترفق بها. يذهب لحضور الحفلة في مسرح البالون، متأنقا، وبعد الحفلة يصعد المسرح يقبلها ويناولها باقة الورد:

ـ فيك الخير.

ـ قلت أجرب، لعل الجميل يرقّ.

ـ الجميل يتمنى لك سهرة سعيدة مع صبحي فرحات.

لا سر يمكن إخفاؤه في هذا الوسط الفني الضيق، والصديق المنتج صبحي فرحات الذي عرّفه على الصوت الشامي الجديد، ميادة الحناوي، يسأله عن رأيه:

ـ آن لجيش مصر أن يقتحم حلب.

ـ على بركة الله.

ترن الضحكات العابثة، تستعد الفرقة للبروفات، ترتيبا للغنوة الجديدة التي سيلحنها لها. ولكن السؤال عما سيفعله في أمر وردة يزداد إلحاحا، يزورها ثانية فلا يجد غير استقبال رسمي بارد، بلا ترحيب، فيسأل مُسلما بالهزيمة:

ـ ستأتين معي لأبوظبي، لتسجيل جديد في جديد.

ـ ولم لا، نحن ملتزمون بعقد.

ويهز رأسه خجلا من وضع لم يعد يمكن تغييره. يتمنّى لها ليلة سعيدة ويغلق الباب وراءه. يتأمله في شجن، قبل أن يعود للسهر، للفوضى، للحياة التي لا يعرف الحياة بدونها.

# ٥٣

نصل لبيت أهلها، أمام بوابة الحديقة أجد أباها وأمها في انتظارنا. يستقبلاننا مبتسمين، ولكنّي لست غبيا؛ الكراهية والاحتقار في نظرة أبيها لا تحتاج إلى أي دليل. تعالَ يا دكتور قف مكاني وشاهد ما شاهدت ثم اتهمني بعد ذلك، مستخدما مصطلحات الطب النفسي، أني أتوهم، وأني مصاب بجنون الارتياب. يصافحني برقة ويبتسم لي بتهذيب، لكنه يقول كل ما يريد بعينيه، دون كلمة. تحتضنني أمها بحماس، وتقول مُعلقة على نحولي:

ـ لا تترك نفسك لماريل؛ الباريسيات لا يجدن الطبخ.

فيضيف والدها بابتسامة صفراء:

ـ اعتنِ بأكلك وإلا متّ جوعا.

ترتفع الضحكات الرسمية على نكتته السخيفة. ثمة عطر خفي من الرثاء أو القرف يملأ الهواء، وكلما نظرت لأبيها أجده يتفحصني مليا، كأنه على وشك شراء قط من متجر حيوانات أليفة. بمجرد جلوسنا يصب أربعة كئوس من النبيذ، يقدم لي واحدا:

ـ هل تشرب؟

ـ أحيانا، ولكني لست معتادا.

ـ أعرف أن المسلمين لا يشربون.

بماذا ينبغي أن أجيبه إذن؟ ولكنه لا ينتظر مني جوابا! يتكلم عن عادات الشرب الفرنسية وأنواع الكحول المختلفة وما يفضله منها. أبذل مجهودا لأتابع ما يقول، ثم يغير الموضوع فجأة:

ـ كيف جئت لتغطية مهرجان كان، في زيارتك الأولى، هل أنت صحفي رسمي؟

أخبره بأنني كتبت في الصحافة عدة مقالات، بعضها في السينما. وحين أجده يحدق فيّ كأنه ينتظر مني استكمالا للكلام يخطر في بالي أن أقول:

ـ لنقل إن السبب الحقيقي لمجيئي هو ماريل.

فتندّ عن الأم آهة معجبة، تأتي من غرفة الطعام بخطوة سريعة، تقبلني على رأسي:

ـ هل سمعت ذلك؟ الفتى ساذج ورومانسي.

وتعود ثانية لإعداد المائدة والثرثرة مع ماريل، أما هو فيهز رأسه باستخفاف ويغير الموضوع ثانية:

ـ ما الذي تخطط له مستقبلا إذن؟!

أتجرع النبيذ الأحمر. إنه منتن الرائحة شديد المرارة. أشعر بنار في جوفي، ولكن الحوار الثقيل معه لا بد أن يستمر. إنه يسأل بلا توقف، وبلا أي تعبير على وجهه، يسأل عن كل شيء، شهادتي في الحقوق، دار النشر، الكتب التي ترجمتها ونشرتها، كيف أترجم من دون دراسة ومن دون شهادة رسمية. يسألني عن المنحة الخاصة بالرواية، ما هي معايير الاختيار؟ يضيف أن هذه المنح يتم تمويلها من أموال دافعي الضرائب. الله يحرقك أنت ودافعي الضرائب في ساعة واحدة! أتأرجح في الإجابة بين محاولة السخرية مما يحدث في مصر، ومحاولة إظهار أن وضعنا ليس بهذه الرداءة التي يعتقدها. أقع في التناقض أكثر من مرة، وأشعر بأني أنزلق إلى حيث يريدني بالضبط. تستفزني ابتسامته الساخرة فأفقد سيطرتي تحت هيمنته القاسية.

ـ هل تخطط للبقاء في فرنسا إذن؟

ـ ربما...

ـ لا شك في أن الوضع في مصر غير طبيعي وغير مطمئن.

ـ طبعا طبعا.

ـ لكن أهلك هناك. هل ستعيش من دونهم؟ أم أنهم يفكرون في المجيء مثلك.

أتذكر أمي وأبي، أختي، شلة الجالسين في المسجد بين الفجر والشروق، وربما لأول مرة أشعر بالحنين لهم؛ كم صار وجود هذا الرجل ثقيلا مُلحا على قلبي مثل هذا الرجل، فمتى يتوقف هذا الامتحان الشفوي العقيم؟ يستأذنني ويقوم لتغيير الكأس. يتكلم مع ماريل وأمها. العجيب أني كنت أفهمه بوضوح حين يحادثني، إلا أني لم أفهم كلمة واحدة من كلامه معهما. أفكر في أنه ربما يفعل ذلك عن قصد. وحين يعود يقرر أن يفتح موضوع الثورة، يحكي عما قرأه ويناقشني في اقتناعاتي! يا حضرة المسيو، إن كل ما أذكره من الثورة أني نمت مع ابنتك ليلة التنحي، فدعني وشأني.

ـ لقد قرأت شيئا عن كشوف للعذرية جرت للناشطات بعد الثورة بفترة قصيرة.

كشوف العذرية؟! أنا نفسي لا أذكر متى حدث ذلك ولا ملابساته، واحدٌ من مئات الأحداث التي ازدحمت بها تلك الأيام...

ـ أريد أن أعرف إن كان صحيحا ما قرأت. كما تعرف، الجرائد الفرنسية تميل للمبالغة والتهويل، والقارئ الفرنسي مثلي ساذج، يتصور الشرق بطريقة بدائية...

أنا أكره هذا الرجل، أكرهه من كل قلبي، أكرهه ولا أريد أن أراه ثانية، وليكن ما يكون.

- ربما يمكنك أن تشرح لي إذن ما حدث.

- لا أظن...

- لم؟

- ببساطة، مسألة العذرية تقع في صلب الخلاف الثقافي بيننا. كيف أشرح لك ما لا تفهم دلالته! إنها لدينا شيء مقدس، أما المرأة الفرنسية فهي - حسب ما فهمت - لا تتذكر متى ولا مع من فقدت عذريتها.

ثم أسدد نظرة مقصودة لماريل. أبتسم، أجرع الجرعة الأخيرة من الكأس وقد انغلق الحوار بيننا أخيرا. أعرف أننا لن نتكلم حتى آخر السهرة، وأنه لن يرحب تماما بمقابلتنا بعد ذلك، ولكنني أشعر بارتياح عميق، فتدبر.

## ٥٤

ولو أنك تأملت لوجدت العصفور يفلت من القفص الذي لم يدخله أبدا، والموسيقى تتوارى، فلا أصوات ولا اهتمام ولا سمّيعة، ولم يبق إلا مضغ البقية المتبقية في كأس العمر. في حفلة خاصة في مسرح الأندلس بالكويت عام ١٩٨٢ يغني ألحانه لأم كلثوم. هذا هو بليغ. راقبه كيف يغني، تعزف الفرقة الموسيقية المذهب ثم تنتقل بالعزف ممهدة لجملة «أهو ده اللي مش ممكن أبدا»، إلا أنه يعابثهم ويغني «أنساك» مرة أخرى، ثم ينظر لهم بطرف عينه ليرى وقع هذا المقلب عليهم!

موضة الخليج بدأها مع عبدالحليم مبكرا، لكنها في الثمانينيات تصل

لمستوى متوحش. هذه هي أصعب مرحلة في توثيق أو حصر أغانيه. يستحيل أن تحصي عدد المطربات اللاتي لحّن لهن في هذه الفترة. كان يلحن لكل من يطرق بابه حتى وصل الأمر لراقصات الدرجة الثالثة في الملاهي. بيته يتحول لمحطة أصيلة للباحثين عن جلسة مزاج وسماع نغمة حلوة، وسهرات الأنس تمتد للفجر حتى ينتفض البلد المؤمن المذكور في القرآن، ويستغل موت سميرة مليان في بيته، ليغضب عليه وتضطره للسفر إلى باريس...

إن ما يجري مسرحية هزلية لا تضحك أحدا: المحاكم والمحامون وتقرير الطب الشرعي والحكم الابتدائي وحكم الاستئناف. قبل جلسة صدور الحكم يدرك أن موقفه مقلق، وأنّ عليه أن يسافر. يرفع سماعة التليفون بعد سنوات القطيعة؛ يتصل بالمحبوبة القديمة، البنت الحلوة ذات العنق الأبيض والضحكة الساذجة:

ـ يا بت، عندي لك لحن.

ـ الله يخرب بيتك.

ـ أكثر من ذلك؟!

ـ مع كل هذه الضجة، ما زال فيك دماغ لتلحن؟

ـ تعالي واسمعي بنفسك.

وترن الضحكة الماجنة القديمة. تأتي وتجلس بين يديه، وتسمع. يمنحُها لحنا لطيفا هو «من غير ألوف»، لحن عودتهما للعمل معا بعد انقطاع. حين أستمع له أتساءل: هل قصد صاحب الدماغ الملعون أن يسيطر على اللحن صولوهات القانون، سخرية من القضية التي تطارده كالفضيحة؟ يقود الفرقة الماسية بنفسه بدلا من أحمد فؤاد حسن كما هو معتاد، مرتديا بدلة بيضاء أنيقة، وتلوح على وجهه ابتسامة هازئة كأنه يخرج

لسانه للمدينة المنافقة التي توشك أن تموت تحت ثقل الزمن والعقيدة البالية. تطربني الجملة الموسيقية الجميلة «سلم/ اتكلم/ قول واحكي معايا»، ثم دقات إيقاع الواحدة والنص في «من نظرة عينيك/ مال القلب ليك» ليصيح الحضور في الحفلة وترتفع الزغاريد، ثم يدوي التصفيق، ابتهاجا بلحن الرجل الذي لا يعرف إلا أن يكون مبتهجا.

في اليوم التالي للحفلة يسافر لباريس، وبعدها بأسبوع يصدر حكم محكمة الاستئناف ضده بالحبس سنة في قضية تسهيل الدعارة!

يشرح سليمان مستفيضا، لدرجة تدعو للإملال، أن الملمح الرئيس لموسيقى بليغ في تلك الفترة، فترة النصف الثاني من الثمانينيات، هو الحنين لتلك الفترة القديمة في الغناء، العشرينيات والثلاثينيات. ترى ذلك في موسيقاه لمقدمة فيلم «شوارع من نار» التي تعتبر ملخصا موسيقيا بديعا لفترة زمنية كاملة في فترة لا تتجاوز دقيقتين!

ثُمّ ألحانه لسلمى الفلسطينية، وتحديدا «إلا اذا حبيت» الأغنية التي هي أشبه بمعارضة موسيقية لأغنية «أنا هويت وانتهيت» لملهمه الكبير، في الموسيقى والحياة، سيد دويش. الجمل الموسيقية الطويلة المسترخية، التمهيد لدخول المطربة بالتبادل بين القانون والكمنجة، في تقليد أصيل للتخت الشرقي، ثم منطق التلحين نفسه؛ تلحين كل كلمة منفصلة، وربما استخدام أكثر من مقام موسيقي داخل الكلمة الواحدة. إن كلمة «كلام» تبدأ بمقام في حرف الكاف وتنتهي بمقام آخر، الحجاز، في «لام» هذا بالإضافة للتكرار، والسلطنة. الجملة البليغية موجودة رغم كل شيء؛ هي هنا جملة «أنا هويت والسبب/ نظرة/ وهمسة/ وابتسام/ وسلام» تصاعدها الشاكي، اختياره الدائم للنوتات العالية، النوتات الصارخة، وهو نفس المنطق في أغنية «يا وابور» التي ستغنيها ذكرى بعد ذلك، أو «مسا الجمال» التي ستغنيها لطيفة، أو «لا ينقصنا إلا رؤياك» نادية مصطفى أو

المثال الواضح تماما «أشرقت شمس الأماني» تلك الأغنية المنسية التي غناها مع علي الحجار، ولم يضمها ألبوم ـ ولكنه سيغنيها بعد ذلك في مسلسل بوابة الحلواني.

إن نزوعا واضحا للمنطق التلحيني في العشرينيات يسيطر عليه تماما، كأنه حنين لماضيه الشخصي، أو انزعاجه لما يحدث في المجتمع المصري، الذي فقد تسامحه، ولم يعد قادرا على استيعاب فنان مثله.

إنه حين سافر إلى باريس، سافر فعليا بهذا الحنين. ولكن دائرة الفقد الزمني تكتمل بفقد مكاني حين يجد نفسه وسط الضباب، والغربة الكابية، الأصحاب البعيدون واللغة الأعجمية، افتقاده لنجوميته، في باريس التي لا يعرفه أهلها كما يعرفه أهل مصر. إن تغييرا ضخما لم يطرأ على ألحانه بسفره ذلك. تكاد موسيقاه فيما بعد السفر تكون استكمالا لذلك النزوع القديم قبلها، وحين يجد نفسه محبوسا في يوم ممطر، ويضطر للانتظار، تدهمه موجة من حنين جارف لكل شيء. يعود إلى البيت مشيا تحت المطر، يخلع معطفه المبلل ويجلس على الأرض، يدندن على العود مغنيا للغربة، ولوحدته، ثمانية أغان متتالية، أفضلها هي التي تحمل اسم الغربة، في الشريط الذي سيحمل الاسم ذاته، وسيغنيه بصوته!

ـ لعلك كنت في باريس وقتها يا سليمان، وحضرت صدور هذا الألبوم.

وكالعادة، ينطلق الصوت الأجش الغليظ، مُغنيا بلا داع:

«دقيت على الأبواب قالوا كفاية/

ده مفيش حد...».

ياه! كيف غابت عن بالي هذه الغنوة من تلك الفترة الباريسية، تلك الأغنية التي أرسلها لـ عدوية خصيصا من غربته! أجدني أغني معه، مستسلما للبهجة المباغتة:

«القمر مسافر/

والسهر مسافر/

والفرحة مسافرة/

حتى الحزن سافر»

أي والله يا عم سليمان صحيح، مفيش حد...

## ٥٥

واعلم أنهما يسافران معا لأبوظبي، ١٩٧٨، حسب الاتفاق. تلك الفترة الغامضة التي تختلط فيها الحقائق بالشائعات الصحفية بالفضائح بالأساطير. تدخل بقدميك غابة مظلمة وأنت تحاول استخلاص حكاية لها رأس وقدم. في مشاهدهما معا يغازلها من جديد أمام الجمهور فترتبك. هذا الحب الأصيل، كيف يمحوه الزمن أو أي خطأ مهما كان. غير أنه يتعامل مع هذا الحب بشكل مجاني، يغازلها علانية ثم يخونها علانية.

ينتهيان من تسجيل أغانيهما معا في البرنامج، ثم ينقطع الاتصال! تذهب هي للإقامة في فندق منال، الهادئ المستقر على أطراف المدينة، فتكتشف حين تصل أنه سيقيم بمفرده (بمفرده؟) في فندق الخالدية، والذي يقيم فيه باقي الفنانين. لا يلبث العيار أن يفلت تماما، تمتلئ الأغلفة بصوره مع المطربات، وتتصدر مجلة الموعد صورته وهو يحتضن مطربة سمراء جميلة، لم تبلغ العشرين عاما، اكتشفها بليغ حديثا وتحمّس لتقديمها للجمهور، حين ظهرت معه في حلقته مع ليلى مراد...

مطربة تدعى سميرة سعيد!

تتفرج الزوجة المنسية على صوره متغندرا متأنقا وهو يحتفل بعيد

ميلاد النجمة القادمة، وتستعيد الشائعات القوية التي سبقت مجيئهما، عن علاقته ولحنه المرتقب لميادة الحناوي. تعتصر منديلها بيدها غيظا وهوانا، وتفلت منها صرخة متشنجة وتسقط أرضا من ألم غير محتمل لمغص حاد، وتنتقل للمستشفى لإجراء عملية طارئة في الأمعاء!

يقال إنه نسي، ويقال إن غرامياته شغلته عن العناية بها ـ أو حتى زيارتها. يتذكرها بعد يومين، وحين يتصل بها تليفونيا لا يبدو صوتها معاتبا أو حزينا أو جريحا أو مباليا. إنها تقول بوضوح منهك، وبهدوء بالغ لا يسمح لا بمعارضة أو مناقشة إنها تريد الطلاق، تريده ولا تريد غيره، الآن، وحتى قبل أن تعود لمصر...

ـ ستعودين لمصر؟

ـ صباحا.

تطلب منه الشرائط التي تحوي تسجيل حلقاتها معه، فيعرف أنه لم يعد هناك مساحة للكلام. يقبل جبهتها ويخرج في صمت، وبمجرد أن يدخل غرفته يتصل بالمحامي محمود لطفي في مصر، ويقول في اختصار:

ـ طلق يا محمود، طلّقها بالتوكيل الذي معك.

تقول الأسطورة إنه مضى يتمشى على البحر بعد قرار الطلاق؛ لعله شعر بالندم، بالذنب، لعله كان يرثي لامرأة شاء لها الحظ أن تقع في هوى رجل فهم الدنيا كما لم يفهمها أحد من قبل ولا من بعد. يجلس على البحر مرتديا جلبابه الواسع والسلسلة الفضية الكبيرة بالـ ماشاء الله التي أهداها له الملك الحسن الثاني. يمد يده ويصطاد النغمة الهائمة. لعلها كانت «كان يا ما كان» أو «أنا باعشقك» ولعلها كانت «من غير عتاب» لـ سميرة سعيد، التي أقدّرُها التعبير الأقرب عما كان يشعر به لحظتها. ينتهي من الغنوة،

ولكنه يدرك الحقيقة جليّة، آن لمسرحية الزواج السخيفة أن تنتهي وأن يعود البلبل ليطير في فضاء حريته، فيشعر بالارتياح.

بعد عدة جولات وسفر يعود إلى مصر، وبمجرد عودته، يكتشف أنه مطالبٌ فورا ببيع سيارته وشقته؛ مشهرا إفلاسه!

## ٥٦

أقسى من الموت انتظار الموت، فمتى ينتهي ما نحن فيه؟ لقائي بأصدقائها تكشّف عن تجربة مريرة لا أريد تكرارها، ولقائي بأهلها، أو بأبيها المتعجرف، لم يكن أكثر من فرصة لتأكيد أفكاره المسبقة عني، نصابا طامعا في ابنته. كلما فكرت وجدت أنه سواء تسرعت بالرد العدواني، أو أنه دفعني إليه دفعا فإن النتيجة كانت لتبقى واحدة. لم تشر للأمر من قريب أو من بعيد، وكان ذلك أشد قسوة من العتاب أو الاعتذار. بعد يومين يتفتت تماسكي:

ـ ماذا كان رأي أهلك فيّ؟

فيتردد الهواء في تجويف حلقها الفارغ، قائلة بابتسامة رسمية:

ـ أحبّوك طبعا. قالوا إنك لطيف، وإننا مناسبان بعضنا لبعض.

هذا كلام فارغ، وهي تعرف أنه كلام فارغ، فتنخفض بصوتها نغمتين:

ـ وقالوا إنه ينبغي أن تأكل قليلا؛ لأنك نحيل جدا.

ثم، إغلاقا للدائرة حيث تنغلق في كل مرة، تقترب مني وهي تحك كتفها في كتفي:

ـ ولكني لا أبالي. أنت تعجبني هكذا.

ثم يحدث ما يحدث كل مرة، ولعله الشيء الوحيد الذي يقيم بناء هذه العلاقة المشوهة حتى الآن. لعل الطب النفسي يا دكتور يمكن أن يفسر لنا لماذا كان الجنس بيننا في تلك الفترة أروع شيء حصل منذ تناول آدم التفاحة وهبط للشوك والحزن والوحشة! كنا نلتهم بعضنا بعضا، حرفيا، ولا شيء غير ذلك. تمضي لعملها صباحا وتعود. أحاول شغل نفسي بأي شيء، أذاكر اللغة الفرنسية أو أحضر محاضرات تمهيدا للفصل الدراسي المفترض.

قل لمن في مصر، منشغلين بالانتخابات الرئاسية، وذلك العدد المهول من الأسماء الخرافية المترشحة لعرش مصر ـ إن طلال فيصل في باريس، يتلقى منحة لكتابة رواية لا يعلم عنها شيئا، ويستعد لتحضير الماجستير بلغة لا يتقنها، ويقيم عند سيدة فرنسية لا يعرف بالضبط ما يربطه بها. من كان يصدق أن نسمع في مصر ذات يوم عن مُناظرات للانتخابات الرئاسية. أعود أشتبك على الفيسبوك دفعا للملل، أشاهد باسم يوسف وأشتم الإخوان والفلول والثوار وأتلقى الهجوم من الجميع ثم ينتهي كل شيء بضغطة على زر الـDeactivation فمن يمنحني السعادة ـ أو راحة البال ـ بضغطة زر.

ومتى ينتهي هذا الهراء؟ متى تطلب مني أن أرحل؟ صرنا نتشاجر على كل شيء وأي شيء. تبدأ تعلق على تصرفاتي، ملابسي الملقاة، إزاحتها لكتبي. هل انتهى رصيد العسل؟ هل بدأت تستثقل الآن وجودي؟ تلتفت لي ذات مرة ونحن نشاهد فيلما، وتقول دون مناسبة:

ـ أنا لا أريد الزواج. لا بد أن يكون هذا واضحا.

ـ أنا لم أقترح الزواج.

ـ أعرف كيف يفكر المصريون: الزواج والأسرة والأولاد. أنا لا أريد ذلك.

ـ حين أطلب منك الزواج يمكنك أن ترفضي ساعتها.

تضحك بعصبية ولا تعلق. هذه سخافة مجانية بلا مبرر، بلا أي مبرر. يحدث أن نختلف من وقت لآخر، على تفاصيل تافهة، فأقول مرة دون أن أنتبه:

ـ هل كنت تتصرفين هكذا مع طليقك؟

يربد وجهها، و ترد بعجرفة:

ـ نعم، هكذا بالضبط.

ـ لا عجب إذن أنها انتهت بالطلاق.

وتباغتني بأنها تجهش بالبكاء، بلا مقدمات. أعتذر، وأرقب تلك الملعونة، ذات الجسد الصغير، المصمتة دوما، قليلة الكلام، قليلة التعبير عما يدور في خاطرها، وهي تفقد سيطرتها، وتبكي كالأطفال من حكاية يبدو أنها لم تبرأ منها تماما. أحاول ألا أفهم ما يعنيه ذلك، ولكني كلما مضى الوقت أدرك بوضوح أن هذا هو الشيء الوحيد الذي كان يكسر عجرفتها، يتسرب الألم فيملأ مسامي، أرتدي ثيابي وآخذ كتابا في يدي:

ـ إلى أين؟

ـ أتمشى قليلا، إلى Parc Montsouris، وربما أكتبُ هناك قليلا.

أتمشى وصولا للحديقة. أين قرأت تلك العبارة، الحب هو الوعي الحاد باستحالة التملّك. إنني أشعر برغبتها، لكن الحب؟ كيف يبدو ذلك، كيف نعرف إن كان شخص ما يحبنا، يحبنا كما نريد، بنفس الدرجة. قل لي خمسة فروق بين الحب والإدمان واكسب رحلة عُمرة إلى باريس وعلاقة عاطفية سعيدة. أصلُ وألقي بنفسي على مقعد خشبي في ركن بعيد.

يستلفت انتباهي مصباح قديم ملقى بإهمال، أمدّ يدي وألتقطه وافركه فيخرج لي عفريت، وقلبي المثقل لا طاقة به أن يندهش، فأسأله لأني ينبغي أن أفعل:

ـ المفروض أنك عفريت مثلا؟!

ـ طبعا!

ويضيف في زهو:

ـ أنا عفريت الخلافة الأمويّة، حبسوني من ألف عام، واليوم فقط أقدرُ أن أخرج.

ـ ولم اليوم تحديدا؟!

ـ لا تكن تافها، إنما خرجت لأنك فركت المصباح يا عزيزي!

ـ وماذا يفعل عفريت الخلافة في باريس! آه يا كذاب!

ـ إنما جاء ليحقق حلمك يا مسكين. فاطلُب وتمنّ.

ـ هل أنا سعيد؟

ـ أنت البؤس نفسه يا مسيو.

ـ كيف أكون سعيدا، طيب؟

ـ مهمتي أن أجيب الطلبات لا أن أجيب عن الأسئلة!

ـ هل أحبّتني ماريل فعلا، أم أنني كنتُ مجرد Rebound لفشل علاقتها السابقة مع طليقها؟

فيقهقه، ولا يجيب. أسأل:

ـ هل أنا موهوب فعلا، أم مجرد نصّاب؟

وتدمع عيناه من فرط الضحك، ولا يجيب.

ـ أنت عفريت لا نفع فيك. طيب سؤالٌ أخير، أبقى هنا أم أعود لمصر...؟

فيبتسم، مُصرا على الصمت، لكنّه يشير بطول ذراعه إلى الضفة الأخرى. أتأمل المبنى الذي يشير إليه، وأفهمُ ما ينبغي أن أفعله، ثم أجد يدا حانية على كتفي، أنظر فأطالع العينين الخضراوين:

ـ حبيبي، أنت تكلم نفسك؟

تجلس إلى جواري، فأترك رأسي على كتفها الضئيل:

ـ كنت أكلم عفريت الخلافة. كنت أسأله ما إذا كنت تحبينني فعلا أم أنني مجرد...

فتضعُ فمها على فمي، كأنما هو الجواب الشافي لكل سؤال، وتأخذ يدي:

ـ هيا، هيا معي إلى البيت.

* * *

ننتهي مما نفعل وتدخل هي لتنام، أقلب بلا تركيز في مجلة فرنسية اشتريتها دون أن أفهم حرفا. وحين أدرك أنها راحت في النوم أقوم للمكتب وأنفذ الخاطر الذي يلح على بالي من أيام، من أسابيع، ربما من أيام الزيارة الأولى لها. الغريب أني لم أشعر بأي خوف ولا قلق وأنا أفعل ذلك. أفتح الكمبيوتر الخاص بها، أفتح دفاتر مذكراتها، الرسائل القديمة التي لمحت مخبأها. أفردُ كل شيء أمامي وأبدأ أقرأ، مستعينا بالصبر والفضول وجوجل ترانسليت.

هذه هي الحقيقة إذن، ولا شيء غير الحقيقة. ها هو ذا الشك يتجلى عن أبشع حقيقة ممكنة، ها أنت ذا ترى لماريل وجها آخر، المرأة المتحفظة قليلة الكلام المقتضبة دائما يظهر لها فجأة لسان، لسانٌ كان منطلقا مع رجل آخر. ها هي ذي تستعطف وتعتذر وتستفسر، تكتب رسائل طويلة ولا تتلقى ردا، تتوسل وتسأل نفسها وتعاني نفسَ ما أعانيه. ها هي ذي تحلم به وتقارن بيننا في المنام كما تقارن بيننا في اليقظة! تتحدث عنه مع معالجها النفسي، والتواريخ لا تكذب! التي قالت إنها لا تريد زواجا ولا أطفالا تقترح هنا عليه أسماءً لأطفالهما معا، وبيتا يشتريانه، وحديقة صغيرة تضمهما. ها هو ذا طليقها يتخذ شكلا وصوتا وصورة! ردوده القصيرة عليها، المقتضبة.

أقرأ وأقرأ، بعض الإشارات لا أفهمها، ومزاح مكشوف عن رغبتها في شرب نبيذ الـ Sept Lunes معه، فأتذكر تعليقها أمام مكتبة ديوان، وأبتسم في مرارة! أقرأ وأقرأ، أفهم وأبتسم؛ إنما هي حكاية واحدة مكررة مملة لا نفعل فيها شيئا سوى تبادل الأدوار، فلماذا لم تخبريني منذ البداية يا صغيرتي؟ أم أنه كان ينبغي علي أن أفعل ذلك بنفسي، أمد يدي وأعرف الحقيقة القاسية وحدي.

وأرفع رأسي لأجد العينين الخضراوين الجميلتين، مرتاعتين، تطالعانني من وجه مذعور عاجز عن النطق، ولكني لم أعد آبه بشيء، أي شيء، فتدبر!

## ٥٧

ولو أنك تأملت المحطة الأخيرة، لوجدت صاحبنا بعد عودته من باريس، وصدور حكم البراءة المتفق عليه، يختتم حياته الموسيقية بتتويج

واضح وملخص مفيد لأسلوبه الموسيقي. والأهم من ذلك، لرؤيته الكبيرة للحياة وللموت. إن المشوار العابث الصاخب ينتهي بثلاث أغنيات، يفترض أنها أغانٍ وطنية، بينما عنوان كل منها يصلحُ كإفّيه في حد ذاته؛ أغنية لوردة في عيد الشرطة باسم «أنشودة في حب مصر» قبل رجوعه مباشرة من كلمات لواء يدعى إبراهيم موسى، إلا أن لمسة بليغ في الكلمات واضحة:

«العيلة ويا العيلة/

سهرانة ويّانا والليلة/

والأمن والأمان/

أجراس جنب الأذان»

ثم أغنية «اللي بنى مصر كان في الأصل حلواني».

يقاطعني سليمان، ربما لأول مرة منذ عرفته، بشيء من الحدة:

ـ بوابة الحلواني لحن عظيم، يُقدّره أي فاهم في الموسيقى! مطلعها، ذلك النداء الكورالي بجملة لحنية حرة هادرة، بدون إيقاع، بندُقّ ندقّ بوابة الحياة بالإيدين قومي! وتلحينه الجملة الافتتاحية ـ اللي بنى مصر كان في الأصل حلواني، بلحنين مختلفين من نفس المقام، البياتي، مرة من الكورال، ثم مرة ثانية بصوت علي الحجار. يكفيه جملة الكَوَلة الجميلة التي عزفها القدير عبدالله حلمي، هذه الجملة التي لا يمكن لغيره كتابتها...

ـ لا أقصد اللحن، ولسنا بصدد مناقشة موهبة الرجل، فلا خلاف عليها! فلا تنفعل. إنما أعني الأغاني الوطنية، والتي لا يمكن أن يكون كلامها مكتوبا بجدية. عندك مثلا مطلع كوبليه يبدأ وينتهي مكون أحد عشر

اسما وصفة متتاليين، بدون فعل واحد، تأمل «وادي وبوادي وبحور وجسور وموانى، توحيد وفكر وصلاه تراتيل غنا وابتهالات» مالهم؟ مجرد أسماء متتالية، بلا فعل، معان مجردة معلقة في الفراغ لا تمارس سوى فعل الوجود، فعل الوجود الكسول، إني أكاد أسمع صدى ضحكته الساخرة يجلجل وهو يلحن هذا الكلام الفارغ.

يأخذ نفسا عميقا، وألاحظ أنه، ربما لأول مرة، منزعج بهذا الشكل:

ـ والأغنية الثالثة...؟

ـ أغنية أنا مـ البلد دي، هل تذكر ذلك الكليب المضحك الذي تم إنتاجه على عجل أيام حرب الخليج...

يمد يده بحركة عصبية ويشغل تلك الأغنية، فأشعر بأن شيئا ما ليس على ما يرام! نستمع للأغنية كاملة من دون أن نتكلم، وبعد أن تنتهي تفلت مني ضحكة رغما عني. يبتسم ولا يعلق. أتذكر شيئا، فأقول قبل أن أنساه:

ـ هل عندك مانع أن تأتيني خطابات على عنوانك هنا...

ـ جوابات غرام يا مصري يا مجنون؟

أفكر في أن أشرح له احتياجي لعنوان ثابت. أنني بحاجة لتسوية مشاكلي مع القانونية المؤلفين الذين قاموا برفع قضايا نصب عليّ. قمت بإرسال عدة أخبار لتنشر في الصحف المصرية الثقافية عن رواية «بليغ» وقمت بإعادة تسجيل الموقع الإلكتروني لدار النشر، وأحاول الآن استصدار سجل تجاري جديد. كنت بحاجة لعنوان ثابت تتم عليه المراسلات ويتم به التسجيل، ولا أريد استخدام عنوان سكن اللاجئين. ثم أجد المسألة أكثر تعقيدا من أن أشرحها له بدماغه الضيق، فأقول باختصار:

ـ بالضبط، من أجل الجوابات الغرامية.

يقطع ورقة من نوتة صغيرة على المنضدة، يكتب فيها على مهل العنوان، ثم يعطيها لي، أمد يدي فيحركها للخلف ـ كأنه يلعب مع طفل صغير! هل يظن نفسه بذلك خفيف الدم؟ أبتسم تأدبا، وأمدّ يدي ثانية لآخذ الورقة، فيمنحني إياها أخيرا. أقلبها بين يديّ، أنظر فيها وأقرأ العنوان المكتوب بخطه الأنيق:

31 Rue Roger Salengro,

93140 Bondy, Paris

France

بينما ترن ضحكته السمجة عالية في المكان...

## ٥٨

واعلم أننا على قلة المعلومات المتوافرة حول تلك الفترة الواقعة بين الطلاق وبين الحادث المشئوم وسفره لباريس، فإنه بالإمكان رسم صورة شاملة للحفلات والسهر الذي لم يكن ينقطع في بيته بميدان سفنكس بالمهندسين. بعد عودته من أبو ظبي وإتمام إجراءات الطلاق فإنه لا يكف عن السفر أو السهر، ويجد أن الديون قد تراكمت عليه، تكاليف الطلاق وتكاليف الحياة الصاخبة. يضطر إلى أن يعلن إفلاسه، ويضطر لبيع سيارته، ويشتري سيارة فولكس، وينتقل مؤقتا للحياة مع أخته صفية وأولاد أخيه حسام، وحين تخبره أخته بقلقها عليه يهز رأسه في استهانة وهو يشير إليها:

ـ المزيكا هنا لا تنفد، لا تقلقي.

ويعرف كل من عاش تلك الفترة سيطرته على السوق، كيف كانت كل تاكسيات قاهرة الثمانينيات تضج بأغانيه لميادة الحناوي وفايزة أحمد وعزيزة جلال. صار من الممل أن نكرر تلك الحقيقة الثابتة: إن أذنه مضبوطة على النغمة الناجحة، في كل وقت وفي كل مكان. يصبح ملكا للكاسيت كما كان ملكا للأسطوانات. بعد عدة أغان ناجحة وحفلات هنا وهناك يخرج من وضعه المالي المتعثر ويستعيد سهراته وضيوفه، باختصار، يستعيد حياته الصاخبة ثانية.

الحياة التي كانت سببا في حملة الكراهية التي اشتعلت ضده حين حدث ما حدث في سهرة ديسمبر ١٩٨٤!

السهرة تضم أصدقاء وفنانين مختلفين، المغاربة محمد وأحمد التازي وزوجتيهما، الثري السعودي عبدالمجيد توردي، شاعرة جزائرية مغمورة، ومطربة مغربية سمراء نحيلة ذات وجه طفولي كما يظهر في الصور تُدعى سميرة مليان، ثم الوجوه المألوفة في بيت بليغ دائما، بهجت قمر وصلاح عرام والمذيع كامل البيطار. البعض يضيف للقائمة أسماء أخرى، سياسية أو فنية، أسماء وزراء - مثل صفوت الشريف - وأسماء أمراء عرب، لتكتمل تلك الصورة الذهنية لدى الناس عن الحياة الداعرة التي كان الرجل يعيشها، حياة كاملة من الغناء والشرب والجميلات، واحدة داخلة وواحدة خارجة، عربدة تامة بلا حدود.

هل يعنينا من كان هناك، أو ماذا حدث، حين نتحدث عن رجل قرر من أول لحظة أن يفعل ما يحلو له؟ هل تعنينا محاولة الثري السعودي مغازلة البنت المغربية والتي تعلن عن إعجابها ببليغ، تقوم خناقة بينه وبينها، ولعل المرأة أصلا مضطربة نفسيا، واحدة من فتيات الـborderline personality disorder الفاتنات اللاتي تنتهي معرفتهن دائما بمصيبة ما.

ويقال إنها جاءت مصر بوعد من بليغ أن يلحن لها، وبعد أن نال الذئب غرضه تجاهلها. ولكن كيف يمكن لنا أن نعرف ما حدث بين احتمالات لا نهائية لحكاية تنتهي بأن تخلع المرأة ملابسها تماما، وتمضي بهدوء لغرفة بليغ، بين الغفو والصحو، يفتح عينيه ويجد السد الأسمر الناصع يلمع في الظلام:

ـ من أنت يا حلوة؟

ـ طوال الليل لم تفكر فى أن تسألني.

ـ خسارة أني لم أنتبه.

فتدندن هي بهدوء:

ـ خسارة خسارة، فراقك يا جارة. أليست هذه ألحانك يا عبقري؟

وتمضي بخطوة واثقة نحو البلكونة، كأنه لم يفهم تماما، أو كأنه يواصل لامبالاته الأصيلة:

ـ الخسارة الحقيقية هي أن يموت هذا الجسد من دون أن أتذوقه.

ـ سيختفي الجسد، لكن اسمي لن تنساه أبدا باقي عمرك.

تقفز في بساطة، ويدوي صوت ارتطام الجسد بالأسفلت دويا مكتوما مقبضا.

تدخل صباح وهي تصرخ، توقظ سيدها وتبلغه بأن المغربية المجنونة قفزت من البلكونة منتحرة، وأن الرجل السعودي فر هاربا!

يستلفت الانتباه أن القضية لم يتم حلها أو التعتيم عليها منذ البداية ـ وقد كان لديه من السلطة والعلاقات ما يمكنه من فعل ذلك، وكذلك تعامل الصحافة المتوحش معه، لشهور طويلة. ها هي ذي المرآة تعكس

بوضوح نفاق مجتمع رفعه للسماء، لا لشيء إلا لأنه عبر عن شوقه لحياة متحررة كالتي يعيشها، وتجاهل مؤسسات الدين والتقاليد التي تحيط بعنقه، وحين سنحت الفرصة هاجمه بمزيج مرعب من التطلع والغل، كأنه ينتقم منه بسبب جرأته على تحقيق ما لم يجرؤ غيره على تحقيقه.

تقديري أنه كان قد أصيب بالقرف أكثر من أي شيء آخر. لم يكن يتابع أخبار القضية بجدية مثلا ـ وأظنه لو أراد أن ينهي المسألة لأنهاها. إنه يلحن لوردة أغنية اسمها «من بين ألوف» ويقود بنفسه الأوركسترا ـ كأنه يخرج لسانه للجميع، قبل موعد الحكم بأسبوع. ثم يسافر لفرنسا، بينما يصدر حكم محكمة الاستئناف عليه بعام حبس في تهمة الفجور وتسهيل الدعارة. إن رغبته في أن يعيش خارج مصر قديمة وأصيلة، وهو يقول في حوار قديم قبل تلك المشكلة بعشرة أعوام على الأقل إنه يريد أن يبقى مع وردة في باريس عاما أو أكثر.

يبقى في باريس عدة أعوام، وحين يشعر بالإنهاك ويفتقد أهله يقرر العودة لمصر؛ يطلب أن تتم تسوية المسألة فيخرج له حكم بالبراءة من محكمة النقض ـ رغم أن القضية لم يكن مسموحا بأن يتم نظرها أصلا أمام النقض لأنها حكم استئناف صدر غيابيا في جنحة. ويرجع مصر حين شاء، ليقضي الأيام الأخيرة!

* * *

وكأني رأيته، ماشيا في شوارع باريس بعد أن بدأت تطاردني نوبات الأرق الطويلة. أقتحمُ عزلته، ولا يفزع حين يراني ـ كأنه كان يتوقع رؤيتي، وكأنه سألني من أنت، وكأني أجبتُ، طلال فيصل، سواح وماشي في البلاد سواح. ولو أن هذه الأشياء تحدث، فإن حياتي، أنا وهو، صارتا مثل الطباعة فوق صفحة مكتوبة. أسأله إن كنت أحسنت الكتابة عنه، عن

موسيقاه وعن حياته فيبتسم ولا يجيب. أسأله ما إذا كنت سأستطيع مدّ أجل منحة الكتابة في باريس، هل سيسمحون لي بالبقاء؟ هل سيعجبهم النص؟ فلا يبدو عليه الاهتمام بما أقول. يطرقع بأصابعه بينما يتجهز العازفون، بثيابهم الأنيقة، يأخذ كل منهم موقعه، يدوزنون آلاتهم، يصطف الكورال، حليتُه التلحينية المفضلة، خلف العازفين، البنات يمينا والرجال يسارا، استعدادا لعزف الكوبليه الأخير من حياة أكّد لنا بها صاحبها أن كل شيء في هذه الدنيا وهم، وأن لا شيء يستحق تفكيرا حقيقيا. ينظر لهم ويرتسم على وجهه التعبير الساخر الأصيل:

ـ الجدية هي أكبر غباء يمكن أن يقع الإنسان فيه.

يظهر ملاك الموت ويصعد المسرح، فيقول له بليغ باستهانة:

ـ أهلا، يبدو أنك موجود فعلا؟!

ويطرقع بأصابعه وهو يغني له:

«ساعة لقلبك بتقول/

فرفش واضحك علطول/

«ليه حتبوّز ولا تكشر ولا تزُوم/

وتشوف أحلام تعملها هموم».

يغني الكورال معه، فيما يصافح هو ملاك الموت ويضع يده على كتفيه، يتحركان معا خروجا من المسرح، ويبدأ العزف. وأسأل ثانية وأنا أرفع صوتي:

ـ هل أحسنت الكتابة عنك؟

ويتردد صدى ضحكة سيدنا الخضر القاسية، بلا جواب.

أصل لمسكن اللاجئين فتستقبلني موظفة عجوز عجفاء، تلم شعرها الأبيض في كعكة فوق رأسها. تفرجني على غرفتي الضيقة وتتكلم بطريقة ميكانيكية وعلى وجهها ابتسامة رسمية لا تطاق. طلب اللجوء الذي قدمته يضمن لي سكنا في هذا الحي على أطراف باريس ومرتبا ضئيلا وفترة انتظار حتى أعرف ما سأفعل. هكذا تكون قصة مارييل انتهت للأبد، وبلا رجعة، أقول مطمئنا نفسي. تتصل بي مرة أو مرتين يوميا فأغلق السكة في وجهها البغيض الذي لا أريد أن أراه ثانية. تبعث لي بإيميل مطول بين اللوم والاعتذار والعتاب وتطلب أن نلتقي فأتجاهله. أشعر بانعتاق وراحة بال، وأقول، آن الأوان أن نبدأ من جديد على نظافة.

لم يعرف أحد بحكاية اللجوء هذه، ويفاجئني اتصال من أختي والتي لم تتصل بي من زمن، بصوت قلق:

ـ أنت بخير؟

ـ أكيد بخير..

ـ حلمت بك...

أختي الحبيبة، بوابتي للسماء التي لم تعد موجودة، العضو النشط في حملة ترشيح الدكتور مرسي، أو أي اسم يجيء به مكتب الإرشاد للرئاسة، والتي تضج صفحتها على الفيسبوك بأكثر الاقتناعات بؤسا في الدنيا، أختي الحبيبة التي أدرك أني أفتقدها رغم كل شيء.

ـ حلمت بك. حلمت أنك كنت تمسك كوبا، وقع منك وانكسر، ولكنك تصر على أن تمسك ببقاياه المدببة رغم أن يدك كانت تنزف بغزارة.

وبقلق لا يجتهد في إخفاء نفسه:

ـ طلال، أنت بخير؟

أجبتُ بصوت مرح:

ـ ألم تقولوا إنكم لن ترشحوا أحدا للانتخابات، في الأول خيرت الشاطر والآن مرسي. اتقوا الله والتزموا بكلمتكم مرة واحدة.

تتجاهل ذلك وتكمل:

ـ أنا لا أعرف ما تفعل في باريس، ولا أريد أن أعرف، ولكن لا تقطع حبال رجوعك لمصر تماما. سأحاول أنا وأبوك بعد الانتهاء من الانتخابات الرئاسية أن نجد حلا لمشاكلك القضائية مع المؤلفين هنا، وأنت...

ويتهدج صوتها كأنها على وشك البكاء:

ـ وأنت، خلّ بالك من نفسك يا حبيبي.

أتعلل بسوء خدمة الانترنت وأنهي الاتصال، لأنطلق في بكاء مرير. اليد النازفة تمسك بقايا كوب لم يعد موجودا. أقول لنفسي إن تجاهل المسألة، بين قوسين علاقتنا أو ارتباطنا، ليس من الحكمة، وإنه ربما من الأفضل أن ألتقي بها لننهي المسألة بشكل متحضر، أو على الأقل لأفهم ما ذا تريد أن تقول. أتصل ولا ترد، فأشعر بالغيظ ولا أكلمها ثانية.

أحاول الكتابة وأحاول المذاكرة وأحاول التركيز ولا يبقى شيء سوى متعة التسكع في باريس بعد غروب الشمس. أتمشى وأدرك أننا ليلة السبت فأجد قدميّ تقودانني للحي السابع، للمشي في شارع سان دومينيك الطويل الذي ينتهي ببرج إيفل مدببا في آخره، وأجدني أدور حول ذلك القبو المعتم ثانية، Club des Poètes، وحين يفتح الباب أكون أول الداخلين.

أتبادل حوارات فارغة مع رواد المكان، ويتسارع نبضي وعيني معلقة على الباب منتظرة دخولها بين لحظة وأخرى.

ما أجمل ألا تُخيبي ظني يا ملعونة.

تجلس بجواري في هدوء، كأن شيئا لم يحدث. وينتهي العرض فتخرج. أمشي جوارها ولا ألقى ترحيبا أو ممانعة. أتذكر الخطوات المعدودة بين باب العمارة في الزمالك والأسانسير، وأتذكر تلك الـ«كفى».

ـ اتصلتُ بكِ ولم تردّي.

أتوقع أن تقول «وأنا كذلك» أو تشير لرسائلها التي لم أردّ عليها، ولكنها تبتسم ولا تجيب. نمضي متجاورين في صمت وتقول فجأة بدون مقدمات:

ـ قرأت أن في مصر انتخابات رئاسة الآن! بالتأكيد أنت متحيز لمرشح الإخوان ضد مرشح النظام السابق.

ـ تخمين ممتاز.

ـ طبعا. لأنك إرهابي.

تقول إرهابي بذلك الصوت المتكسر، المتأوه فأدفعها برفق للحائط، أحيطها بذراعي الأيمن وأقبض بيسراي على نهدها، فمي على فمها، بينما تكرر هي بصوت خافت «إرهابي».

ولا أذكر كيف وجدنا نفسنا في بيتها، ولا حتى ما حدث بالتفصيل، ولكني أتذكر أني حين استيقظت لم أجدها، وأني ارتديت ملابسي ورجعت لغرفتي، وانتظرت.

* * *

هذا جنونٌ رسمي!!!

لقد نمنا معا منذ يومين، فما هذا التجاهل من جديد؟! أتصلُ أكثر من عشر مرات وهي لا ترد. أدخل على الـ WhatsApp وأجدها أونلاين، أرسل لها رسالة غاضبة، ثم رسالة معتذرة. أرنّ مرة قصيرة ثم أتصل. تفتح الرسالة ولا ترد! ألتمس لها العذر؛ ماضينا معا لم يكن ذكرى جميلة على أي حال، ولكن الغضب مثل نهر متدفق يبتلع في طريقه كل شيء. التجاهل قذر ومهين. انقلب الموقف على نفسه، تحول في انعكاسه لنكتة سخيفة لا تضحك أحدا. أفكر في أنه مادام التجاهل قد جاء بنتيجة في المرة الماضية، فلأجربه إذن.

لكن المغالطة المنطقية بنت الحرام، كيف تتجاهل شخصا هو أصلا لا يريدك. أو يريدك ولديه مخاوف أو شكوك أو Insecurities أو أي بَلَا أزرق! أحاول أن أكتب وأحاول أن أقرأ وأحاول أن أنام.

أرى في الحلم أن ورق الرواية يتطاير وأننا نجري لنجمعه ونحن نضحك. أحلم بأبيها، لطيفا كان وقال لي بعذوبة إن فرنسيتي ممتازة. أراها في بيتنا القديم في الهرم تعجن مع أمي كعك العيد وتطلب مني بالفرنسية ألا أنسى السكر وأنا راجعٌ من صلاة المغرب. أرى أبي في المقرأة، معه أصدقاؤه الذين يقترحون عليه أن أدخل حقوق فرنساوي، فيهز رأسه موافقا ويقوم لمكتبة المسجد ويناولني منها كتابين لدوكنز وفولتير.

أصحو وأنظرُ في الموبايل ولا أثر لأي رسائل! يا بنت الوسخة. أتراجع عن الاتصال بها ثانية، ثم أرسلُ رسالة «هذا جنون؛ لقد نمنا معا من يومين! هل أنت خائفة من الرد؟». وظهرت علامة تشير بقراءتها للرسالة. اتصلت مرة أخرى، لن تردّ، ولكنها مع الجرس الثاني تردّ:

ـ هالو.

ألاحظ أن ساقي ترتجف. ولا تنتظر أن تتكلم، تعاجلني بوضوح وعلى مهل:

ـ ما حدث من يومين كان غلطة. أنا آسفة.

ـ غلطة؟!

ـ صدقني كل ما تفعله الآن ليس له قيمة!

ـ إنك تستخدمينني، هذا مقزز ومرعب.

ـ قلت آسفة، وأنت لست طفلا. لا تتصل ثانية.

ـ أعرف البيت وأعرف كود المنزل...

ـ لا تضطرني لفعل ما لا أحب.

ـ تلعبين هذا الدور معي، معي أنا يا شرموطة.

ـ كفى هنا. سأغلق الاتصال الآن. لا تقترب مني وإلا اتصلت بالشرطة.

سأحتاجُ عاما كاملا حتى أدرك أن التهديد بالشرطة كان جادا، وليس انفعالا طارئا أبدا. ولو أنك تأملتَ لأدركتَ أن تلك العلاقة المريضة انتهت فعليا قبل أن تبدأ، ولكن هل لي أن ألوم نفسي على المحاولة، أو على أي شيء.

سأحتاج عاما كاملا في صحبة سليمان العطار حتى أصل إليك هنا يا دكتور، فتدبر.

## ٦٠

وسواءٌ عليك تأملت أم لم تتأمل، فإنك مدركٌ أن لكل شيء نهاية، وإنك مدرك أيضا أني إنما أخادع نفسي، فلا نسيان هنالك ولا تجاوز

ولا يحزنون، وغاية ما أفعله هنا، كتابة أو عزفا أو كلاما أو ضحكا، فهو لا يعدو محاولة فاشلة للفرار من هذا الألم المُلحّ المغروس في أبعد نقطة في أعماقي. يتهادى صوت على الحجار من السماعات مغنيا لبوابة الحلواني من جديد، ثقيلا، مُزعجا، وتنتهي الأغنية، فينبعث صوت المجموعة مرة أخرى؛ تغني أنا مـ البلد دي. إن كل شيء ثقيل؛ أطفئ الصوت والموسيقى والكلام، وتتجلى الحقيقة قاسية ساخرة واضحة: كل نار تصبح رمادا، إلا نار الشوق، باقيةٌ أمام عيني وفي خيالي، واضحة مثل شمس يوليو البازغة فوقنا من بين سحاب باريس الكئيب...

أنظر لسليمان، وأبدأ أحكي، أحكي كل شيء، من الأول: دار النشر والمركز الفرنسي، وجهك مثل وجوه الفيوم، الثورة والتنحي والقبلة وما حدث في سرير الزمالك، الزيارة الأولى والعودة، مسرح البالون ورنين الإسكايب وإقامتي معها والشجار والإهانات والخصام والصلح. الشك الذي تجسد يقينا ناصعا في قراءة الرسائل، النظرة المرتاعة في العينين الخضراوين ومغادرة البيت، مسكن اللاجئين، ثم اللقاء الناتئ مثل نغمة نشاز غير متوقعة، النوم معها ليلتها. أحكي كل شيء، بلا توقف. يقاطعني مرة واحدة:

ـ نادي الشعراء في الحي السابع، مارسيل روناي؟

وحين أهز رأسي بالإيجاب يبتسم بسماجة ويطلب مني أن أكمل. بعد أن أنتهي من الحكاية تماما يعلق ساخرا:

ـ يعني أول مرة لك معها كانت مع تنحي مبارك، وآخر مرة كانت مع تولي مرسي.

يبترُ ضحكته حين يدرك أني لا أحتمل هذا الاستخفاف، ويقول بترفق:

ـ ألم تحاول الاتصال بها طول هذه الفترة؟

ـ خفتُ.

ـ خفت منها؟ من رد فعلها؟

أقلب كفّي في عجز، ثم أسأله:

ـ لو هددتك امرأة فرنسية بالشرطة إن اقتربت منها، فماذا يعني ذلك؟

فيجيب ببساطة:

ـ يعني أنها ستتصل بالشرطة إن اقتربت منها.

يجتاحني غضب؛ إنه غبي، لا يفهم ولا يمكنه أن يفهم. موسيقي فاشل لا يعرف شيئا عن الحب ولا عن الحياة. يرطن بألفاظه العجيبة عن ألحان بليغ، ومن يدري، لعل كل ما يقول كلام فارغ، لا يزيد شيئا عن حياته الفارغة، وأشعاره العجيبة التي يلقيها بلا مبرر ولا معنى. أنظر له برثاء وأقول:

ـ لف لنا سيجارة.

يهز رأسه ويبتسم، وكأنه لا يجيد غير ذلك، ويخرج قطعة الحشيش من جيبه:

ـ أمرك يا مصري.

ـ كم مرّ من الوقت على تعارفنا يا سليمان؟

ـ يوووووه، زمن.

ـ سنة، سنة بالضبط.

ـ كنا في يوليو في حديقة سان لكسمبورج. أجمل مصادفة يا أبو العيون السود.

ـ سنة كاملة ولا أعرفُ عنك شيئا.

ـ أنت لا تسأل.

ـ لعلّي غير مهتم؟

ـ أنت أدرى.

ـ ولعلّه ليس لديك ما تقوله.

يناولني السيجارة، وعلى وجهه تعبير مبتهج، غير مفهوم:

ـ من يدري، لعلّي أصلا لا وجود لي.

ثم ينشد، وهو يحرك يديه متجاوبا مع لحن باطني، لا يسمعه سواه:

«ألا يا طبيبَ الجنّ ويحك داوني / فإنّ طبيبَ الإنسِ أعياهُ دائيا

أتيتُ طبيب الإنس شيخا مُداويا / بمكة يعطي في الدواء الأمانيا

فقلت له يا عم حكمك فاحتكم / إذا ما كشفت اليوم يا عم ما بيا

فخاض شرابا باردا في زجاجةٍ / وطرّح فيه سلوة وسقانيا

فقلتُ ومرضى الناس يسعون حوله/ أعوذ برب الناس منك مداويا

فقال شفاء الحب أن تلصق الحشا / بأحشاء من تهوى إذا كنت خاليا»

أدوّن ما قلناه بخصوص الأغاني الثلاثة في النوتة الجلدية، نتقاسم السيجارة اليتيمة. أنزلُ من عنده متوجها ـ كما يفترضُ ـ للبيت، أو بالأحرى لغرفتي في مسكن اللاجئين. أقرأُ في الفيسبوك خبرا ما عن بيانٍ للجيش، فأتذكرُ دعوات الحشد التي انتشرت قبلها بيومين، أو ثلاثة، في

سياق التصعيد ضد حكم مُرسي، ولم أهتم؛ محروقين الاتنين في ساعة واحدة. أغلقُ الموبايل، ثم أقرر أن أنفذ فكرة بدت لي في مترو باريس منطقية، وبدت للشرطة الفرنسية بعدها غير ذلك؛ أغيّرُ خط المترو متوجها لمونبارناس. أما البقية فأنت تعرفها جيدا.

فهل يمكنك أن تخرجني من هنا الآن يا دكتور؟!...

# القاضي

*31 Rue Roger Salengro,*
*93140 Bondy, Paris*
*France*

السيد العزيز الكاتب المحترم طلال فيصل

تحية طيبة وبعد،

بادئا ذي بدء، يحسنُ بي أن أعتذر عن مخاطبتك بهذه الرسالة مباشرة، دون سابق معرفة أو تنويه أو استئذان، وهو ما حاولناه بالفعل، حيث قمنا بالاتصال بك أكثر من مرة على رقم الهاتف الموجود على صفحة الموقع الإلكتروني لدار النشر الخاصة بك، والمتاحة على شبكة الإنترنت، والذي توصلت إليه بمساعدة من حفيدي، لنقص خبرتي في هذه الأمور التكنولوجية الجديدة بحكم السن، كما تعلم. بعد تعذر الاتصال الهاتفي قمنا بإرسال أكثر من رسالة عبر البريد الإلكتروني، والتي كانت جميعها تتلقى إشعارا بعدم الوصول، كما أخبرني حفيدي/ خالد المرواني، وهو بالمناسبة واحد من زملاء دفعتك في كلية الحقوق جامعة القاهرة، قسم اللغة الفرنسية، ويعمل الآن بالنيابة العامة بمحكمة الجيزة، مستكملا المشوار الذي بدأه في نفس المحكمة أبوه، وعمه، وأنا من قبلهما حيث عملت متدرجا من أول السلك القضائي حتى وصلتُ، بنعمة الله وكرمه وفضله، إلى منصب رئيس محكمة الاستئناف، وذلك قبل خروجي على المعاش بسنوات قليلة.

بعد كل هذه المحاولات في الاتصال المباشر بك، وإخفاقها جميعا، استقر عزمي، بعد أن استخرت الله سبحانه وتعالى، أن أكتب لك هذه الرسالة وأرسلها بالبريد المُسجل بعلم الوصول، لعلي إن صادفت الرسالة وصولا إليك أكون قد أبرأتُ ذمتي مما لديّ، وإن لم تصل فقد قال الله سبحانه وتعالى لنبيّه إبراهيم بعد أن أمره أن يؤذن في الناس، إنه عليك الأذان وأنا عليّ البلاغ! سبحانه وتعالى له في كل شيء أمر وحكمة، وفي كل تصريف نظر واعتبار.

بعد تقديم هذا الاعتذار الواجب، يطيب لي أن أمهد بشرح السبب الذي دعاني ابتداءً للكتابة إليك، ومن قبلها البحث عنك ومحاولة الاتصال بك، حيث إني كنت قد قرأت في جريدة اليوم السابع خبرا منشورا بعنوان «منحة فرنسية لكتابة رواية عن بليغ حمدي» عرفت من تفاصيل الخبر أنك تُعد لكتابة رواية عن الموسيقار الراحل، ينصبّ تركيزك فيها على الحكم الصادر ضده في القضية المعروفة بمقتل سميرة مليان، ثم فراره إلى فرنسا وبقائه هناك حتى عودته إلى مصر بعد صدور الحكم بالبراءة، ثم موته، رحمة الله عليه وعلى جميع موتى المسلمين.

كان بالخبر كذلك بعض المعلومات عنك وعن تحضيرك لرسالة جامعية في القانون في باريس مما أثار اهتمامي من أكثر من زاوية. وكما أسلفت، استفسرت من حفيدي عنك ووجدت أنه يعرفك، لزمالتكما السابقة في كلية واحدة. وعرفت منه كذلك أنك كنت تكتب وتنشر المقالات في الجرائد والصحف المصرية منذ حداثة عهدك بالجامعة، قبل أن تفوز بالمنحة المذكورة تقديرا لتميزك الذي يستحق الإشادة. ووجدتُ أنّ في ذمتي شهادة بخصوص الموضوع الذي تكتب عنه، والرجل الراحل الذي كثرت في شأنه الأقاويل والشائعات، واختلط الكذب بالحقيقة.

وشعرت بالمسئولية أن أوضح لك جانبا من الحكاية كنت شاهدا من شهوده، وشاءت العناية الإلهية أن أؤدي دورا فيه، حين أوكلت إليّ مهمة النظر في القضية المذكورة أعلاه، والتي أصدرتُ فيها حكما بإدانته، وهو الحكم الذي كنت وما أزال مطمئنا إليه، كما سأقول مُفصلا.

فأنا لا أكتب لك معتذرا عن نفسي، ولا مُبررا الحكم كنت وما أزال أراه مستوفيا لشروط العدل الدنيوي الذي نقدر عليه كبشر يصيبون ويخطئون. وإنما أكتب لأحكي لك ما عرفته وشاهدته بعيني، والله على ما أقول شهيد. أحسب أنك تعرف جيدا، وأنت رجل دارس للقانون أن ملابسات القضية هي أداة الحكم الوحيدة والممكنة، وأن يد القاضي مغلولة بالأدلة، فيحسن بي أن أمهد بالحديث عن نفسي في عجالة قبل التطرق لصلب الموضوع.

ولدت في أسرة في أحد بيوتات القاهرة بحي منيل الروضة لأب يعمل بالقضاء الشرعي، وكان واحدا من حفظة كتاب الله والقائمين بالعمل بسنّة نبيّه المعصوم، عليه أفضل الصلاة والسلام. أقول هذا لأننا نعيش الآن في زمن جاء فيه صبية إرهابيون لا نعرف لهم أصلا ولا فصلا يظنون أنهم سيعلموننا ديننا من جديد - وكأننا لم نعرف لمصر دينا إلا منذ مجيء مرشد جماعة الإخوان المسلمين للحكم، وكأن مصر لم تعرف الإسلام إلا بدعوة حسن البنا.

وإني أحذرك كما أحذر أبنائي وأحفادي من هذه الدعوات التي ظاهرها الدين وهدفها الوصول للحكم والسيطرة على الدولة! وأنا على يقين أن الله سبحانه قادر أن يخلصنا من حكم هذه العصابة المجرمة آجلا أم عاجلا.

خلاصة القول، كبرت في بيتنا ونجحت في المراحل الدراسية المختلفة حتى دخلت كلية الحقوق ومنها تم تعييني بالنيابة العامة، متدرجا في

السلك القضائي كما أسلفت. لم تكن تلاوة القرآن تنقطع في بيتنا وهي العادة التي نشأنا عليها مع وجود الوالد، وحافظنا عليها بعد رحيله رحمة الله عليه. لذا لم يكن في بيتنا من هو مغرمٌ بالغناء أو الطرب كما كان، وما زال، شائعا بين الناس في هذا الزمان. ربما كنا نستمع إلى شيء من القصائد والمدائح النبوية، أو غيرها من الأغاني العاطفية النظيفة التي تسمو بالذوق وترتفع بالشعور والوجدان، أو نشاهد عملا فنيا راقيا وهو ما ندر وجوده للأسف، حيث إن كثيرين من المحسوبين على الفن - وليس لهم من الفن نصيب، يُسخّرون أقلامهم وأبواقهم لصناعة أعمال ينفثون فيها شهوة فانية ولذة زائلة، ومنهم من يؤجر عقله وقلمه لتوجه خبيث يحمل انتهاكا لحرمة الآداب العامة وحسن الأخلاق، أو الإغراء بالعهر خروجا على عاطفة الحياء.

لم يحدث أبدا، فيما أذكر والحمد لله، أن ذهبت أنا أو واحد من أهل بيتي لحفلة من حفلات الموسيقى أو الأغاني التي يتسابق الجميع للذهاب إليها، حتى مع كونها متاحة لي بالمجان، بحكم عملي كقاض! رغم هذا الإعراض الأصيل عن الفن والغناء بحكم التكوين الشخصي والعائلي كما فصلت لك، فإن اسم الملحن المذكور، والمعنيّ بموضوع رسالتنا عليه رحمة الله، كان كثيرا ما يتردد على سمعي؛ فقد كانت الصحف تتنافس في وصف عبقريته الموسيقية رغم سنه الصغيرة، وكذلك ألحانه للمطربة أم كلثوم والتي يطلقون عليها - كعادة الصحافة في إطلاق الأسماء والألقاب المفخمة المعظمة - كوكب الشرق!

كنت في تلك الأيام في السنة النهائية بكلية الحقوق، وما أزال أذكر تلك الأيام ونحن في أعقاب هزيمة ثقيلة والبلد يحاول استعادة الكرامة والأرض السليبة، بينما لا حديث للناس والجرائد سوى العبقرية الكامنة في لحن أغنية «ألف ليلة وليلة» والبروفات المتكررة التي تنفرد صفحات

كاملة من الصحف لوصفها، بما فيها من عازفين وتدريبات، وصفا تفصيليا. لم أستطع أبدا أن أعرف أي فائدة يمكن أن تعود على الشعب أو الجمهور من مثل هذه الأخبار أو المعلومات. واعذرني إن كنت متزمتا أو ضيق الأفق أو دقة قديمة، كما كان بعض الزملاء يقولون! كانت هذه الألحان كذلك مرتبطة دائما بالراقصات حتى إن بعض الصحف لقبته، عفوا، بـ «ملحن الهشك بشك»! ولم يسلم الأمر من شائعات لا تتوقف حول ارتباطه بهذه المطربة أو تلك الراقصة، ولم تكن تنقطع في الصحف أو الجرائد الفنية صور تلك الحفلات الصاخبة التي يشترك فيها من يعرفون بأهل الفن، والتي لا يمكن بأي حال أن يستسيغها ذوق سليم أو مجتمع له خلق وعادات راسخة مثل مجتمعنا.

للإنصاف، أذكر توقفي أيامها أمام واحد من ألحان هذا الموسيقار الراحل، في رمضان عام ١٩٧١ أو ١٩٧٢ إن لم تخنّي الذاكرة، أعني لحن «مولاي إني ببابك» للراحل العظيم الشيخ سيد النقشبندي (وأرجو أن تفسح له مجالا في كتابك المنتظر حيث إن الأجيال الجديدة لا تعرف عنه شيئا) وقد كان الوالد رحمه الله يذهب للاستماع إليه مع بطانته قبل صلاة الجمعة في مسجد سيدنا الحسين، ومن قبله كذلك الشيوخ المنشدون علي محمود ومحمد عمران وإبراهيم الفران! كان من المفاجئ أن نسمع لحنا مشتركا بينه وبين الملحن المذكور، وكانت الشائعات وقتها تؤكد أن اللحن تم برغبة شخصية من الرئيس السادات ـ وأنت تعرف بلا شك أن شقيق هذا الملحن كان يشغل منصب رئيس الهيئة العامة للاستعلامات، وكان من أقرب المقربين من الرئيس. ويقال كذلك إن الرئيس السادات كان يستدعيه عندما يشعر بالملل أو الفتور ليغني ويعزف له على العود في استراحته بالقناطر!

على كل حال، كانت هذه هي الشائعات التي تتناثر أيامها ـ وكنت

بعد وكيلا للنيابة في محكمة الجيزة، ولا يمكنني بحال أن أؤكدها أو أنفيها، وقد قال الله تعالى في محكم التنزيل «يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» فلا يمكنني أن أقطع برأي إلا فيما قد شهدته بالفعل.

عبرت مصر الهزيمة بعد ذلك، بفضل بسالة جنودنا وقواتنا المسلحة وجيشنا المسلم الذي قال فيه النبي إن أجناده خير أجناد الأرض، وببركة الصيام وشهر رمضان الكريم الذي نصر الله فيه من قبل جنود نبيّه الكريم في غزوة بدر وهم قلة مستضعفون في الأرض. هنا لا بد أن نذكر بإنصاف للرجل أيضا تلك الألحان الراقية «مصر هي أمي» و«بسم الله الله أكبر» وكذلك أغنية «على الربابة باغني» والتي لا تزال عيناي تدمعان كلما سمعتها مترحما على الرجل الذي أرادت المشيئة الإلهية أن أعرفه وأقترب منه! لا يليق بالمرء إزاء قدر الله إلا أن يسلم ويستسلم ويرضى، غير أني كثيرا ما أتساءل في حسرة، ماذا لو كان هذا الرجل الطيب تفرغ لصناعة الألحان الوطنية والدينية، وابتعد عن هذا الجو العابث الذي لم يكن يليق به ولا بما حباه الله من موهبة، الجوّ الذي انتهى به تلك النهاية التي تعرفها!

القصد، عرفنا بعد ذلك من الصحافة الفنية أنه تزوج من مطربة جزائرية، واستفاضت في الحديث عن ذهابه للجزائر وعودته بها ـ رغم أنها متزوجة وأم لطفلين! وكذلك حكايات غرامه بها من سنين واتصاله بها. كنت أشعر بالنفور من هذا النوع من الأخبار والشائعات، متسائلا أي نوع من الحياة يحياها هؤلاء الناس! كنت كذلك أصادف من حين لآخر في الصحف والمجلات الفنية، التي لا أتابعها بالطبع، مظاهر غرامه العلني بزوجته الفنانة المطربة وصورهما معا، بشكل مكشوف لم نعرفه ولم نعهده من قبل!

لم أستطع أن أفهم كيف يقبل رجل أن تخرج امرأته للناس بهذا الشكل، ولا أن يعبر عن مشاعره لها بهذه الطريقة، الأمر الذي كنت أراه شاذا عن فطرة الله، الذي فطر الكائنات جميعها أن تستتر وتتجمل بالحياء وهي تعبر عن عواطفها وغرامها. وقد خلق الله الذكر والأنثى وجعل بينهما اتصالا وحبا وعواطف متقدة، لكن الفنانين ـ أو من يزعمون أنهم فنانون ـ وحدهم عن بقية خلق الله هم الذين يجعلون هذا الحب وهذا الغرام وسيلة للاستعراض أمام الناس، بلا احتشام ولا تستر!

وكما يحدث في هذا النوع من العلاقات التي لا تقوم إلا على العاطفة المشبوبة بلا عقل ولا اتزان، انتهى هذا الزواج بالطلاق بعدها بسنوات قليلة، وبدأت في حياة الرجل المرحلة التي ستنتهي بالكارثة المعروفة.

لم تكن الأخبار ولا المجلات تنقطع عن ذكر علاقاته المتعددة ولا الحفلات التي يقيمها في بيته. كما ورد أكثر من مرة شكوى من الجيران بخصوص الصخب والعربدة التي لا تنقطع في بيته ليل نهار، وكانت محاضر هذه الشكاوى تنتهي بالتصالح أو يتم استخدام العلاقات الشخصية أو النفوذ ليتم غلقها بلا تحقيق فعلي، إلى أن حدثت المشكلة التي لم ينفع معها لا تصالح ولا نفوذ.

لا أظنني بحاجة إلى دليل أو إثبات، لكن ما هو شكل الحياة التي يحياها المرء، والتي تسمح بسقوط امرأة عارية تماما من شرفة منزله! لا نتحدث الآن عن ملابسات قضية ولا تطورها ولا عن حكم صادر فيها، فهذا سيأتي في موضعه، لكنه مجرد سؤال بريء بسيط: عندما تعرف أن امرأة مخمورة عارية سقطت من شرفة منزل بعد احتفال صاخب، فكيف يكون شكل الحياة في هذا البيت إذن؟! وإني أترك الجواب لعقلك ولخيالك!

لا أخفيك القول إنه حين جاءتني أوراق القضية للحكم فيها في

الاستئناف، بعد الحكم الابتدائي أول درجة، أنني كنت أشعر بنفور وتقزز لا حدود لهما من الحكاية كلها، وهو ما أيده الرأي العام والصحافة التي كانت تكتب مهاجمة باستمرار هذا الانحلال والفجور الذي تعدى كل الحدود. كنت كذلك موقنا أنه ستأتيني في لحظة ما مكالمة تليفونية من جهة عليا تطلب مني إنهاء الأمر والتستر عليه والحكم بالبراءة، وكان عزمي قد استقر أنه إن حدث ذلك فسأعتذر عن نظر القضية بالطبع!

الغريب أن هذا لم يحدث! لم يتصل أحد ولم يتدخل أحد لتغيير مجرى القضية. تعجبت قليلا، لمعرفتي بشهرة الملحن وعلاقاته الخارجية والداخلية، لكني فسرت الأمر لنفسي بأن القضية كبرت لدرجة صار من الصعب التدخل فيها، وقد ظلت الصحافة تكتب فيها لشهور بلا انقطاع بشكل فضائحي مثير للاستفزاز. كذلك كان سلوك الرجل ـ رحمه الله ـ أثناء سير القضية يُظهر قدرا من الاستخفاف والاستهانة بكل شيء وكأنه كان على ثقة من البراءة، حتى إنه قبل إصدار الحكم بأسبوع واحد لحن أغنية جديدة لطليقته الجزائرية وقام بقيادة الأوركسترا، لتكتب الصحافة عن ذلك وتظهر صورته وهو يحيي الجمهور، بينما هو في انتظار الحكم في قضية أقل ما توصف به أنها فضيحة!

رغم ذلك، نحيت نفوري الشخصي جانبا ودرست القضية بالتفصيل. قرأت إفادات الشهود وشهادات الطب الشرعي وإجابات المتهم. حكمت عقلي وحرصت على أن أتوخى العدل، صليت ركعتين استخرت فيهما الله سبحانه وتعالى ثم أصدرت الحكم، لأكتشف أنه فر خارج البلاد هربا من تنفيذه. لم يخالجني شك للحظة في أنني قمت بواجبي على أتم وجه وأفضل صورة.

مضت الحياة في طريقها المعتاد وغاب الرجل عن بالي شيئا فشيئا،

ولم أفكر أبدا في أن شيئا ما يمكنه أن يحدث ليعيدني إلى التفكير فيه مرة ثانية، إلى أن جرى ما جرى!

* * *

بعد عام أو أكثر قليلا من إصدار الحكم، كنا في إحدى ليلة من ليالي رمضان. صليت العشاء والتراويح كما هي العادة، ثم شعرت برغبة في البقاء في المسجد. أخذت أقرأ شيئا من القرآن وجلست أذكر الله حتى غادر المصلون جميعا. وحين أراد خادم المسجد الانصراف قلت له إنني سأغلق الباب بنفسي وإنه بإمكانه أن ينصرف! واصلت الذكر والاستغفار مستمتعا بالجو البارد المنعش داخل المسجد، ثم أخذتني سنةٌ من نوم وأنا في بيت الله. رأيت أبي ـ رحمة الله عليه ـ يصلي في ساحة المسجد النبوي، ابتهجت وجريت إليه، فوجدته بين أربعة رجال وجوههم كالأقمار المنيرة، يتوسطهم رجل عرفته أول ما رأيته، ﷺ! قاموا ليصلوا جماعة، أبي والرجال الأربعة يتقدمهم النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم. وحين هممت أن أتقدم لأصلي معهم أشار لي أبي أن أتأخر، كأنهم يرفضونني! نظر لي النبي نظرة طويلة مليئة بالعتاب، ثم ولّاني ظهره قبل أن يرتفع صوته الشريف وهو يؤم المصلين «الله أكبر».

انتبهت من نومي. قلبي يغوص في صدري من هذا المنام المقبض، وبلا أي سبب واضح، استقر في ذهني أن لهذه الرؤيا معنى، وأنه متعلق بهذا الرجل الموسيقي وبالحكم الذي أصدرته عليه!

النبي ﷺ أعرفه، ورأيته مرتين في منامي من قبل، الأولى ليلة امتحان الجنائي، وكنت أعاني من الكرب واليأس فنزلت لأصلي ركعتين، فرأيته في منامي مبتسما هاشّا لي، وعرفت أنني سأنجح في تلك المادة. أما الثانية فكانت بعدها بسنوات وكانت آلام الوضع قد اشتدت على زوجتي، بعد

طول انتظار للولد، فنزلت للصلاة مكروبا فرأيته ـ ﷺ ـ يبتسم لي ويناولني لفة فيها غلام صغير قائلا «يحيى» فعرفت قبل أن أصعد أنها وضعت بسلام وأن الله رزقني بـ يحيى (وهو أبو خالد، زميلك، رحمه الله وقد توفي صغيرا في حادثة سيارة، بارك الله في عمريكما وحفظكما من كل شر). النبي هو النبي، أعرفه وأعرف صورته وصوته، أما المنام فلا أعرف له تفسيرا، وإن كنت أشعر به مستقرا في وجداني. لم أتوقف عن التفكير فيه لحظة واحدة، ولكني لم أحكه لأحد، حتى تكرر بعدها بأسبوع، وبالتفاصيل ذاتها ـ وقد زاد عليه أن أبي قبل أن يصلي خلف النبي استدار لي وقال: «القضاة ثلاثة». فانتبهت من النوم على يقين من أني فسرت الرؤيا على وجهها الصحيح، وقد كان أبي رحمه الله كثيرا ما يستشهد بذلك الحديث للنبي عليه الصلاة والسلام والذي يقول فيه «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار وقاضٍ في الجنة. رجل قضى بغير الحق فعلم ذاك فذاك في النار، وقاض لا يعلم فأهلك حقوق الناس فهو في النار، وقاضٍ قضى بالحق فذلك في الجنّة».

لم أعرف ما ينبغي عليّ فعله، كنت في كرب عظيم ولم أجرؤ على أن أحكي لأحد ما حدث، حتى وجدتني بعد صلاة العشاء رغما عني أروي الرؤى المتكررة بتفصيلها لأخي الكبير حَسَن، رحمه الله، والذي كان وقتها مستشارا للنائب العام. لدهشتي وجدته يهوّن من خطر ما رأيت قائلا في بساطة:

ـ هذا حديث نفس، لعله إرهاق أو شعور غير مبرر بالذنب.

ثم أضاف مفسرا:

ـ أفرطت الصحافة في الكتابة عن الرجل وعن القضية، وربما تسرب لنفسك شيء من ذلك.

ولما لاحظ ضيقي قال مترفقا:

ـ لو كان الرجل بريئا لما هرب وترك مصر وعليه حكم. أهل الفن جميعهم أقذار، وهو معروفٌ بانحلاله من قديم، وقد رأيت بنفسك كيف كانت الصحف تهاجمه وتفضح حكاياته القديمة. هوّن عليك.

ذكرته بحديث النبي ﷺ «من رآني في المنام فقد رآني حقا، فإن الشيطان لا يتمثل بي». وذكرته بأن الحديث ثابت وصحيح وقد رواه البخاري وغيره. ذكرته بمنامات الوالد رحمه الله ورؤيتي الشخصية للنبي فهل يعقل أن أستهين بكل هذا ولا ألقي له بالا! فبدا أنه ضاق بجدالي، وجاءني رده بسيطا ومختصرا:

ـ ماذا جرى لك يا حاج عمر؟! هل يعقل أن يأتيك النبي في المنام مدافعا عن المغنواتية والرقاصين! اتق الله واستعذ بالله من الشيطان ولا تشغل بالك بهذا الكلام.

للأخ الكبير في الجيل الذي نشأنا فيه منزلة مقدسة تشبه منزلة الأب، وقد ظللت أقبّلُ يده حتى فترة متأخرة إلى أن نهاني عن ذلك. ربما لا يمكن لجيلكم الآن فهم هذا. لكن حين قام أخي، رحم الله الجميع، وقد ضم مسبحته معلنا إنهاء النقاش، كان الأمر قد انتهى فعلا، وما كان لي أن أجرؤ وأبادره بالحديث فيه ثانية أبدا! حين قام بدا أنه يعاني من دوخة مفاجئة، أمسك رأسه وقال بضيق:

ـ الله يسامحك يا حاج عمر، أتعبتني بالجدال والمناهدة، الله يسامحك.

منحته يدي ليستند إليها فارتجّ قليلا، أمسك بصدره، ثم سقط على الأرض مغمى عليه. اتصلت بالإسعاف فزعا، لتجيء على وجه السرعة

ويتم نقله للمستشفى. وتبدأ رحلتنا مع مرض قلبه، الرحلة التي استمرت لشهور مع الكشف والعلاج والاستشاريين ورسم القلب ورسم القلب بمجهود، إلى أن يتم تشخيصه في النهاية على يد الطبيب النابغة الأستاذ الدكتور علاء الزيات بعيادته الخاصة في المعادي، لنعرف أن أخي مصاب باضطراب في نبضات القلب نتيجة خلل وراثي في انتقال النبضات الكهربية به. يقترح الأستاذ مواصلة العلاج بالدواء والمتابعة، ولكنه ينصح ـ في حال وجود القدرة المادية، أن يتم نقله لأحد كبار الاستشاريين في فرنسا هو البروفيسور جون بول بينيه Jean-Paul Binet والذي سيقوم بجراحة تركيب جهاز حديث لتنظيم ضربات القلب في مستشفى Centre chirur-gical Marie Lannelongue الشهير بباريس! ومن رحمة الله بخلقه أنه خلق المرض وخلق الدواء. تتكفل وزارة العدل مشكورة بالعلاج والسفر وتكاليف الإقامة. نحجز موعدا عند الطبيب الفرنسي الشهير ونسافر مؤمّلين في رحمة الله وكرمه!

لم أشأ أن أضايق أخي، ولكني قلت لنفسي ونحن في الطائرة إن المنام يفسر نفسه بنفسه. سبحان الله العظيم، ينقلنا كيف شاء، بحكمة لا تدركها عقولنا المحدودة القاصرة، من مكان إلى مكان. لو أنك تأملت في تكوين الحوادث وترتيب القدر لأصابك العجز والعيّ، ولأدركت قول المتنبي ـ وكان الوالد رحمه الله دائم التمثل به.

«وَمَن تَفَكَّرَ في الدُنيا وَمُهجَتِهِ/ أَقامَهُ الفِكرُ بَينَ العَجزِ وَالتَعَبِ

بعد أسابيع، كنا قد انتهينا من الفحوصات اللازمة وتم حجز أخي في المستشفى تمهيدا للجراحة.

أجد أنا شيئا من الوقت للبحث عن الرجل والذي لم يكن من الصعب أبدا العثور عليه؛ كان من الواضح أنه معروف تماما في تجمعات

المصريين بباريس، وأنه يدعو كثيرين لبيته، حتى كوّنت انطباعا أن بيته مفتوح طوال الوقت لأي مصري عابر! دونت العنوان في ورقة وذهبت إليه، متشجعا بما سمعت. وقفت أمام العمارة رقم ١٨ في شارع سان سانص Saint-Saëns ولم أعرف ما يمكن فعله أمام العمارة المغلقة، لا يمكن الدخول بغير الكود السري ـ كما هي العادة في بيوت باريس. أخذت أدور حول العمارة بلا طريقة للدخول ولا شخص يمكن سؤاله. لم أكن أعرف بالضبط عم أبحث أو ما ينبغي أن أسأل عنه، وشعرت للحظة بالحرج من بلاهتي. تسرب إلى نفسي الملل وقررت أن أنصرف، لتفاجئني يد حانية تخبط كتفي برفق:

ـ أنت مصري، صح؟

كان أمامي، بجسده المدكوك القصير وملامحه التي أعرفها من الصحف. بدا منهكا تماما مقارنة بآخر مرة رأيت فيها صورته قبل عامين أو ثلاثة. شاب شعره كله وكأنه تقدم في العمر عشر سنوات، لكنه كان يرتدي قميصا أحمر قانيا ووشاحا حريريا أزرق. أخذ يتكلم بسرعة وحماس شديدين:

ـ عرفتك علطول. تعرف، المصري يميّز المصري من أول نظرة.

يصافحني ويحتضنني ببهجة. يفتح لي الباب وهو يواصل الكلام بنفس الحماس:

ـ أهلا بالحبايب، وريحة الحبايب. اتفضل، أنت منين بقا؟

ارتبكت أمام حماسته المفاجئة ولم أحِر جوابا، غمغمت باقتضاب:

ـ المنيل.

ـ يا سلام! أنا كنت أروح المنيل مخصوص أقابل عزيز، الولد الجميل اللي بيلمّع العربيات قرب جامع الباشا.

لم أعرف إن كان يقصد عزيز الذي أعرفه، كما يعرفه كل أهل المنيل، ولم يمنحني فرصة لأسأل:

- مسمّيينه عزيز المجنون، لكن تعرف، عزيز ده ولي من أولياء الله الصالحين! كان دايما يقول لي حاجات ما يعرفهاش فلاسفة وحُكما، المهم، أنا آسف والله إنك وقفت تنتظرني كل ده! أرجو ما تكونش وقفت كتير، اتفضل...

يفتح لي الباب ويدخلني. يتحرك بسرعة ويحضر ماءً وعصيرا وفاكهة، يسألني إن كنت تغديت، ثم يفتح المسجل ويصفر بنغمة موسيقية ويكتب شيئا في ورقة. يظهر ثانية ويعتذر عن انشغاله، ثم يتصل بالتليفون ثم يقول إنه لا بد أن ينزل ويؤكد لي أن البيت بيتي! يطلب مني إن احتجت لشيء أن أسأل صديقه الموجود في البيت:

- أخويا وزميلي سليمان موجود هنا، لو احتجت أي حاجة هو مكاني.

وينادي على شخص ما بالداخل:

- سليمان، الراجل الطيب ده من مصر، لو احتاج أي حاجة احنا تحت أمره. نصف ساعة وراجع.

يخرج من جيبه نقودا، ويعطيها لصديقه، ثم يغلق الباب ويختفي!

احتجت فترة حتى أستوعب ما حدث! لم يسألني عن اسمي، ولا ماذا أفعل، لم يسألني عن شيء، أي شيء. فتح لي باب بيته ومضى. كان صديقه هذا يرقبني، ويبدو أنه شعر بما يجيش في صدري من مشاعر متضاربة، فقال برقة:

- أهلا وسهلا، معلش هو الأستاذ طبعه غريب شوية، لو مش متعود عليه.

كل شيء، من أول ورق القضية، ونفوري منه، وما قرأناه عنه، المنام، وحواري مع أخي حسن ومجيئي لهنا، كأن كل شيء يجثم فوق صدري كان ينتظر هذه اللحظة ليتدفق في لحظة واحدة، فأجدني بلا أي مقدمات أبكي، دون أن أعرف بالضبط لماذا أبكي!

- هذا الرجل طيب جدا. طيب فعلا. أنا لم أر في حياتي طيبة بهذا الشكل.

- الأستاذ طيب فعلا. معك حق.

- لقد نسي أن يسألني عن اسمي! إنه لا يعرف من أكون...

لسبب ما كنت أشعر بأن هذا الصديق المغربي الشاب يفهم ما أعنيه ويشعر به. عرفت أنه موسيقي مغربي ويحضر رسالة في الأدب في السوربون، وأنه يلازم «بليغ» منذ وصوله لباريس. حكى لي عن بيته المفتوح للجميع بلا تمييز، سألني متشككا ما إذا كنت أنوي أن أقيم لديه، فقلت مبتسما:

- لا تقلق، لدي مكان أقيم فيه!

شعر بالحرج فقال بحرارة:

- اعذرني لاستفساري، لكن الجميع يدخلون ويخرجون بلا استئذان، وأنا لا أريد أن تتكرر فضيحة سميرة مليان هنا.

شعرت بحرج خفي حين جاءت السيرة لكني لم أعلق. أما هو فواصل كلامه بانزعاج، وهو يحكي عن فتاة مصرية جاءت لتقيم عنده بتوصية من صديق ما، ويبدو أن وراءها مشاكل وبلاوي لا يعلمها إلا الله:

- أظنها مجنونة، وأخشى أن يحدث لها شيء ويقع الأستاذ في مشاكل.

جلسنا نتحادث ساعة تقريبا ولم يرجع الأستاذ:

ـ لقد قال نصف ساعة.

فأجاب ببساطة:

ـ هو بلا مواعيد، يمكن أن يأتي الآن ويمكن أن يغيب أسبوعا.

كان لا بد أن أعود لأطمئن على أخي فاستأذنته وانصرفت. طوال الطريق كنت أبتسم من هذا اللقاء الخاطف كالحلم. شعرت بشكل ما أنني فهمت ما جرى، وانتابني شعور بالأسف. تنازعتني رغبتان، الأولى أن أعود وألتقي به وأعرفه عن قرب، والثانية أن أكتفي بهذا اللقاء متجنبا أي حرج يمكن أن ينشأ عن تقديم نفسي. في النهاية غالبني فضولي ومررت في اليوم التالي على البيت ليخبرني سليمان ضاحكا أن الأستاذ قرر وهو في الشارع يومها أن يسافر إلى المغرب وسيرجع بعد أسبوعين:

ـ ألم أقل لك!

ضربت كفا بكف وضحكنا معا. صافحت سليمان مودعا وغادرت البيت مؤمنا بأنه لن يجمعني بالرجل ثانية لقاء، ومدركا كذلك أن في هذا المشهد الوحيد الكفاية.

تنتهي العملية بسلام ويطمئننا الطبيب على أخي وأن الحالة تسمح له بالسفر لمصر الآن. لم أخبر أخي بشيء من كل ذلك، اعتبرته سرا بيني وبين الله سبحانه وتعالى لا ينبغي أن يطلع عليه مخلوق. وفور عودتي إلى مصر فعلت ما استقر عليه عزمي. صليت ركعتي استخارة، وفي الصباح قدمت التماسا للنائب العام أن يعاد النظر في القضية في محكمة النقض ـ والتي لم يكن من الممكن أن يعاد النظر فيها إلا بالتماس شخصي من النائب العام أو من قاضي الاستئناف الذي قام

بإصدار الحكم نظرا لأنها جنحة، والحكم فيها صدر غيابيا، كما لا بد أنك تعلم بحكم دراستك للقانون. وقلت إن أسلم شيء هو أن يُسلم أمر هذا الرجل لله، يفعل فيه ما يشاء.

كانت حالة هذا الموسيقار شديدة الخصوصية - وفق ما أظن أني شرحته بشكل واضح - الخصوصية التي شجعتني على أن أفتح الباب لإعادة النظر في قضيته، بلا تدخل مني، والتي انتهت فعلا بحصوله على حكم البراءة أمام محكمة النقض.

انتشرت الشائعات وقتها أن قاضي النقض تلقى رشوة لإصدار الحكم بالبراءة، وقال البعض الآخر إن جهات سيادية تدخلت لإصدار هذا الحكم، وذهب البعض الآخر إلى أن القاضي تعاطف مع الرجل خصوصا لظروف مرضه، فكان الحكم في جوهره سماحا للرجل بأن يموت في بلده بعد رحلة مرض طويلة. كل هذه الشائعات ترددت وانتشرت ولكني لا أعلم عنها شيئا، إنما أحدثك عما عرفت ورأيت وخبرت بنفسي، لا أزيد ولا أنقص حرفا.

قبل أن أختتم خطابي إليك ينبغي أن أوضح من جديد أني كنت وما زلت مقتنعا بسلامة الحكم الذي أصدرته، بل وبضرورة أن يتم التحكم في هذا الطوفان من الانحلال والعري الذي يغزو بلادنا باسم الفن وباسم التحرر. صحيح أني بعد أن رأيت الرجل شعرت بتعاطف معه، مع طيبته الشديدة التي تكاد تقترب من السذاجة، وما أزال أترحم عليه وأستعيد ذلك المنام العجيب، لكن الطيبة أو حسن النية ليس مبررا أبدا للخروج عن الآداب والتقاليد، ولا المجاهرة بذلك. أؤمن - كما أظن أنك تؤمن كذلك - أن الإسلام ليس مجرد دين نتعبد به لله في المساجد أو الصوامع ولكنه شريعة تحكم بين الناس بما أنزل الله ودولة تستمد تعاليمها وأحكامها

من كلمة الله العليا، وإلا ما كان النبي ﷺ تحرك بالجيوش ليفتح البلدان ويخضعها لسلطان هذا الدين، ولا كان قد نزل بشرائع واضحة مبينة في أدق قوانين التعامل اليومية، المواريث والزواج والطلاق وقوانين العقوبات التي فصلها الله عز وجل تفصيلا في كتاب يتعبد به ليل نهار! لا يمكن للمرء ولا ينبغي له بجرة قلم أن يغض الطرف عن بنيان كامل اسمه الشريعة لمجرد أن التحضر وظروف العصر اقتضت أن يكون الرقص والعري وغيرها منتشرين تحت دعوى الفن.

كل هذا أنا مقتنع به ولا أستبدل به شيئا، وقد تأكدت لي هذه الاقتناعات جميعها حين شاهدت ما حدث له بعد عودته لمصر وحصوله على البراءة. انطلقت وصلات المديح التي بدأت الصحف المصرية تعزفها مشيدة بالرجل وموهبته ومكانته، نفس الصحف ونفس الأسماء التي قامت بسلخه حين حدثت الأزمة، وتجلى لي بأبشع صورة أن القائمين على أمور الإعلام والصحافة والفن مجموعة من الأفاقين الذين لا يحسنون حتى تزويق أكاذيبهم، أو لعلهم غير مهتمين!

ما لبث الرجل أن توفي بعد عودته بشهور معدودة وذهبت لحضور عزائه، فالتقيت بالأخ الكريم سليمان الذي قابلته في باريس في بيت الأستاذ بليغ قبل سنوات، جلسنا نتذكر ذلك اللقاء الخاطف، وأخذ يحكي لي حكايات أخرى عن الرجل الطيب الراحل، وعرفت أنه يحاول أنه يحوز تقريبا كل وثائق الرجل وأوراقه الخاصة وتسجيلاته في كراتين في بيته بباريس، وأنه يقوم الآن بجمع كل ما يمكن أن تصله يده من صور لوثائقه الخاصة وخطاباته وشهادات من عرفوه، في مصر تمهيدا لمشروع كتاب عن الرجل. أخبرني كذلك أنه يحاول أن يتواصل مع الحكومة المصرية لإقامة متحف له. طلب مساعدتي وأوصلته بالفعل بأحد الأصدقاء في وزارة الثقافة. ثم عرفت أن أخته ـ أخت بليغ ـ توفيت بعد أربعين يوما

*من وفاته حزناً عليه. ولم ألتق به بعد ذلك، ولا أظن شيئا تم في أمر هذا المتحف!*

*رغم كل شيء فإني أنصحك باستغلال وجودك في باريس ومحاولة الاتصال بالأستاذ سليمان العطار، وهو على حد علمي لا يزال يعيش في باريس. للأسف لا أعرف له عنوانا ولا وسيلة اتصال. أظن أنه لن يكون من الصعب عليك العثور عليه، فالرجل كان ملازما للأستاذ في إقامته الباريسية، ولديه كل الوثائق الخاصة بالرجل الراحل، كما أنه كان مشغولا بتوثيق حياته وجمع كل ما يخصه هنا في مصر من وثائق أو مراسلات أو أوراق خاصة، سواء بحوزته الشخصية أو لدى أقاربه أو أصدقائه، وأعتقد أن مقابلة هذا الرجل ستكون بمثابة كنز لو توصلت إليه، يفيدك في كتابك الذي أرجو له كل السداد والتوفيق.*

مع خالص التحية والتقدير

القاضي/ عمر المرواني

إبريل ٢٠١٣

# بليغ

### ١ . يوميات وأوراق متناثرة

سمعته يغني منفردا في برنامج الموسيقى العربية.. أدركت أنه كنز.. مساحات صوته.. مرونته... الأذن المدربة الموزونة... السهولة التي أدى بها ذلك الدور القديم... كادني الهوى وصبحت عليل لـ يوسف المنيلاوي.. كلها تفاصيل أكدت لي أنه فاهم ومتدرب جيدا. سألت عنه ولما عرفت من أبوه أدركت أن ظني في محله...اتصلت به واتفقنا.

أنتظره ولا يجيء في الموعد!!! بعدين أكتشف أن السكرتير منعه من الدخول...افتكرَه واحد من المتطفلين...شغلانة بقا. انفعلت عليهم وبهدلتهم. اتصلت به من جديد وأرسلت له مُربيتي صباح (أمي الثانية) شخصيا... اعتذرنا له وحددنا موعدا ثانيا! اتقابلنا...قال لي إنه بيدرس فنون جميلة... وأول ما مسك العود سألته:

«أنت أشول؟».

فرد بارتباك «آه».

قلت له «تمام تبقى عبقري». وضحكنا سوا. بدأ يغني. أول ما سمعت صوته... انبهرت... لقيت دموعي غصب عني بتسيل على خدي. اتفقنا وأول ما نزل جريت على التليفون... اتصلت بها:

«ألو... أيوة أنا بليغ».

يأتيني صوتها ضاحكا مثل كل مرة:

«طب ما أنا عارفة».

«أما سمعت النهاردة حتة ولد.. صوته تحفة... اسمه علي الحجار.. ابن إبراهيم الحجار فاكراه طبعا؟ قابلناه في مسرح سيد درويش من كام سنة! لكن صوته تحفة يا وردة! مصر لسه بخير وولادة. بلدنا الجميلة لسه بتطلع أصوات حلوة. أنا ما مسكتش دموعي والله...عشان أما أقول لكم البلد دي فيها كنوز.. لكن الركّ على اللي يدوّر واللي يشوف! أنا خلاص اتفقت معاه ومضينا العقد، وحاقدمه في راس السنة... ربنا يكرمنا بس ونتوفق في جملة حلوة».

«بليغ. بليغ يا حبيبي... احنا متخاصمين بقالنا شهور.. أنا مالي والكلام ده!».

وتضحك نفس الضحكة من جديد. تطلب مني أن أنتبه لنفسي وأن أسمع كلام صفية ولا أتعبها معي كالعادة... ثم تغلق السكّة!

أنا فنان متجول... أبحث عن شيء مفقود داخل حنجرة المطرب ولا أعثر عليه. الصدق... كثيرا ما أبحث عن الصدق دون جدوى. نفسي أقدم غناءً من نوع جديد... كأن كل ما قدمته مجرد هراء... كما قال شوبان. تذكرت شوبان وتذكرت جلساتي مع أبويا الله يرحمه وهو يسقيني الموسيقى الكلاسيك بالملعقة. أخذت أطرقع بالفالس على أصابعي اللحن الذي أتصور أنه مناسب لصوت الولد العريض. فكرت في مكالمتي لها ولم أفهم.

فاتت أيام وانتهينا من الغنوة، وأنا أسمعه اليوم في حفل ليلة رأس السنة تذكرت تلك المكالمة ثانية وفكرت...

إذا كانت تمزح.. فلماذا أغلقت السكّة فجأة...

وإذا كنا متخاصمين بجد.. فلماذا كانت تضحك؟[1]

---

أسمع.. وحدي.. وأسمع.. موكب أحاسيس.. حب يذيب الثلج.. نغمة لا يمكن أن يعزفها إلا فلوت قادر.. والعازف يغني لي وحدي.. يحدثني.. بيننا حوار.. حوار غريب.. مش فاهمه قوي.. بس بطريقتي أكلمه.. أعاتبه.. أستسمحه.. أصلي له.. لغة خاصة بيننا.. هو قال لي كده.. قال لي أتكلم.

قلت له إني موجوع.. اشتكيت له.. مديت إيدي عشان أكشف له عن صدري... عشان يشوف قلبي.. لكن كان اختفى قوام.

اختفى وفاتني

قررت أكتب.. أكتب اللي حاسس بيه[2]

---

يا صبر أيوب مين بقا هيصبّره

ع البعد ده، ده حرام كده!

حبيناهم بعدوا عنا بالسنين

تاهوا منا قولولنا فين

تعبوا قلوبنا بالأنين

صعبان عليا نعيش كده

---

(١) ورقة منفردة بتاريخ رأس السنة ١٩٧٧، ملحق بها نوتة الرتم الإيقاعي فالس، مضافا لها الجملة الرئيسية لأغنية «على قد ما حبينا» متكررة أكثر من مرة على أكثر من مقام.

(٢) قصاصة بدون تاريخ.

وندوق سنين من ده وده

لما احنا مش قد الغرام بنحب ليه

بنحب ليه؟؟؟؟[1]

---

النهاردة خدت الشنط ونقلت حاجتي من بيتها (من بيتنا) في سفنكس ورجعت شقة الزمالك!

من غير كلمة سلام. من غير نظرة عتاب.

وفي الآخر بليغ هو العربيد...هو الدون جوان...هو اللي عايش على مزاجه! فين العدل؟ أما حتة مقلب لو انتهينا كما الحيوانات.. إلا ماجابوش سيرتهم ليه.. يا ترى الكلب ولا الحمار بيحلم بالجنة أو النار.. بيحلم بالعدل اللي فوق... بالحكم اللي ربنا هينصف بيه كل عاشق... كل قلب اتعذب وكل لحظة حلوة كانت أو وحشة. طيب يتحاسبوا ازاي، اشتروا زينا الوهم.

يا سلام عليك يا جميل... ياللي بتحب الجمال... عبادك أغبياء بيدوروا عليك بعيد... وانت قريب قوي[2].

---

اتصلت بها اليوم. سلام وكلام رسمي جاف. نسيت كل ما كنت أريد قوله. كلمة حبيبتي وقفت في لساني... ما قدرتش... سألت:

«أنا مسافر أبوظبي بُكرة. حتيجي تسجيل البرنامج حسب الاتفاق؟».

---

(١) نوتة موسيقية بالكلمات أعلاه بتاريخ يناير ١٩٧٨. يبدو أنها بروفة مبدئية للحن «فاتت سنة» والذي ستغنيه المطربة ميادة الحناوي عام ١٩٨٠.

(٢) أول صفحة من نوتة حمراء بتاريخ فبراير ١٩٧٨. باقي النوتة فارغ.

«طبعا. مش فيه اتفاق وعقد!!».

صح، فيه بينا عقد، فيه بينا اتفاق. أهم حاجة الشغل. أهم حاجة صورة الغلاف.

كأني حاولت أقول حاجة.. نسيت.. ارتبكت.. لقيتها بتقول ببساطة bonne nuit وبتقفل السكة!

أكره اللغة الفرنسية... وأكره عندما تتكلم بها بدون أدنى مبرر[1]

---

لو أهشم هذا الرأس الصغير الجميل وأعرف ما به... لو أستطيع أن أقرأ الفكر والخاطر... لو أفهم ما يجول في بال تلك المرأة الصلبة الصامتة... دوما صامتة... قليلة الكلام... كل كلمة ع القدّ. خلاصة الأمر أنه في كل حكاية واحد يحترق من الحب، واحد مجنون، يعاني ويتألم، واحد مهووس ومذهول ينزف كلمات وورداً وأغاني، أما الثاني فهو يهز كتفيه بلا مبالاة قائلا، آسف، أو bonne nuit. من يحب ينسى، يغفر ويتسامح.

بتحبني ولا الهوى كان قدري أنا وحدي.. كان لعنتي أنا.

من يحب لا يمكنه أبدا أن يظل بهذه السيطرة ولا هذا التماسك!

كأني مجرد رقم مزروع في عالمها[2].

---

نزلت من الطيارة مطار أبوظبي... ولا كلمة... ولا ابتسامة. اتطمنت عليها من وجدي ومن رشدي ومحمد عشوب. قالوا لي إني لازم أروح

---

(١) نوتة زرقاء جلدية تحمل صفحتها الأولى ١٩٧٨. جميع المقاطع التالية من نفس النوتة، بعضها مؤرخ والبعض الآخر بلا تاريخ، حسب الموضح في الهوامش.

(٢) نفس النوتة المذكورة أعلاه. مقطع بلا تاريخ.

لها... أصالحها. ما حدش يعرف اللي حصل... ما حدش يعرف الحكاية غير اللي عاشها.

وايه فايدة الكلام؟!

هي نزلت في فندق منال عشان تبعد عن الدوشة... عن كل شيء... عشان تبعد عني.. يمكن... قلت للسواق:

«اطلع على فندق الخالدية».

أول مرة ننزل سوا كان فيه.. صورتنا سوا واحنا بنغني «خليك هنا خليك/ بلاش تفارق» كل همسة وكل لفتة، كل ذكرى جميلة. راحت فين الضحكة الحلوة... يمكن أنا كنت عبيط وصدقت.

وعلى رأي عبدالرحيم منصور: صابرين والصبر جميل/ والناس الحلوة قليل.

لقيت كل الناس هناك، كل صحابنا. قلت لنفسي لما لقيت كل الناس الحلوة دي هناك... يمكن أنشغل بالتسجيل والغنا عن الشيء اللي لازم أبطل أفكر فيه[1].

---

ألتقي بالمطربة صغيرة السن سميرة. سمراء دقيقة وهي ذات طموح كبير. إنها تذكرني بالمحبوبة الفاتنة... ذات الضحكة القاسية ... عندما التقيت بها أول مرة في مصر عام ١٩٥٩!

(يومها سألتها لماذا لا تبتسمين وأنت تغنّين... قالت محتاجة أركّز في الكلام!)

وكأني يعني بحاجة لشيء يذكرني بها!!

---

(١) نفس النوتة المذكورة أعلاه. مقطع بتاريخ سبتمبر ١٩٧٨.

أقرأ المجلات.. الموعد والشبكة وأراقب صورة الشخص المبتسم في سعادة واضحة... من هذا الشخص؟

من أنت؟

كل مطربة أعمل لها لحنا لا بد أن تظهر إشاعة زواج بيني وبينها وينسجون حولنا قصص حب وهمية. لو أن ما يقال كان صحيحا لكان لي الآن ٩٠ حبيبة و١٦٠ مولودا. أنا أدخل كل ليلة وحيدا إلى سريري البارد مثل مرضى المستشفيات. تخبرني (س) أن عيد ميلادها غدا وأضطر للذهاب. حياتي كانت ضحية الصدق... كل موقف يأتي طبيعيا... أمارس ما أحس به، أستسلم لإحساسي الشخصي.

من منا يمكنه أن يزعم أنه عليم بدوافعه.

ذهبت وحضرت الاحتفال.. أدّيت دوري كما ينبغي لموسيقار شهير ورجل سعيد. أتلقى المغازلات من هذه ومن تلك. أعاكس وأغازل وأضحك ونفعل كل ما يفعله السعداء وأندمج في الدور فأحتضنها أمام المصورين... في الصباح أطالع ما تكتبه الصحافة عني وعنها...

لا تحسبوا أن رقصي بينكم طربا/ فالطير يرقص مذبوحا من الألم (لماذا لم يلحن أحد هذا البيت. خطرت في بالي جملة لكن جيت أدونها نسيتها.. يبقا أكيد وحشة طالما نسيتها)

وقد جاء في الأثر أن السعيد حقا من كانت حياته على الحقيقة مثل ما يظهر على أغلفة المجلات الفنية اللبنانية[1].

---

أمشي وأمشي. الجو حار لكني لا أهتم... أمشي وأتأمل وأتخذ قرارات كثيرة. لا أستطيع تحمل علامات الاستفهام المرسومة في العيون.

---

(١) مقطع من النوتة المذكورة أعلاه. بتاريخ سبتمبر ١٩٧٨.

كان مجنون ليلى يقطع الصحراء بحثا عن النسيان. أنا كذلك أمشي وأمشي بحثا عن النسيان... بحثا عن قلب آخر... لا داب ولا حب... ولا انجرح ولا شاف حرمان. أتذكر الست، الله يرحمك يا ست!

كأنها كانت ترى كل ما يحدث لي الآن. (وعلى المكتوب ما يفيدش ندم)

هذه نغمة جميلة. الله يرحمك يا شيخ زكريا![1]

---

أرجعُ فأجد الدنيا مقلوبة. خير؟ الجميع يبحثون عني. لكن كما توقعت.. أو كما هو مؤكد.. لا اتصال منها ولا مكتوب ولا مرسال. مستكترة عليّ كلمتين منها.. كلمتين حلوين أو حتى كلمتين عتاب!

استكترِي براحتك!!!

أنزلُ (مع توفيق فريد وسوزان عطية ورشدي) لنحضر حفل استقبال أقامه لنا الإخوة الإماراتيون بكرمهم المعروف. نشرب القهوة في بهو فندق الخالدية ونركب السيارة إلى البلازا. كانت سهرة لطيفة حتى يبدأ أحد الحاضرين يمتدح ألحاني لنجاة ويقرر أن يسمعني بصوته البشع غنوة «بس وحياة اللي فات» فيركبني عفريت! أنا أصلا لا أطيق سماع ألحاني في الأسطوانات أو الراديو! يا عالم حد يسمع نفسه؟! ينجدني وجدي ويحاول التخلص منه بصنعة لطافة لكن الشخص يصر ويواصل الكلام. يعلق على أغنية «نسي» و«ليلة من الليالي» عبقري... عبقري خلاص خلّصنا.

---

(١) مقطع من النوتة المذكورة أعلاه، متبوعة بجمل موسيقية ونوتات لا يمكن قراءتها بسهولة.

كالعادة لا أعرف كيف أجيب عن هذا المدح المزعج. أهز رأسي منتظرا أن يسكت ولكنه لا يسكت أبدا. يعلق أنه يحب كذلك أغنية «وحياة اللي فات» قائلا إنها كذلك من أجمل ألحان الأستاذ عبدالوهاب للسيدة نجاة!!!

نفس التعليق الغبي المتكرر الذي سمعته عشرات المتكرر... ولكني أفاجأ برد فعلي كما يفاجأ به الجميع. لا أتذكر أني انفعلت على أحد من قبل بهذه الطريقة. يأخذني وجدي وسيد مرسي من يدي ويعتذران للرجل.

أرجع البيت. أعوذ بالله من الكِبر. كل هذا الغضب لأنه خلط بين لحن لي ونسبه لعبدالوهاب! وكأني أنا صاحب الفضل. الحكاية كلها رزق، العطاء رزق، الحب رزق والموسيقى رزق. حتى الألم يمكن علامة رضا، علامة افتكار. الواحد يبقا عبيط لو حسب أنها بشطارته...

لكن أنا فاهم... الحكاية لا كبر ولا لحن ولا دياولو. أنا متضايق عشان نفس السبب وبقالي عشرين سنة متضايق عشان نفس السبب مهما حاولت أكابر أو أعنِد أو أدّعي العكس.

رحمتك يا كريم يا حنّان[1].

---

اتصلت بصفية. سمّعتني ـ كالعادة ـ موشح لأني لم أتصل بها رغم وصولي أبوظبي من ثلاثة أيام. سألتني عن الأكل وعن الشرب والتدخين. سألتني عن كافة شيء وعن الست ليلى مراد (حياتي وروحي) قلت لها إنها ستصل الليلة. ثم أخبرتها عن انفعالي بالأمس بسبب الحكاية الخايبة وغنوة «وحياة اللي فات» ولخبطة الرجل بيني وبين عبدالوهاب. قالت فورا:

«يمكن كان قاصد يغيظك؟ ولا تلاقيك انت زودت في الشرب؟».

---

(١) مقطع من النوتة أعلاه، بالرصاص. دون تاريخ.

وبدأت تستجوبني عن الشرب. إنها تتجنب تماما الحديث عنها... تسألني عن كل شيء ولا تسألني عنها هي تحديدا.. ثم تقترح أن أرسل لهذا الرجل كارت اعتذار عن انفعالي بالأمس وباقة من الزهور.

ثم تكرر بنفاد صبر:

على الله بس ما تنساش مدام ليلى في المطار زي عوايدك. تروح تستقبلها وتاخد بوكيه ورد شيك وتلبس حاجة مهندمة تليق بيها. البس الطقم اللي حضرته لك. أكلمك أفكرك ولا حد معاك هيفكرك؟

مش حانسى، والله ما حانسى. ارحميني بقا يا صفية.

أيوة. إوعى تنسى، وسلم لي عليها كمان! قل لها صفية أختي بتسلم عليك.

خلاص والله، ارحميني بقا. حاجة تاني!

لا يا حبّة عيني. لا إله إلا الله.

سيدنا محمد رسول الله!

أنسى مدام ليلى مراد. ليه يعني. أنساك ده كلام، أنساك، يا سلام!!!!

وأقعد أدندن فيها شوية. طب والله كانت جملة حلوة. طول عمرك فنان برضو يا بلبل يا جميل[1].

---

ذهبنا كلنا.. أنا مع سميرة وسوزان عطية وتوفيق فريد لاستقبالها في المطار. نفس الأناقة ونفس الجمال كما هي كأن شيئا لم يتغير. الرقّة

---

(١) ورقة منفصلة داخل النوتة المذكورة أعلاه، بتاريخ ١٩٧٨ يبدو من السياق أنها في الوقت ذاته.

والعيون التي لا تعرف للونها وصفا.. نفس النظرة الساهمة. شبَه الأميرات، كما كانت في أفلام أنور وجدي.. حجر كريم نادر للوجود.. رحت عليها وحضنتها وبُست إيدها.

تعرفي إنك حب حياتي...

نفس الضحكة المميزة، وتقول في عتاب ـ لكن بلا مرارة:

ما انت أصلك بكّاش. فاكر آخر مرة قلت لي كده برضو وبعدين فضّلت صاحبك عليّ!

أستعيد المشهد بكامله أمام أستديو الإذاعة وإسماعيل الحبروك ورمسيس نجيب. تخونوه... أنا داخل أسجل مع مدام ليلى. الغنوة التي انتهت إلى عبدالحليم بعد كل شيء. عمر فات لكن الحرج ويمكن الشعور بالذنب لا يزال هناك. في تلك الأيام كانت الست ليلى (ليلى بنت الهوانم) فقدت سلطتها كنجمة كبيرة وتحاول التواصل مع مؤسسة السينما والجهات المسئولة والعودة للغناء أو التمثيل دون استجابة... ثم جئت أنا بهذه العَملة وجرحتها. حاولت أن أتكلم فهزت رأسها ووضعت يدها على كتفي.. لا تريد العتاب ولا الكلام في الماضي بتلك النفس الصافية التي لم تتكرر. نركب معا لفندق الخالدية وحين ننفرد ببعضنا البعض تقول في لهفة:

أخبار وردة ايه؟

قاعدة لوحدها في فندق تاني، لا كلام ولا سلام!

إخص عليك يا بليغ، ويهون عليك تسيبها لوحدها؟ يلا روح هات لها هدية حلوة وصالحها. الست مننا تحب الكلمة الحلوة والاهتمام!

فات المعاد وبقينا بعاد... تعرفي الملحن العبقري اللي لحن الجملة دي.

بليغ!

الست أم كلثوم الله يرحمها كانت معترضة على الدخلة المسرحية للغنوة... قالت لي يا بني بلاش النوتات العالية الله يهد حيلك. فين وفين على ما اقتنعت!

وأتنهد... ولا بد أن لهذا الألم آخرا. إنها تحذرني خوفا من الانفصال ولكن الحقيقة التي لا يدركها أحدٌ أننا لم نتزوج أصلا حتى ننفصل.

تصمت. أشعر بأنها تفهمني تماما... لكنها ليست مثل الستّ. إنها لا تعرف ما الذي ينبغي أن تقوله ولا تفعله، كيف يمكنها أن تخفف عني أو تتدخل لحل المشكلة. أم كلثوم بنت بلد، أما هذه فهانم رقيقة.

التسجيل بكرة حسب الاتفاق، أنا متشكر جدا لمجيئك وقبولك دعوتي لتسجيل هذه الحلقات.

وقبل أن أغادر الحجرة وأتركها تستريح.

وآسف تاني. يمكن متأخرة عشرين سنة لكن أنا آسف.

أبوس راسها وأغادر سريعا قبل أن أنفجر بالبكاء زي العيال الصغيرة ويتحول الأمر لمشهد يصعب السيطرة عليه[١].

---

بعد انتهاء التسجيل أنفجر في الضحك. الله يحظّك يا ست ليلى. سألتها عن عبدالوهاب، فقالت باقتضاب «ترزي» ومعاها حق. عبدالوهاب أحسن من يركب لحن جذاب للصوت. عبدالوهاب بيلحن من دماغه... بيلحن بالشوكة والسكينة والمازورة والمقاس. سألتها عن سوزان عطية فقالت ببساطة وكأنها تعلم الغيب «ممكن تلعب دور عاشقة مجروحة».

(١) مقطع من النوتة أعلاه. بتاريخ أكتوبر ١٩٧٨. باقي النوتة فارغ سوى من بعض النوتات الموسيقية والأسماء وأرقام التليفونات.

مافيش شيء مرعب أكتر من شفافية الفنان.. زي الأطفال... كأنها عارفة حكاية سوزان الأخيرة مع الواد النصاب من أولها لآخرها. وحين تكلمت عن سميرة قالت:

«متهيألي سميرة دي جبارة شوية».

لم تحب سميرة منذ النظرة الأولى. ذكرتني بالستّ أم كلثوم قديما وبرد فعلها حين أخبرتها عمّن أحب. ونحن ننزل السلم معا بعد التسجيل لا تتكلم. أردت أن أنكشها فسألتها عن رأيها في سميرة ثانية، قالت باقتضاب:

«أنت أصلك زي عمّك أنور الله يرحمه. كان مغرم كده برضو بالستات الطموحة المُتعبة».

أنا فعلا مغرم بامرأة طموحة، لا يوجد لطموحها حدود!

فردتُ إيدي وقلت لها «طب اقري لي الكف، انت مكشوف عنك الحجاب».

دفعت يدي بعيدا وقالت: «بس يا واد. وجع القلب هو وجع القلب»[1].

---

جاءت السيدة الأميرة (و) للتسجيل في المعاد بالضبط... كأنه لا توجد مشكلة.. أبدا!

أنا أحترق.. وهي تضع ساقا على ساق... ذهنها مرتب... كالعادة... وتعرف ما تفعل. جهزَت قائمة بما ستغنيه في الحلقتين قبل التسجيل. بمجرد دخولها تعطي تعليماتها للمخرج وفني الإضاءة بخصوص ما

(١) ورقة منفصلة بتاريخ أكتوبر ١٩٧٨. مطوية داخل النوتة المذكورة أعلاه.

تحتاجه. أتذكر ذلك الوجه الصارم... حين يتحول إلى اللهفة. حين سمعت أول مرة لحن «أي دمعة حزن لا» قالت بصوت شرِه:

عاوزاها!

يا وردة خلاص اتفقت مع حليم.

فتمط شفتيها في عدم رضا. لا يوجد أكثر من الألحان والجمل الحلوة. كثيرة مثل الهم على القلب... أما البعيد فهو راحة البال. تشير لكل الألحان التي أعجبتها... على رمش عيونها... فنضع لها كلمات جديدة (على قد ما يومها فرحنا سوا) وتغنيها. بنلف نلف... تغنيها قبل أن نسأل أو نستأذن من سميرة، والتي تصمم بدورها على أن تغنيها بعد ذلك في حلقتها. هذا لحمي فكلوه وهذا دمي فاشربوه. وأنا أراجع شريط الحلقة أراقب ملامحي الباهتة الشاحبة ونحن نغني معا «ويلي يا ويلي». إنني أذوب بينما هي تفور نورا وبهجة وجمالا. أذكرها بأول الحكاية، نغني معا «تخونوه» ونغني معا «العيون السود» هذه هي الحدوتة. كل مرة أراها كأنها أول مرة... ولا هي هنا. تحاول ضبط صوتها على النغمة، وحين يفلت منها الإيقاع أو تنسى الكلام تشير لي لأسندها بالغناء. ننتهي من التسجيل وتأخذ نسختها من الشريط وتبتسم بشكل رسمي. أسألها إن كانت ستعود للفندق فتقول Oui. أكرهها حين تتكلم بالفرنسية... أكرهها من كل قلبي. أشاهدها وهي تغادر الأستديو حتى تختفي... وأشعر بغيظ بلا حدود.

إنني أعشقها وأكرهها وأكره نفسي وأكره هذا الضعف معها.

كيف اخترعت البشرية كل هذه الاختراعات ولم تتمكن بعد من اختراع شيء يمكن الإنسان من فهم دوافعه... من معرفة ما يحس به بالضبط أو على الأقل لماذا يحس به. حين يخبرني وجدي أنها تعبت فجأة ونقلوها للمستشفى لإجراء عملية في الأمعاء أشعر ببرود مثل الثلج. في لحظة... كأن كل شيء كان سحابة جاءت وراحت بعيد.. في غمضة عين.

(أتذكر ما حدث في فندق سميراميس من سنين. أتذكر تعليق عبدالحليم وخصامي معه. الله يرحم الجميع).

كأن كل شيء تبخر... سنين الهجر والهوس والخصام والملاحقة والاسترضاء والاعتذار والفرحة والزعل والانتظار، كانت كلها تدريبا على هذه اللحظة.. يمكن معجزة ماء زمزم... أو يمكن شفيت... جننت.. أو عقلت... يمكن تعبت والحب يحتاج لطاقة وبنزين... وأنا خلاص. قلت لوجدي تمام.

فردت على السرير كل ما لدي من ملابس وأحذية. دخلت عاملة السرفيس فسألتها عن لون الإسكارف المناسب لملابسي فضحكت واختارت لي لونا. نظرت في المرآة فرأيت وجه رجل مرهق.. ولكني لا أشعر بشيء. كأن جسمي يحيا حياة أخرى لا تخصّني.

نزلت. فعلت كل ما يفعله السعداء... ضحكت وأكلت وشربت واستسلمت لفلاش الكاميرا. لو كنت صاحب الأمر لمنحتُ كل الناس كل ما يتمنونه... المال والموهبة والنجاح والشهرة والمعجبات، حتى يعرفوا أن الحل ليس في كل تلك الأشياء التي يتمنّونها ويحسدوننا عليها. الحل في مكان آخر... ولكني لا أعرف أين هو.

أعود إلى البيت وأضع نفسي في السرير بملابسي... يا رب... أين هي راحة البال... وأين هو العدل في الحب.

يا رب يا رحيم بعبادك[1].

---

أفتح عيني على صداع لا يطاق.. أتصل بوجدي وأطمئن عليها. أرسل

---

(١) مقاطع متفرقة في نوتة منفصلة، بدون غلاف أو تاريخ، لكن يبدو من السياق أنها من نفس الفترة.

لها بوكيه ورد. البوكيه الذي أرسله منذ سبعة أعوام، كل يوم، كل يوم، ولكني لا أرسل كارت هذه المرة.

و... يومٌ آخر ضائع في الفراغ.

أرى في ساحة الفندق طفلا جميلا، أشقر بعيون ملونة. لو أن طفلنا الأول جاء للدنيا لكان في عمر هذا الطفل... أمنحه وردا وشوكولاتة وأغني له ألحانا لم يسمعها بشر.. لكني رغم ذلك أعرف أنها ستصل لابني في الغيب.

أنا متأكد أن لي ألف طفل في السماء. وسأراهم يوما ما. متأكد!

وعندي الهوى موصوفه لا صفاته/ إذا سألوني ما الهوى قلت ما بيا

الهوى أعرفه وأعرف أني غارقٌ فيه، ولكن ردودها لا علاقة لها بهوى ولا يحزنون. لا جدوى من المحاولة. اتصلت بمحمود لطفي المحامي، قلت باختصار وأنا ألقي عن صدري حملا ثقيلا:

«طلّق يا محمود».

ويفترض هكذا أن تكون الحكاية التي بدأت من عشرين عاما قد انتهت. لعلي أستريح. لعلها تستريح!

طلاق

طـ لـ ا ق.

فراق، جميع الكائنات تبكي من أثر الفراق.

من القائل؟

لا أذكر شيئا مما يؤكده الجميع، رشدي وسوزان عطية وجميل

المغازي. يؤكدون أني كنت جالسا وسطهم، مرتديا جلبابي الأزرق على اللحم... رغم الجو البارد... ثم قمت وحدي وجلست على البحر.

يؤكدون أنهم شعروا بالخوف عليّ فتبعوني وجلسوا معي... ويؤكدون أني أخذت العود وبدأت أدندن... وحدي. يناولني رشدي ورقة كتب عليها النوتة بطريقة السماعي. رشدي لا يعرف كتابة النوتة ولكنه خاف أن تضيع النغمة وساعدته فيها سوزان عطية. أخذا يرددان لي ما غنيت... وأنا لا أذكر ولا كلمة. لكن النغمة نغمتي. أعرفها. أعرفها كما أعرف رحمة الله.

رغم كل شيء فيها والله كام جملة مش بطالة!

تبدو سوزان مترقبة. عندها أمل في الصلح مع اللحن الجديد فأقول حتى أنهي الموضوع وأغلق باب الأمل:

«على الله بس ميّادة تغنيها عدل».

وتبدو خيبة أمل في العينين الطيبتين. معلش.

أقوم أنا لأحضر الأقلام الرصاص والنوتات لصياغة وتدوين هذه الغنوة التي بعثها ملاكي الحارس لمسة رحمة من المجهول.

صياد وصنعتي أرمي الشبك وأقول يا رب![1]

---

العزيزة الغالية ميادة الحناوي

تحيتي لك من جدة، حيث ذهبت لقضاء عدة أيام عند بعض الأصدقاء لحضور حفل زفاف وكذلك للانتهاء من بعض الارتباطات الأخرى. أبلغتني أختي صفية باتصالك الكريم

---

(١) أوراق متناثرة بتاريخ مايو ١٩٧٩.

فشكرا جزيلا، أنا بخير حال وأحمد الله على الجرح كما أحمده على الفرح. أنت تعرفين عندَ صاحبك الصعيدي، ولا بد أن ننتهي من غنوة «الحب اللي كان» قبل كانون الثاني أو على أقصى تقدير شباط هذا العام لنقوم بتسجيلها في دمشق كما هو الترتيب، وأنا أظن أنني بحاجة للبقاء قليلا في الشام. أؤكد لك بمشيئة الله وفضله أن هذا اللحن سيكون هو الحدث الأهم لموسم ٧٩/ ١٩٨٠.

سأعاود الاتصال بك فور وصولي للقاهرة. سلامي لفاتن وعثمان والجميع!

ملحوظة: بلغني أن صديقنا اللدود موسيقار الجيلين اتصل بك مجددا. عجايب! يهمني جدا أن أعرف (...) [١]

---

حين أخبرها أنها مثل القمر تضحك وتظن أني أغازلها. تتدلل وتمشي بكبرياء. تهتز بثقة الأنثى التي سيطرت على الذكر الساذج. كل واحدة منهنّ أقول لها «أنت مثل القمر» تتصرف بنفس الطريقة، نفس الابتسامة ونفس الحركة المختالة.

لا تفهم أني أعني بالقمر أنها معتمة... أنها لا تضيء إلا من شمسي... شمسي التي لا تكف عن الاحتراق.

وأنا على طول ما رأيت وما قابلت لم أعرف من المطربات.. من الستّات.. إلا شمسا واحدة. الست.. هرم الفن الشامخ الذي قدمني للعالم كله.

---

(١) خطاب غير مكتمل وسط مجموعة كبيرة من الأشرطة تحوي نوتات وتوزيعات مختلفة لأغنيتي «الحب اللي كان» و«أنا باعشقك» مكتوبة كلها بالرصاص.

الله يرحمها. الله يرحمك يا ست أم كلثوم!

ننتهي من البروفات بطلوع الروح. عملنا اللي علينا والباقي دلوقت في إيد رب العالمين!

أي شخص يفهم في الصنعة يجب أن يعترف بقيمة أغنية «في يوم وليلة» وأجد نفسي رغما عني أذهب لحضور الحفلة. تبدو سعيدة. أصافح الأستاذ فيهز رأسه برسمية ويرد الأستاذ ردوده الديبلوماسية المثيرة للأعصاب.

بمجرد دخولي البيت أجد صفية في وجهي. خير؟ مدام ليلى اتصلت بك أكتر من خمس مرات، وأكدت أنك لازم تتصل بها ضروري. أذهب لأتصل بها وأنا أعرف مسبقا ما ستقول. أحسست به قبلها وأنا أودعها في المطار في أبوظبي!

أتصل بها وبلا جدال ولا كلام أقول لها تحت أمرك يا ست الكل!

احنا المهم عندنا الجميل يبقا راضي علينا.

هذه الضحكة الخجول المرتبكة تكفيني من الدنيا. أؤكد لها أني يستحيل أن أرفض لها طلبا وأنه لا داعي للقلق. تقترح عليّ تعويضا ماليا للخسارة المحتملة فأقول وقد استيقظ شيطاني من جديد:

لا فلوس إيه؟ عاوزك تعزميني على الغدا وبعدين تقري لي الكف أو الفنجان!

ودندنتُ لها على مهل:

«اللي قرولي الكف قالولي/ خط القلب ده دايب دوب»

فرنّت ضحكتها الصافية ثانية... ضحكة قصيرة متعثرة تخلع القلب... «يا بكّاش». رنين ضحكتها ذكرني بجملة الكلارينت في الحركة الثانية

من سيمفونية شوبرت غير المكتملة. قلت لنفسي إن السيمفونية ربما لم تكتمل.. ولكن حدوتة الزعل مع ليلى مراد يمكن لها أن تنغلق الآن. وعدتها أن أتخلص من الأشرطة ولا أذيع هذه الحلقات.. وحين أغلقت السماعة شعرت بصفاء غريب. خفة ريشة تستسلم لنسمة الصيف الحلوة.

تسألني صفية عن الخبر.

الست ليلى لا تريد إذاعة حلقاتها في برنامج جديد في جديد!

يا خبر! والعمل؟ أنت فلوسك كلها راحت في البرنامج ده؟

ولو! حتى لو فلّست لن أقول لمدام ليلى لا. لن أضايقها مرة ثانية أبدا! طالما هي لا تريد أن يراها الجمهور بصورة غير التي رآها بها فلن أكسر طلبها.. مستحيل. وتقول صفية:

عارف أن بيتك هيتخرب طبعا؟

ففردت كفي مسلما الأمر لله. هي المزيكا الحلوة هتروح فين. ظننت أنها ستجادلني وتطلب مني أن أتراجع عن هذا القرار ولكنها قالت بدلا من ذلك:

حلوة قوي الغنوة اللي غنيتها للست ليلى في التليفون دي...

اللي قرولي الكف؟ ده العزبي وتلحين ملحن جميل جدا اسمه إبراهيم رأفت لكن للأسف حظه قليل...

فتهز رأسها بإصرار في اعتراض:

لا يمكن! ده لحن حلو وطالما لحن حلو يبقا أكيد بليغ أخويا!

أما الجدال مع صفية فلا طائل منه. أحتضنها وأقبل رأسها.

طيب عجبتك الغنوة الجديدة؟ «حبينا واتحبينا»

طالما لحن بليغ أخويا تبقا جميلة، لكن اللي مش بيعجبني أن بليغ يبقا زعلان ويؤذي نفسه[1].

---

أخي الموسيقار المبدع ماجد خان

تحية طيبة من القاهرة الصاخبة. سعدت برسالتك الأخيرة ويسرني أن نلتقي في باريس بعد أسبوعين لبدء العمل والتسجيل. بخصوص استفسارك عن الاسم المقترح للعمل، فلا يزال الوقت مبكرا لاختيار اسم للأسطوانة لكن يمكن لي أن أقترح اسم «جزايرية» على سبيل المثال.

في انتظار لقائنا قريبا بمشيئة الله

أخوك/ بليغ حمدي[2]

---

الأخت العزيزة الغالية على قلبي وقلب كل عاشق للفن فايزة أحمد.

ألف سلامة لرجوعك.. رجوعك لكل شيء.. للملحن والأخ والحبيب سلطان وقبلها وبعدها رجوعك لجمهورك ولفنّك. ألف حمدالله على السلامة يا روح قلبي.. كانت سحابة صيف وربنا ستر ورجعت لبيتك ولأولادك.. أكيد التجربة مؤلمة لكن قدر ولطف وكله يهون طالما أنت بخير وبيننا.

نصيبنا كده يا فوفّا.. نجري وراء قلوبنا حيث تريد فتأخذنا في

---

(١) أوراق كثيرة متناثرة مدونة بالرصاص! بعضها بتاريخ وبعضها بدون يجمعها ملف واحد وكما يبدو من السياق أنها في نفس الفترة

(٢) صورة من كارت بوستال أرسل به الموسيقار لـ ماجد خان والذي تفضل بإهدائه لنا، بتاريخ ٢٤ إبريل ١٩٨٠.

داهية.. ولكن الحمدلله أولا وأخيرا أن هذه الحكاية انتهت وأنك تخلصت من هذا الإنسان السيئ ورجعتِ لنا.

أختي فايزة، ما يهمنا الآن هو حالتك الصحية. فريال بلغتني أنك أجريت عدة أشعات وفحوصات قبل سفرك لدمشق وعرفت منها كذلك أنك انتهيت من تحضير الفستان الذي سترتدينه في الحفلة وأنت تغنين اللحن الجديد! هي دي فايزة اللي أنا أعرفها الجدعة اللي دماغها زي دماغ الصعايدة ولا أي حاجة ممكن تكسرها! فايزة اللي اتصلت بي من أسابيع وقالت لي:

«انسَ كل ما لحنته في حياتك. أنا عاوزة منك حاجة جديدة ما حصلتش».

أنا متفائل خير بـ «حبيبي يا متغرب» (وفيها نغمة حلوة بإذن الله تعلق مع الناس، جملة أنا عايزة أشرب من إيدك/ وأتنهد مع تنهيدك) وطبعا بلحن الأستاذ الكبير أستاذ الكل رياض السنباطي رحمه الله. إن شاء الله يكون شيء جميل، وترجعي لنا يا روحي بألف سلامة!

أخوك/ بليغ[1]

---

يوميات: حفلة الكويت

بقلم ابن النيل بليغ حمدي

بسم الله الرحمن الرحيم

---

(١) صورة من خطاب مرسل للسيدة فايزة أحمد بتاريخ مارس ١٩٨٢. من مقتنيات الأسرة

كانت حفلة ممتازة جدا بفضل الله. الواحد استعاد ذكرياته مع الست أم كلثوم ورجع مزاجه يعتدل شوية. لا فيه مزاج لغنا ولا سميعة لكن نعمل ايه؟ نموت؟ نغنّي أحسن ما نقعد ساكتين. وبعدين عملت فيهم (العازفين والفرقة) حتة فصل يهلّك من الضحك... بعد ما بدءوا يستعدوا لعزف الكوبليه الثاني رجعت أغني من الأول «أنساك» وحصلت لهم ربكة! لولا أني كنت على المسرح لكنت انفجرت في الضحك. وأنا أحكي لصفية قالت بامتعاض:

ـ ايه قلة القيمة دي؟ حدّ يعمل كده!

ـ فكرة هبت في دماغي... كنت عاوز أنبسط!

سكتت قليلا ثم قالت:

ـ فاكر يا بليغ زمان لما سكرت ورجعت بالليل متأخر تستخبّى. أنا فتحت لك ودخّلتك من غير ما حدّ يحسّ. قعدت ترجّع طول الليل وأنا جبت لك حاجات سخنة تشربها وتعيط. أقول لك حد يعمل في نفسه كده تقول لي عاوز أنبسط.

تصدق فعلا ده شكل واحد مبسوط قوي!

قعدت أضحك، لكن فكرت في كلامها. يا ترى فيه كام لحظة انبساط بصدق عشتها يا بلبل يا جميل؟!

فكرت أقعد أكتبهم في ورقة، لكن نسيت... أو كسّلت... أو يمكن خُفت!

حالة انعدام وزن... باطير في مجال بلا مغناطيس يجذبني لأي شيء.. فراغ.. حاسس بحالة رفض جوايا.. صاحية معايا من النوم.. بافتح عينيا وانا بافكر في نفس الموضوع. لأ.. مش

تفكير.. لأ.. دماغي بتلفّ على الفاضي. مبسوط؟ لأ.. زعلان؟
لأ.. إيه فيه إيه؟

رفض. مجرد عاوز أقول كلمة لأ. تحطيم القواعد.. الحركة
اليومية والسلوك. واني أبطل افتكر اللي بيضايقني.

وبعدين مش ممكن أصلا يكون فيه يوم يبقى اسمه يوم
السبت!![1].

---

أستعيد شهيتي من جديد للعمل. أعرف نفسي حين أشتغل بمزاج.
أتصل بحضرتلو الشاعر عبدالوهاب محمد أفندي بك:

ـ أنت لسة نايم يا جدع انت. قوم يلا بسرعة...

ـ على فين يا شهريار أفندي على الصبح؟!

ـ على إسكندرية! يلا بسرعة!

ـ يا جدع انت!

ـ ولا كلمة! مش ده كلامك «يا بنات اسكندرية/ مشيكم في الزنقة غيّة» آهو الكلام ده لا يمكن تلحينه إلا في إسكندرية ذات نفسها... وفي زنقة الستات... وإلا مفيش مزيكا!

ـ ده الغزالة رايقة خالص. طيب يا سيدي أمرك!

ـ يلا قوام مش هنقعد نرغي.. بلاش أمور الشعرا دي.. هو انتو ربنا هيحرقكم في جهنم من شوية!

---

(١) ورقة واحدة الوجه بالحبر، بتاريخ إبريل ١٩٨٢، والظهر بالرصاص بدون تاريخ.

أسبوعين بالكتير ونخلص أغاني ريا وسكينة. الواحد بقاله كتير ما اشتغلش بمزاج كده. اللهم لك الحمد[1]

---

في بيت بهجت قمر كل الأحباب... سهير وشوشو وعبدالوهاب محمد وحسين كمال، وأنا وصفية، وناس كتير حلوة. بعد البروفة الجنرال للمسرحية وقبل عرضها أول مرة على الجمهور. أنا أفضل حالا. صحيح أني ما زلتُ أفتح عيني صباحا فأفكر فيها وفي قصتي معها وكذلك قبل النوم... لكني أحسن حالا... وها هو ذا ربنا يوفقني أخيرا وبعد أربع سنوات من الفراق (الانفصال) لتقديم عمل يسعدني ويرضيني.

المسرح الموسيقي وما زال حلمي الأصيل والكبير... حاولت في مهر العروسة... وريا وسكينة خطوة... صحيح أنها ليست مسرحا موسيقيا كما أتصوره... لكن الأغاني وترديد المجاميع يلعب فيها دورا كبيرا.

شادية تنظر لي في عيني فتعرف بالضبط ما أفكر فيه... ما يشغلني وما يوجعني... وتقترب مني أنا وصفية:

ـ يعني عاجبك أخوك ده. كل مرة أقول له يلا نتجوز وهو يتهرب مني!

ـ أخويا ده مغلّبني يا شوشو وحياتك!

أتدخل لإنهاء هذه الأسطوانة التي ستشتغل بلا مبرر.

ـ اعملي معروف! ما تفتحيش عليّ فتحة أنا في عرضك!

---

(١) مجموعة أوراق غزيرة ونوتات موسيقية وصور فوتوغرافية جمعنا منها ما يخص مسرحية ريا وسكينة (عرضت بمسرح الحرية بالإسكندرية ٨٢/ ١٩٨٣) والأوراق جميعها بدون تاريخ.

فتُرقص لي حواجبها قاصدة تغيظني... وتواصل كلامها مع صفية وكأني غير موجود:

- فاكرة زمان يا صفية واحنا صغيرين في بيت شبرا... لما كنت أجي ألعب معاك أنت وأسماء... وكان الأفندي يبقا قاعد على البيانو أو ماسك العود. نيجي نعاكسه وهو يجري ورانا يضربنا عشان نسيبه في حاله مع مزيكته!

أضحك لكن صفية تمصمص شفتيها بشكل درامي مسرحي:

- أُمال.. فاكرة تمام! هو كان بيسيب حد ييجي جنبه!

- لا باقولك إيه أنت وهيّ! أمور زكي طليمات دي اعملوها بعيد عنّي!

فتقترب شادية وتضع ذراعها في ذراعي أنجاجيه:

- طب ينفع أمور إيرما لادوس؟!

نأخذ جنبا ونتكلم.. نتكلم كتير قوي، أحكي لها كافة شيء.. وآخر اليوم تحتضنني بقوة وهي تقول بقلق جاد:

- خلي بالك من نفسك يا بلبل. صفية بتقول لي إن البيت سداح مداح! ما ينفعش كده يا حبيبي. الحياة لازم تستمر مهما حصل ولازم ناخد بالنا من نفسنا!

أعدها بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

العجيب أن كل كلمة (...)[1].

---

تحقق ريا وسكينة النجاح المرجو... فراغ في صدري يمتلئ ولكني

---

(١) الأوراق المذكورة أعلاه. نص غير كامل ولعل له بقية في الأوراق التي لم يتم فرزها.

أعرف أن نفس الفراغ سيعود من جديد... كأنه البحر... كأنه بئر لا قرار له. متى يزول هذا الضيق. متى تتبدد هذه الوحشة. أتصل بعبدالوهاب فيدعوني لبيته مؤكدا أن هناك لمّة حلوة... أصل هناك فأجد الشيخ محمد عمران شخصيا.

- مولانا!

- هو انت يا ملعون! نجم النجوم. حضرة الديك الفصيح. أهلا يا خويا!

ثم يبدأ ينشد بصوته الجبار:

«حبك جننا يا اسمك إيه».

وأضحك حتى تدمع عيناي وتوجعني بطني.

- يا سلام يا مولانا لو تسيبنا نعمل لك دويتو مع الست شادية، يبقا حاجة عجب!

- قطع لسانك! فاكرني الشيخ النقشبندي تضحك عليّا أنت ووجدي الحكيم بكلمتين!

يعزف لنا عبده داغر من السيكا كام جملة حلوة، ويقول الشيخ عمران «هو صحيح الهوا غلاب» فأهتز من الأعماق. أجمل من تعامل مع الصبا، الله يرحمك يا شيخ زكريا، الست أم كلثوم كانت بتنقل صبا وجنس فرعي حجاز وبعدين عجم! الصبا الرسمي... كما درسناه في الكتب... أما الشيخ عمران فيقولها صبا وجنس فرعي وبعدين حجاز، وحجاز كمان مرة من السي بيمول. قراءة المشايخ اللي على حق!

الغناء الشرقي باق ما بقي كتاب الله لأن كل تقاليد الغناء محفوظة في تقاليد دولة التلاوة.

ـ أيوة كده! حلوة النقلة دي. آهي دي بركة كتاب الله الكريم!

(سر جمال ألحاني هو القرآن الكريم.. لقد قرأته ٤٠ مرة وكل ألحاني هو مصدرها. فيه أجمل الألحان وأعظمها).

ـ يا سلام! يا سلام عليك.. اللهم قوّ إيمانك يا عرص أفندي.

وينفجر الجميع في الضحك بلا توقف.

وحين توشك السهرة على الانتهاء يخرج لي (الله يمسيه بالخير) من جيبه قنينة صغيرة ويقول لي:

ـ ماء زمزم لما شرب له. اشرب وادعي ربنا.

فيبتسم عبدالوهاب محمد ويخطف هو القنينة من يده.

ـ عملتها من قبلك الست أم كلثوم! جابت له ماء زمزم من الحرم لما أخوها الشيخ خالد رجع من العمرة وقالت له ادعي عشان تخلص من لوثة الغرام دي لكن واضح أن الأستاذ ما دعاش بضمير!

ـ شوف مين اللي بيتكلم! يا جدع همّ الفنانين حبهم كده! طب ما انت مغرم برضو بالبنت التونسية الجديدة، والأستاذ عبدالوهاب شخصيا كان مفتون ببنت في عمر أحفاده، ولولا تدخل مراته وستر ربنا كانت بقت فضيحة!

وأنا لا أحب أن أعكر مزاج نفسي بعد سهرة جميلة.. فأحاول تغيير الموضوع.

ـ طب ما انت فنان يا مولانا.. لكن عمرك جربت الحب المدمر ده!

ـ لا يا أخويا! أنا من أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون!

وعبدالوهاب يبدو يستعذب هذا الحوار إلى ما لا نهاية فيقول:

- حضرته كل سنة يكتب غنوة جديدة مخصوص ليها. رسائل غرامية علنية على لسان مطرباته. بالذمة يا عالم فيه كده!

- يا حلاوة يا أسيادنا! حاجة مُلك!

- آه والله يا شيخ عمران.. بيفكرني بفيلسوف اسمه كيرجار.. كان برضو بيحب واحدة ولما سابته قعد أربعين سنة يكتب عنها. كل كتبه وفلسفته عن الست دي.

- لا حول ولا قوة إلا بالله. أهل الحب صحيح مساكين.

وأستغل الفرصة فأقوم مسرعا.

- لا طالما وصلنا لكيرجار يبقا أستودعكم الله.

وأقبل يد الشيخ وآخذ قنينة ماء زمزم من عين عبد الوهاب محمد وأفر هاربا[1].

---

## خناقة بين الموجي وبليغ على أميرة سالم[2]

«وقعت مشاجرة بين بليغ حمدي ومحمد الموجي بسبب منع الموجي زوجته أميرة سالم من غناء أغنية من ألحان بليغ. تطورت المشاجرة بينهما لتبادل الشتائم والاتهامات، وتم إخطار شرطة الوايلي ولكن المأمور تمكن من التوفيق بينهما وتمت المصالحة في القسم».

---

الأخ العزيز وعشرة العمر محمد الموجي

تحية مملوءة بالمرارة والعتاب.

وبعد:

---

(١) مذكرات شخصية. بتاريخ يوليو ١٩٨٣.

(٢) قصاصة من جريدة الأهرام المسائي بتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٩٨٣.

يصحّ كده يعني يا محمد؟! يصح تكون هي دي الأخبار اللي تُنشر عنا واللي يقراها الناس! المشوار اللي ابتدا بي أنا وانت وكمال الطويل ومعانا حليم الله يرحمه... كلنا طموح نغير وجه وملامح الموسيقى العربية وننقلها لمكانة تليق بها! خلافاتنا وضحكنا ولعبنا (وغيرتنا) ينتهي بكمال الطويل معتزلا لأنه قرفان من الوسط الفني.. وأنا وانت بنتخانق في الشارع ونتصالح في القسم؟!

يصح كده يعني يا محمد!

مش قصدي العتاب ولا الملامة لكن خليني أحكي لك حكاية يمكن تفتكرها وتفهم قصدي:

حكاية ولد ملحن صغير... مليان شوية وقصير شويتين ومش وسيم قوي... خجول لكن بيحاول يلاقي سكة يعبر بيها عن اللي جواه.. ويوصل للناس المزيكا اللي بيحلم بيها.

الولد الملحن ده... لسبب ما كان بيحس دايما باستخفاف ناس كتير به.. يمكن الغيرة؟ يمكن سنه الصغيرة؟ لكن كان دايما بيحس ان فيه استهانة بكلامه واقتراحاته... لغاية ما ألحانه تنجح.. الناس تستغرب... وكأن نجاحه هو المبرر الوحيد لاستمراره وسطهم. أنا قلبي عمره ما كان أسود يا محمد... لكن مرة.. زمان... كنا قاعدين سوا... أنا وانت وحليم وكمال الطويل... أنا الأصغر سنا والأقل نفوذا.. وانت تسألني:

«طموحك وصل لفين يا بليغ في التلحين؟».

كلهم كانوا بيقولوا إني ساذج.. تفتكر.. ساعتها جاوبتك:

«أنا عملت ألحان لكل المطربين...».

وقبل ما أكمل يقاطعني كمال الطويل ساخرا:

«كمّل يا عزيزي! والستّ.. عاوز تلحن أيضا للست أم كلثوم!».

وليه لأ؟

ما لوش لزوم أفكرك ساعتها انتو قلتوا إيه... لأن ربنا شاء بكرمه إني أعمل ألحان عشر سنين متواصلة مع الستّ.. خدتنا الدنيا وحققنا نجاحات واتصافينا واتخانقنا واتصالحنا... عرفنا ناس ونسينا ناس وسبنا ناس توقع بينا.. اجتمعنا مع حليم واختلفنا عليه.. وبعدين سابنا وراح لوجه كريم.. سابنا هنا نتخانق في الأقسام.

على كل يا سيدي لو كان لي حق عندك فأنا مسامح فيه.

ولو كان لك عندي حق فأكيد أنت عارف أن الدنيا خلصت مني القديم والجديد!

لك مني كل حب ومودة يا صاحب الأيام القديمة الحلوة..

ربنا يرحمنا ويرحم الجميع أحياءً وأمواتا.

أخوك/ بليغ حمدي[1]

---

حضرة الأستاذ الموسيقار الكبير بليغ حمدي

تحية طيبة وبعد:

إنما يطيب لي أن أحييك على تلك الموسيقى الفذة والفريدة التي قمت بتأليفها مقدمةً لفيلم «شوارع من نار» والذي شرفت بمشاهدته الأسبوع الماضي بين مجموعة من الأصدقاء. لستَ بحاجة لشهادتي بالطبع، فأغانيك وألحانك الذائعة، وعلى

---

(١) خطاب بتاريخ يناير ١٩٨٤. يبدو أنه لم يُرسل.

رأسها أعمالك مع السيدة كوكب الشرق، الست أم كلثوم، تقطع بموهبة لا مثيل لها، ولكن أردت أن أتوجه لك بشكر متعلق بهذا العمل على وجه الخصوص. فقد استطعت أن تعيدني به في دقائق معدودة لزمن كامل مضى وطواه النسيان، زمن كنا شهودا من شهوده، وكان لموسيقاك، بنغماتها المحددة، مفعول السحر في استعادته كاملا بما فيه من لحظات كامنة في صميم الوجدان، لتؤكد لنا من جديد قدرة الفن الصادق على أن يكون واحة عذبة نطمئن إليها في دنيانا المليئة بالشجن، فإليك أتوجه بخالص شكري وامتناني

وتقبل فائق التحية

المخلص/ نجيب محفوظ[1]

---

الأخ الحبيب بليغ حمدي

تحية طيبة دافئة من الكويت الساخنة

ازيّك يا راجل يا طيب!

سأدخل في الموضوع مباشرة ـ كما تفعل أنت في موسيقاك وأغانيك وأقول لك إن صفية اتصلت بي من عدة أيام اتصالا معاتبا أني لا أزورك ولا أسأل عليك. أخبرتها أني مسافر ولكني سأتصل بك فورا حين عودتي لأفاجأ بصوتها يتحول لما يشبه الاستغاثة والبكاء. إنها تشعر بالقلق من شيء غير واضح؛ تقول إن البيت تحول لفوضى شاملة، ناس داخلة وناس خارجة دون أن تعرف ماذا يحدث وتطلب مني أن أتدخل وأنقذك!

---

(١) كارت من الأستاذ نجيب محفوظ بتاريخ مايو ١٩٨٤.

هل هي تبالغ؟ هل أنت بخير؟ هل تستطيع تجاوز أزمتك العاطفية وتعود لفنك؟ وهل أراك قريبا؟

كلها أسئلة أحتاج أن أحصل لها على إجابة، ولولا ظروف السفر ووسائل الضرب تحت الحزام التي أعانيها تضييقا على قلمي وعلى رزقي لكنت جئتك فورا.

عموما كلها يومان وأعود للقاهرة ونتقابل.

حتى ذلك الحين

خلي بالك من نفسك يا راجل يا طيب.

أخوك محمود عوض[1]

---

وجاءت شهادات الجيران لتزيد الطين بلة. منها شهادة المحامي أحمد إمبابي أحد سكان عمارة بليغ الذي قال إن بليغ كان دائم السهر ويقيم الحفلات الصاخبة حتى الصباح، وشهادة محمد بهنسي، ساكن آخر بالعمارة الذي قال أن الجيران كانوا يشتكون دائما من هذه الحفلات الصاخبة كل ليلة[2].

---

الصوتُ جميل فعلا... صوت بالغ الجمال... كأني عمري ما سمعت صوتا في قوته أو نقائه أوعذوبته من قبل... الصوتُ يتهادى واثقا بجماله وأنا نشوان... عيني بتدمع من الفرحة والجمال... الصوت لمؤذن

(١) خطاب من الصحفي المعروف محمود عوض بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٩٨٤، قبل ثلاثة أيام من حادثة سميرة مليان! وقد كتب عنها فور حدوثها مقالا في جريدة القبس الكويتية بتاريخ ١٩ ديسمبر ١٩٨٤. (من مقتنيات الأسرة).

(٢) صورة من مجلة كل العرب في ديسمبر ١٩٨٤ وعليها تعليق بخط بليغ «مرعب».

ينادي لصلاة الفجر... والأذان دايما من مقام الحجاز... حجاز على رست أو حجاز ونغمة فرعية نهاوند... الشيخ قرر أنه يقول الأذان من النهوند.. وماله؟ لكنه بينقل من النوتة الرابعة مش التالتة.. بينشز تماما وبابدأ أنزعج.

أفتح عيني وأكتشف أنه كان حلم.

أو يمكن كان حقيقة.. أو حقيقة شبه الحلم.

أفتح عيني وألاقي صباح بتخبطني في كتفي وبتلطم:

«الحق يا سيدي. البت المجنونة رمت نفسها من الشباك»!

ليس حلما.. ليس حقيقة.. إنه كابوس.. كابوس بشع سأدفع ثمنه من لحمي وأعصابي حتى أموت[1].

---

كنت متأكدا أن ١٩٨٤ سنة كبيسة.. مات فيها صديقي الشاعر عبدالرحيم منصور.. ثم احترق بيت بهجت قمر في إسكندرية.. البيت اللي شهد كل ضحكنا ولحظاتنا الحلوة.. وبتنتهي بقضية عزّة.

* * *

وكيل النيابة يسألني عن المدعو عبدالمجيد علي تودري.. أرد ببساطة:

- انتو جبتو تودري دي منين؟ أنا كل اللي أعرفه أن اسمه عبدالمجيد

فيضحك باستهزاء!

---

(١) دوسيه بالغ الضخامة يحوي كل ما كتبته الصحافة عن القضية وعليه تعليقات بخط بليغ ننشر منه هنا ملاحظاته الشخصية ويومياته أثناء سير القضية بترتيبها.

ـ حسبي الله ونعم الوكيل.

لكن أكيد الحق سيظهر.

* * *

يتصل بي المحامي إبراهيم فهمي... يخبرني بسعادة بالغة أن المسحة المهبلية من جثة المجني عليها لا تحوي حيوانات منوية أو مواد معدية مؤكدا أن هذا يعزز موقفنا في القضية... يسيطر عليّ غضب مفاجئ فأزعق فيه:

ـ إيه يا جدع انت القرف اللي بتقوله ع الصبح ده؟ إيه الكلام ده؟

أغلق المكالمة.. تصعب عليّ نفسي.. آخرتها كده.. والراجل غلط في إيه.. هو بيشوف شغله.

لازم أتصل به بكرة أعتذر له.

ضروري!

أصحابي أغلبهم باعوني تخلوا عني ولم يقفوا جنبي أنا لو رجعت بي الحياة سأعيش بنفس الطريقة لكن كنت ح أختار أصحاب تانيين.

حلمت بأبويا.. زي آخر مرة شفته فيها.. وكان زعلان على اللي حصل لي!

قلت له شفت اللي بيجرى يا أبويا.. قال لي أنت عبقري والعباقرة دايما يحصل لهم كده.

لكن أنا ما اخترتش أكون عبقري!

لا بد أن أبحث عن شقة دور أرضي حتى لا يتكرر ما حدث للسيدة المغربية. لو ألقت نفسها من الدور الأرضي ما كانت لتموت.. وبعدها كله هيبقا تمام.

* * *

قرأت اليوم كتاب نابليون على فراش الموت لمصطفى الديواني واستوقفتني هذه العبارة:

«أما آن للنجم أن يأفل، للشعلة الدائمة أن تخبو، أضله الوحي أن يذهب لروسيا حيث الخير العميم والنعيم المقيم فلم يجد إلا البرد والموت والدمار».

وفكرت.. أنا عايش من قلة الموت.

اشتريت الوهم.. ودفعت كتير تمن سنيني الحلوة.

أنام وأصحو وأنام وأتابع القضية وآكل ولا أعرف ما أفعل. أفتح عيني وأجد صورة أمي بجوار السرير وأقول لها وحشتيني! لا أقرأ الجرائد ولا أرد على التليفون. طعم المرارة وطعم الغدر. أحمل معي حزنا لو شاركني فيه أهل بلدي لشعروا بالاكتئاب ونهاية الوجود.

ليل شبه الصبح... وفجر بطعم الحريق!

تفتح عليّ «صباح» الباب فجأة وتقول بصوت مبتهج لم أسمعه منها من شهور:

ـ سيدي بليغ! مش هتصدق مين برة؟!

أعرف أنها موجودة حتى قبل أن أنفض الفرش عني وأقوم من السرير. تدخل الغرفة ببساطة وتجلس وهي مبتسمة وتضع ساقا على ساق.

ـ ناموسيتك كحلي يا بيه!

أنسى الكلام.. أنسى السكوت... أنسى القضية والغدر والزعل والفرح والفضيحة والجريمة وأدرك للمرة الألف أنني غارق في سحر العيون.. العيون التي لا تعطي بقدر ما تمنع.

تمسح الكرسي بإصبعها.

- كويس والله! صباح واخده بالها من البيت. المهم..

تجلس وتضع ساقا على ساق.. تبتسم.

- لسة بتعرف تلحن ولا المشاكل والفضايح نسّتك الشغلانة؟!

- والله بيقولوا إني عبقري... أسمع كده يعني!

- طيب يا عبقري ما تورّينا الهمّة![1]

---

معنى أعجبني:

من بين ألوف اختارني واختارك

القلب اللي كان.. متشوق للحب

من بين ألوف ناداني ونادالك

الشوق والحنان.. يتمنوا لنا القرب[2].

---

كانت عودتي للعمل معها كفيلة أن تنسيني كل شيء، حتى متاعبي الصحية. يكفيني من الدنيا تحيتنا للجمهور معا في غنوة جديدة.

وكان فيها شوية جُمل مش بطالة والله![3]

---

أسلم على صفية ولكن أرفض بإصرار أن توصلني للمطار.. معايا هيثم

---

(١) أوراق منفصلة عن ملف القضية.. مرفقا بها نوتات أغنية «من بين ألوف» وصور للحفلة.

(٢) أول صفحة من نوتة صغيرة. يبدو من السياق ارتباطها بالغنوة المذكورة في الهامش السابق.

(٣) نوتة منفصلة بتاريخ مايو ١٩٨٦.

وتامر أولاد حسام (أولادي) ربنا يتمّ الشفاء ونرجع مصر بسلام وتكون حكاية القضية اتحلّت بسلام!

في الطائرة يسيطر عليّ خاطر مزعج... معقول تكون هي عملت حركة الغنوة دي (من بين ألوف) استغلالا لظروف المحاكمة والدوشة اللي حولها لتضمن نجاحها باستخدام كارت عودتنا معا!!!

معقول تكون فكرت كده

يسيطر علي غضب مباغت... لا بد أن أسألها أول ما أوصل باريس! لازم[1].

---

**وِرد الشفاء**

بسم الله الرحمن الرحيم. كهيعص. وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون

يا ودود يا ودود يا ودود

يا ذا العرش المجيد

ارحم عبدك بليغ ابن عيشة محمد فرج واشفه ونجّه من كل كرب

ببركة الصلاة على سيدنا محمد

كهيعص! (٣٠ مرة) يا ودود يا ودود يا ذا العرش المجيد يا فعال لما يريد (١٠ مرات)[2].

---

وصلت مطار باريس المفروض أن في انتظاري محمد ابن صلاح

---

(١) بتاريخ مايو ١٩٨٦.

(٢) ورقة منفصلة بخطه كان يحتفظ بها في سفره لباريس وفي أغلب رحلاته الأخرى (رحمه الله).

عرام لكن طبعا الاعتماد على ابن صلاح عرام خيبة وأي خيبة. وفكرت...

الصاد أول حرف في صلاح.. وأول حرف في الصبر! لو صبرت يبقا هتُفرج!

أخذت أكرر اسم الصبور أكثر من مرة... حسيت براحة.. حسيت أني باطير.. وقلت الجو الحلو ده علامة حلوة.

اللجوء للناس قلة عقل وخيبة.. اللجوء المفروض يكون للي وجوده فوق الزمان! يا ترى انت احنا دلوقت ولا بكرة ولا امبارح؟ يا ترى الدنيا سامعانا زي ما انا سامعها.

سمعت في ودني نغم حلو وقعدت أدندن بيه.. واشتريت وردة من بياع.. لقيت بنت حلوة واديتها الوردة فضحكت. ضحكت...

قلت إن الإنسان هو معجزة الله المتحركة.. وإن الرحمة هي جوهر وجودنا.. والحب هو نورها.. عرفت أن خطوتي بتاخدني في الطريق المرسوم لما لقيت شاب صغير جاي يسلم علي بحماس في مطار شارل ديجول من غير سابق معرفة وبيقول لي بكل حب:

ـ أستاذ بليغ! أهلا وسهلا!

بصيت له في عينيه.. لقيت دموعي بتنزل غصب عني.. عرفت أنه عاشق مجروح.. وأن جرحه لسة جديد.

قال لي إن اسمه سليمان العطار.. سيبته ياخد الشنطة وقعدت أغني واحنا ماشيين سوا:

«يا ترى يا واحشني.. بتفكر في مين»[1].

---

(١) تعليق الموسيقار الراحل على أول لقاء لي به عند وصوله باريس. رحمه الله كان رجلا مرهفا عظيما.

تكفل الأخ سليمان بتوصيلي مشكورا.. وتكفل بالعناية بالبيت وكل هذه التفاصيل..

أول ما دخلت البيت لقيت كارت منها في صندوق البريد... مكتوب بخطها الكبير وحروفها المميزة.

ولقيت نفسي باجري على التليفون أتصل بصفية.. وباقول لها بحماسة:

«بتحبني يا صفية... بتحبني! أول ما وصلت لقيت كارت منها في صندوق البريد»[١]

---

Ça va?

Warda[٢]

---

٢. الست[٣]

الصديق العزيز والأخ الغالي...

الكاتب العظيم مقاما وقدرا محمود عوض

تحية طيبة كبيرة بقدر محبتي لك... وبقدر الصداقة والحكايات التي تجري بيننا مثل النيل... من فجر التاريخ بلا بداية ولا نهاية.

أكتب لك يا محمود هذا الخطاب مباشرة قبل سفري لباريس.

كنت أريد بالأمس الكلام معك بعد الحفلة... ولكن ازدحام

---

(١) بتاريخ مايو ١٩٨٦.

(٢) كارت بوستال مرسل بتاريخ مايو ١٩٨٦. (من مقتنيات الأسرة).

(٣) خطاب طويل كتبه الموسيقار الراحل لصديقه محمود عوض فور وصوله لباريس ولم يرسله آخر الأمر حيث ظل ينقحه ويعيد كتابته فترات طويلة.

المكان بالحاضرين والمهنئين بعودتي للعمل مع السيدة الأميرة المحبوبة (واو) بعد ذلك الانفصال الفني الطويل حال دون أن نتكلم... وبعدها اضطررت للسفر المفاجئ. عموما... كل تأخيرة وفيها خيرة. لعل الكتابة أفضل لأني أعرف أنك لا تحب الزحام ولا الكلام وسط أغراب لا تعرفهم... وحتى أجد حرية في ما أحتاجه الآن أكثر من أي شيء آخر... أن أفضفض لك... لك وحدك.. بكل ما في صدري وقلبي ووجداني.

وبعدين تعالَ هنا! لم تخبرني حتى الآن برأيك في الغنوة (غنوة من بين ألوف) وكأنك كنت تتهرب. تعليقك الوحيد الذي قلته بالأمس كان تعليقا ساخرا... فيه من الجد ما فيه من الهزار. قلتَ:

«الغنوة كلها صولوهات قانون، أنت بتتحاول تنتقم من القانون والقضاء المصري».

وضحك الحاضرون وأنا ضحكت لكني... أسألك الآن سؤالا واحدا بعد الضحك وبعد الدموع:

شفت اللي حصل يا محمود؟ شفت الحكم عليّ؟ وفي قضية عرّة زي دي؟

عموما أنا بانتظار حكم الاستئناف وعندي أمل أن ينصفني. كما قلت سأضطر للسفر بسبب مشاكل الكبد و كذلك... وأنا اعتدت الصراحة معك كأنك نفسي التي لا أخفي منها أي شيء... أنا لا أريد أن يصدر حكم الاستئناف (إن صدر ضدّي) وأنا في بلدي... وأنت بالتأكيد تفهم.

لاحظت كذلك إشفاقك وقلقك كذلك بالأمس وأنت تسأل بالتفصيل عن العلاج وعن الحاجة لعملية جراحية من عدمه.

أظن أنه على الأقل من الناحية الصحية فلا داعي للقلق وقد سمعت بنفسك ما قاله الأستاذ الدكتور علاء الزيات أن المسألة وحالة الكبد لا تزال تحت السيطرة. كانت وحشتني والله يا أخي هذه الجلسات. فاكر يا محمود آخر مرة قعدنا قعدة زي دي كان من إمتا؟ أسابيع يمكن... أو شهور! سعدت برؤية منصور الشادي وغنيم عبده والراجل الطيب محيي محمود (لا تنس هدية ابنته بالله عليك فأنا لم أجد وقتا للأسف في غمرة الإعداد للسفر) كنت رغم كل المرارة مشتاقا للحكي... ولكني لاحظت قلقك وإشفاقك. حسيت كأنك بتقول لنفسك:

هو البرج اللي كان فاضل في دماغ بليغ لسع ولا إيه؟ ولا خلاص بقا راجل عجوز عمال يخرف بحكايات قديمة!

أظن أنك أكثر إنسان يمكنه أن يفهم ما أشعر به وأنا يتم سلخي في صحافتنا الوطنية بلا رحمة! هل تقرأ ما يكتبون؟ هل شاهدت ما يذاع في الصحف والتلفزيون عنّي؟ أنا قواد؟ أنا معرص يا محمود؟ كانوا يسلخونني بلا رحمة. ما كل هذه الكراهية، ما كل هذا الغلّ؟ يسرقوننا ونحن أحياء ويلفقون لأنفسهم ما لم يكن لهم. حتى ذكرياتنا يسرقونها منا؟ نفس الذين يكذبون الآن كانوا يطلبون منا أنا وأنت أن نتوسط لهم عند الست أم كلثوم ـ عليها ألف رحمة ونور ـ أو عند عبدالحليم. فاكر أغنية موعود يا محمود، فاكر كيف كنا وإلى أين صرنا...

إنني أسألك وأطالبك كتابة كما سألتك بالأمس على رءوس الجميع وكما طلبت منك قبل كذلك... لماذا لا تكتب يا محمود؟ لماذا لا تكتب ما حدث... عني وعن الجميع؟ لماذا لا تكتب الحقيقة عني وعن كمال الطويل وعن الموجي. كانت أسرارنا جميعا عندك... كنت قريبا دائما وشريكا في كل شيء. إنني لا

أطلب منك لكني آمرك... وأستغيث بك وألجأ إليك. لقد فاض نهر الكذب حتى أغرق كل شيء، وأصبح التنفس مستحيلا!

لماذا لا تكتب ولماذا لا نحكي ما حدث؟ نعمل برنامج يا أخي.. في التلفزيون أو الإذاعة.. ونحكي فيه ما عشناه وشاهدناه!

أليس من واجبنا أن نكتب؟ ومن حق الناس أن تعرف الحقيقة

أنا علي الكلام وأنت عليك البلاغ للناس!

وعلى رأي أخونا محمد حمزة... نبتدي منين الحكاية.

* * *

**حواديت وقناديل**

عمري ما حسيت باليأس أو التشاؤم... أنجرح يمكن.. أقع.. لكن أقوم تاني.. زي ما اتعلمت من الست أم كلثوم الله يرحمها! كلي ثقة في الله ورحمته أنني سأحصل على حكم البراءة في الاستئناف. وحين أعود من باريس هذه المرة لا بد أن نسجل معا، أتكلم وأحكي وأنت تكتب. اوعدني أن نفعل ذلك هذه المرة... نحكي الحكايات التي تفسر المشوار.. قناديل في سكة الفرح والعذاب. أريد أن أبدأ الشريط من أوله... من أول مرة سألني فيها أبويا الله يرحمه وكان وسط أصحابه:

ـ عاوز تطلع إيه يا بليغ؟

لحظتها.. ومن غير تفكير فهمت أنه عاوز يسمع كلمة «مزيكاتي» باللدغة اللي كانت عندي في الزاي وأنا طفل... عرفت أنه كان ينتظر الرد بهذه الطريقة فقلته له ولأصحابه وضحكوا! وكل مرة يكون أصحابه عنده يتكرر نفس الموقف ونفس الرد ونفس الضحك. أذكر لما حكيت لك هذه الحكاية زمان أنك قلت لي (متقمصا شخصية الطبيب

النفسي بسلامتك) إن هذه الحكاية هي الملخص المفيد لمشواري بانتصاراته وبكوارثه... سألتك كيف؟ أخذت تبحث عن كلمة مهذبة فسهّلتُ عليك المهمة وقلتُ بدلا منك وأنا أضحك:

ـ ضعيف. تريد أن تقول إني رجل ضعيف لا يقدر أن يقول لا!

أعرف أن هذا رأيك. نفس الرأي تقوله صفية... ومن قبلها أمي ومعها الست أم كلثوم (ولعله أيضا رأي السيدة المحبوبة واو. من يعلم) إنني لا أستطيع أن أقول «لا» ولا أستطيع أن أغلق بابي في وجه المحبين ولا في وجه المنتفعين والمتطفلين... إنني لا أستطيع أن أبقى وحدي نصف ساعة على بعضها... إنني بلا صبر ولا جَلَد.

لم يعد فيّ حيل أو طاقة لمجادلة ولا خناق لا معك ولا مع صفية. حتى بفرض أن معكم حق! كنت أقول لأبي ما يسعده ويضحكه هو وأصحابه وحتى وإن لم أكن مقتنعا تماما.. فماذا حدث؟ مات (رحمه الله) بعدها بسنوات قليلة. مين عارف! لعل الله جعلني سببا للحظة سعادة في حياته القصيرة ولعله ـ سبحانه وتعالى ـ جعلني سببا في رزق هؤلاء الذين يظنونني ساذجا. أنا محظوظ يا محمود حتى وإن لم تدرك ذلك. محظوظ بموهبتي وبنعم ربنا عليّ وبكل الناس الحلوة جنبي!

حكاية تانية:

يعني مثلا.. هل تذكر ذلك الرجل الطيب أمام معهد فؤاد.. الحاج سمير بركة. حكيت لك حكايته عندما ذهبت وكان عندي ١٠ سنين ووقفت أمام الباب وقلت له:

ـ عاوز أدخل!

ـ تدخل فين يا شاطر؟

ـ أدخل المعهد. أنا اسمي بليغ وباحبّ المزيكا!

أتذكرُ ما حدث كأنه بالأمس... ضحكة الرجل الطيبة وجلبابه الأسواني النظيف ووجهه الأسمر الجميل الحنون. خدني من إيدي لبقالة أول الشارع وجاب لي ملبّس وبعدين ركبني حنطور وطلب منه أن يوصلني للبيت وحاسبه! أنا كنت محظوظ بحُب الناس من أول لحظة يا محمود. فضلت بعدها سنين أزوره وافتكر معاه الأيام الحلوة... عاوزني أنسى كل ده وأفتكر أن ابنه حاول يستغل اسمي في قضية الشيكات اللي انت عارفها كويس... لكن الحمدلله ربنا ستر!

عاوزني أنسى كل الحاجات الحلوة والحب ده وأفتكر غلطة ولد في لحظة طمع. كيف يمكن أن أنسى كل اللحظات الجميلة وأخاف من الناس وأبعد عنهم!

* * *

أريد أن أحكي وأن نحكي يا محمود عن الموسيقار العظيم والباشا ابن الباشوات حفني ناصف. سمعني وأنا أعزف على البيانو فأخذني من إيدي وقال لي أعمل إيه وأروح فين. دلّني على مدام جوليو (دي كمان حكايتها حكاية) الله يسامحه قعد يسمعني موسيقى كلاسيك بالعافية، زي أبويا برضو كان يقعدني يسمعني كلاسيك بالعافية! طب يا اخوانّا.. يا عالم.. يأهل الله... أنا راجل ربنا خلقني أحبّ الرق والمزمار والصاجات والربع تون والصبا وراحة الأرواح وعبدالغني السيد وكارم محمود! موتسارت ده على عيني وعلى راسي لكن أنا مالي وماله بس؟!

سامعك وانت بتضحك دلوقت... أرجع واقولك رغم كل

المرارة الواحد كان محظوظ بناس عاوزة تعلمه وتاخد بإيده. أنت تتذكر طبعا الناظر سامي عاشور الذي طردني أنا وشلة الفاقدين من الثانوية شر طردة! كانت مناحة في بيتنا يومها وأمي قعدت تقول لي الله يسامحك هتفضحنا! بعدها بسنين رُحت عرّفتُه أني بقيت ملحن للسيدة العظيمة أم كلثوم. ووجهت له دعوة وحضر حفلة «أنا وانت ظلمنا الحب» واتصورنا سوا (أظن الصورة دي لسة عند وردة في شقة المهندسين).

أتذكر أيضا الموسيقار الراحل محمد حسن الشجاعي عليه ألف رحمة ونور. يعني لو لاحظت فالشجاعي أفضل مثال كيف يمكن لسوء الظن بالناس أو سلامة النية أن تغير مشاعرنا تجاههم. أنت تذكر كيف وقف بعنف ضد أن ألحن. كان صارما جدا.. وأكثر من مرة قال لي:

ـ لو لحنت أنا هاحبسك!

جيت بعدها ولحنت «ليه فاتني» وانت فاكر الحكاية طبعا. الله يمسيها بالخير فايدة كامل (طبعا أنا عارف رأيك وعلاقتك بفايدة دلوقت)... لكن لازم ننسى كل الكلام ده لأن دي عشرة عمر يعني! إن شاء الله لما أرجع من باريس عاوزين نبقا نكلمها ونعدي عليها... ويا سيدي ساعتها بلاش كلام في السياسة. (قُطعت سيرة السياسة والسادات والنبوي إسماعيل وكل الناس اللي مزعلاك! كلنا مصريون وكلنا بنحب بلدنا لكن يمكن... كل واحد فينا بيحبّها بطريقة مختلفة) المهم يومها الشجاعي قال لي بغيظ:

ـ برضه عملت اللي في دماغك!

الواحد كبر وفهم دلوقت لماذا كان كل هذا الإصرار من الرجل أن أتعلم.. أن نتعلم جميعا.. الرجل كان مدركا لحاجتنا

لموسيقيين دارسين وفاهمين وليس مجرد آلاتية وملحنين بالسماع كما كان معاصروه! وحين قلت ذلك لعبدالحليم أيامها قال لي ساخرا:

ـ أنت أصلك على نياتك يا بلبل أفندي وفاكر الناس كلها طيبة زيك. الراجل متوسط ومحدود الموهبة كان نفسه يبقا ملحن وانتهى مديرا للإذاعة... كل الحكاية إنه غيران منك عشان نجاحك!

الله يرحمه عبدالحليم ويرحم الجميع.. كان حذرا دائما ومتشككا في كل الناس... ولا يمنح ثقته لأحد.

* * *

كل ده ما فاضلش منّه غير شوية ذكريات/

النهاردة بنحكى عنه كأنه قصة حب فات!

خلاص بقينا نتكلم بصيغة الماضي وصار الجميع الآن بين يدي كريم. ولكنك تعرف أني أحيانا كنت أخاف من عبدالحليم! رحلة عمر وصداقة طويلة.. رحلتنا سوا.. بين الشوك وبين الورد. عبدالحليم موهوب وطموح ودءوب ومثل أستاذه عبدالوهاب منضبط ومنظم.. لكنه ليس طيبا.

تذكر طبعا يا محمود عندما كتبنا قائمة بالفنانين الطيبين والفنانين ـ بلاش نقول خبثاء ولكن بتعبير الست أم كلثوم الله يرحمها «مش سهل».

الطيبون كثيرون: فريد الله يرحمه... قنديل وكارم محمود وسعاد محمد وفايزة الله يرحمها. محرم فؤاد ده غلبان خالص. أما رشدي فده جاي من دسوق بشوكه! سعاد طيبة. شادية دي حبيبتي. شوشو عفريتة وواعية وأجمل ما فيها الصدق.

أما عبدالحليم وعبدالوهاب وكمال الطويل والموجي ونجاة الصغيرة... دول أصحاب الذهن اليقظ والحساب بالورقة والقلم حتى للضحكة أو الابتسامة!

وأنا أعرف رأيك ونصائحك القديمة يا محمود ولا أريد أن أتعب نفسي بجدالك، إنما أريد أن أحكي وأفضفض وأتذكر!

أستعيد الذكريات التي لم أعد أمتلك غيرها... أستعيد تحذيرات حليم وأتذكر اقتناعتي بأن الشجاعي موسيقار كبير. يمكن ليس مشهورا ولكنه دارس وفاهم وكان رئيسا للإذاعة المصرية في عزها، وأنا كنت بالنسبة له ابن يشجعه ويعلمه. أنا أذكر جيدا حين اتصل بي بعد لحن تخونوه وقال لي:

ـ عفارم يا ولد... جملة بيانو ساحرة. تسلم دماغك.

ولما سمعت مقطوعته الموسيقية «إخناتون» أعجبت بها... كانت شيء مش بطّال أبدا.

**حلم مؤجل**

واحد من أحلامي المؤجلة هو كتابة عمل كبير أوركسترالي عن إخناتون... النبي المنسي. أخدت معايا في شنطة السفر شوية كتب منها رواية الأستاذ نجيب محفوظ الجديدة عن إخناتون (هل أخبرتك أنه أرسل لي رسالة قصيرة شديدة الجمال بعد مشاهدته لفيلم شوارع من نار) هل قرأت الرواية؟ أكيد شيء جميل جدا! أمنية عمري أن أكتب عملا عن هذا النبي المصري يليق بمصر التي قدمت للعالم شمس التوحيد ونور الحضارة. حلمي أن يكون عملا ضخما بتوزيع أوركسترالي حقيقي قائم على الهارموني والكونتربونط الغربي ونستخدم فيه المجاميع والكورال بالأسلوب الشعبي المصري المعروف... الأسلوب

الذي طالما هوجمت بسببه.. وبمجرد نجاحه وانتشاره بين آذان الناس يسكت المهاجمون ولا نسمع لهم صوتا.

غنوة «عدوية» مثلا كانت مجرد أغنية ألفتها للمجاميع... الفكرة أصلها رزق وأنا كنت أبحث عن صيغة حديثة للشعبيات ووجدتها في عدوية. تذكر كيف كسرت الدنيا رغم أنها كانت في البداية بدون مطرب. أغنية واحدة تفتح بيوت كل هؤلاء من أعضاء الكورال. لو كان النجاح مكتوبا لها فستنجح رغم أنف الجميع! كان من المفترض أن آخذ نسبة من ثمن الأسطوانات وكان زماني مليونير لكني قلت لهم

ـ أعطوني خمسة آلاف جنيه الآن وحلال عليكم.

قال لي رشدي بعدها: الله يخرب بيتك كان زمانك مليونير! لكن بالعقل كده يعني يا محمود يا اخويا... أنا أقف أبيع أسطوانات برضو. أنا اللي طول عمري باصدق كلام الصبر في المواويل. لو كان الواحد يبحث عن الثروة كان الحال غير الحال. وحتى الذين كونوا ثروات ماذا فعلوا بها... أنت رأيت بعينك ماذا حدث لأبويا وحبيبي وصاحبي فوزي (الله يرحمه). فجأة طلع في دماغهم وقرروا يؤمموا شركته التي بناها بعرقه وكدّه. من أجل ذلك رفضت دائما وأبدا أن أغني لاسم شخص أو حاكم أيا كان تهليل الناس لاسمه أو حبهم له، وأنت بنفسك شهدت خناقتي مع عبدالحليم واتصلت بك لأشهدك عليه:

ـ صاحبك دماغه مزرجن... عاوزني أقدم أغنية عن أنور! وأنا أقول له يا حليم... أمرك... نغني لمصر... للجيش والناس والشوارع... لكن نغني لحاكم؟ أبدا!

وفي الآخر حلّها محمد حمزة بحل وسط وكانت غنوة عاش

اللي قال! تعرف أنها أبعد أغنية في أغانيّ الوطنية عن قلبي.. رغم نجاحها!

فوزي

أتذكر دوما كلمة فوزي.. لازم نحكي حكاية هذا الرجل الطيب... النقي... والموسيقار الجميل في آخر لقاء لنا، الله يرحمه كان المرض قد اشتدّ عليه. كان وزنه نقص جدا وبقا ضعيف بدرجة مرعبة وقال لي:

- اوع تفتكر أني زعلان على فلوسي ولا شركتي... أنا زعلان أن شوية صبيان عساكر يسرقونا واحنا مش عارفين نعمل حاجة. البلد دي كبيرة يا بليغ وعيب نتفرج عليها وهي بتتسرق كده! اتفرج على مصر دي لو عاشت ديمقراطية حقيقية وحكمها بقا حكم حُر في إيد ولادها! شوف كام أم كلثوم هتطلع وكام عالم وكام عبقري في كل مجال!

ومرت الايام وأثبتت أن كلامه كان صحّ.

حكاية تانية معبرة جدا

قالتها مرة الست أم كلثوم عليها ألف رحمة ونور واحنا في بروفة حب إيه... بهزار.. وانت عارف الست لم يكن لها كلمة بلا معنى... ولا حتى الهزار! حين رأت العازف القدير نجيب رزق الله ساهما مشغول البال فسألته عن السبب.

- الواد ابني جاب مجموع كبير يا ستّ ومش عارف أدخله الطب يطلع دكتور ولا هندسة يطلع مهندس!

فقالت:

- دخّله حربية يطلع كل حاجة!

ضحكنا طبعا للقفشة التي لا يجرؤ عليها غير الست... ولم يمُر وقت طويل حتى اضطر الرجل الطيب للسفر للكويت لينفق على أبنائه وعلى نفسه ومات في السبعينيات في الغربة!

شوف حكمة ربنا بعدها... عشان تعرف بس أن له في كل شيء حكمة... حين حدث ما حدث في ١٩٦٧ لم يجدوا إلا غنوة فوزي «بلدي أحببتك يا بلدي» ليذيعوها، لأنها الغنوة الوحيدة التي لا تضم أسماء القادة المهزومين. كنت باسمعها في الراديو أبتسم مش عارف من المرارة.ولا من سخرية القدر.

باب الموسيقى والحياة

فوزي ده حاجة كبيرة قوي... قلب كبير وفنان عظيم وصادق... بدأ يهتم بي ويسأل عني بعد ما قدمته من أغاني مع فايدة كامل ومع شركة كايروفون! يدعوني كامل الشناوي للسهرة معه ويخبرني أن حبيبك ينتظرك!

- حبيبي مين يا عمنا؟

يقول لي ستعرف حين تأتي.

حين أجد فوزي هناك أشعر بسعادة تنقذني قليلا مما كنت أعانيه أيامها من كآبة. كنت ما أزال جريحا بسبب سفر ماريا أيامها وكل هذه الحكاية التي تعرفها وحضرت عذابها معي... كنا صغيرين يا محمود وهُبل ولسه مش واخدين على جراح الحب. طبعا أنت بتضحك دلوقت من كلامي... قال يعني كبرت وعقلت! تقدر تقول على رأي صاحبك المتنبي «تكسرت النصال على النصال». أقف مع فوزي ونتكلم ومن أول لحظة نبقا أصحاب. الحب والصداقة بلا تفسير... نعمة من ربنا.. وساعات لعنة! قال لي:

ـ طالما بقينا أصحاب يبقا نشرب كونياك سوا! أنا ما اشربش الكونياك غير مع الأصدقاء المقربين!

ـ ده شيء يشرفني طبعا!

نبدأ نشرب ويبدأ يحكي... يحكي عن القرية اللي الكونياك متسمى على اسمها في جنوب فرنسا! عن حبه وعن خلافاته مع زوجته.. عن الغيرة وعن أبوه وأخواته ولما ييجي عليّ الدور أحكي له عن ماريا وأقعد أعيط من غير ما أقصد.. بيقول لي بعطف أبوي:

ـ يا خرابي! دانت لسه عصفور خالص! لا انت لازم تنشف شوية!

فيصيح فيه كامل الشناوي والذي كانت أذنه ـ كالعادة ـ معنا:

ـ لا تغترّ برقته ولا بدموع التماسيح هذه... إنما هي مجرد قناع للدونجوان والوحش محطم قلوب العذارى المختبئ بداخله!

نضحك ونغني معا يا نخلتين في العلالي وأغني له من ألحانه «ياللي شغلتِ القلب تعالي» التي غناها للملاك المسمى ليلى مراد في فيلم «ورد الغرام». نمثل المشهد الأخير معا وكامل الشناوي يضحك. وحين أقول جملة سراج منير الأخيرة في الفيلم.

«أحوش إيه؟ هو الحب ينحاش؟».

ثم أنفجر في البكاء ثانية!

فيضرب الاثنان كفا بكف.

لا احنا مش هنخلص الليلة دي!

ويأخذان في الغناء «مال قلبك ماله» بلسان ثمل وقلب رحيم. سيطوينا النسيان وتبقى غنوة جميلة مثل «يا عيني على قلبي»

وفيلم تحفة مثل «الآنسة ماما» دليلا على جمال الإنسان وعلى عظمة الفن ورقته.

كانت أيام جميلة وكانت ناس حلوة... مش باقولك أنا رجل محظوظ...

يفتح لي فوزي شركته وبيته وقلبه.. يقول لي

ـ اعتبر الشركة شركتك! أي لحن تعمله تيجي تسجله فورا من غير ما ترجع لي.

شركته التي فتحها لي وأنا ما أزال ملحنا صغيرا لم يسمع به أحد حتى بدأ اسمي يلمع ويأخذ مكانه بين الزملاء والموسيقيين. لحنت للجميع واحتفى بي الجميع... لكن القلب الخالي كان يبحث عن الحب المفقود.. كأني كنت أحاول ملء فراغ لا يمتلئ.. روحي كانت مثل جملة البيانو في أول تخونوه.. هذه الوحشة التي لا يبددها شيء. راحت غنوة تخونوه لـ عبدالحليم بدلا من ليلى مراد ولا أريد أن أتحدث عن ذلك من جديد.

* * *

مرة يتصل بي فوزي:

ـ دبرني يا وزير.

ـ خير يا جناب السلطان.

ـ الست أم كلثوم عاوزاني ألحن لها يا سيدي.

ـ عظيم جدا... ده خبر بمليون جنيه. ألف مبروك...

ـ صبرك بس...

أفهم منه أنه غير متحمس تماما للعمل معها.. لا يحب التخت الشرقي ويعرف أنه لن يعمل معها على حريته. الأهم أنه لا يحب

فكرة الأغاني الطويلة ولا يستسيغها.. يرى أن المستقبل للغنوة القصيرة! يخبرني أنه حدثها عني.

ـ يا خبر.. وعرفتني؟!

ـ عرفتك طبعا وطارت من الفرح وقالت يا ريت حضرة جنابه يرضى يلحن لي! عرفتك إيه بس؟ هي بالعافية افتكرت أغنية تخونوه. عموما احنا اتفقنا نتقابل في بيت الدكتور زكي سويدان الخميس الجاي!

**اللقاء الأول**

كنت في السادسة والعشرين وكانت هذه القناعة قد استقرت في بالي من بعد التجربة القاسية لفقدان ماريا... أن الحب ما هو إلا مرض.. البعض تدركهم الرحمة فيشفون منه... أما البعض الآخر فيتمكن منه هذا المرض ويتحول لخلل مزمن مثل التهاب مستقر في العظم أو الأسنان أو المعدة.. تمضي الحياة وتمر الأيام ولا يبقى منه غير بحة الألم التي تندفع من وقت لآخر ليذكرك بأنه موجود وأنك لم تنسَ. الحياة لا تتوقف.. ولا يمكن أن تتوقف. كنت أغني وألحن وأملأ الدنيا بهجة وطربا.. ولكن من وقت لآخر كانت تلك الذكرى القديمة تطل فأشعر بنكد ويتعكر مزاجي.. حسب الحظ.. يوم أو اثنان.. ساعتها أهرب للإسكندرية أو المشي الطويل حتى أستعيد قدرتي على مواصلة الحياة! اتفقت وقتها مع عبدالوهاب محمد (وكان لا يزال مهندسا في شركة شل مكتبه في مقابل مكتب العزبي الله يمسيه بالخير) أن نسمي تلك الحالات الطارئة «نوبات العشق المزمن».

المشكلة أن واحدة من هذه النوبات جاءتني يوم الخميس... اليوم الذي يفترض فيه أن أقابل الست أم كلثوم! تخيل!

فكرت أسافر.. أهرب.. كما أفعل كل مرة لكن نزلت أتمشى.. ألف فكرة وألف خاطر.. ألف نغمة ولكن لا مزاج لتدوينها... لا رغبة في الذهاب ولا طاقة على الهرب.. حتى الهرب بحاجة لقدرة.. ثم أجدني بلا أي ترتيب أمام بيت فوزي. أدق الباب فأجده يستعد للانطلاق ويلمح وجهي فيفهم كل شيء لكنه لا يتكلم.. يضعني في السيارة من سكات وننطلق لبيت زكي سويدان وندخل لنجد الجميع وسطهم أنور منسي والقصبجي والذي يهتف بي أول ما يراني:

ـ ايه يا واد اللي جايبك هنا وسط الكبار! مش قلنا قبلَه ما تزوغش من المدرسة!

ويضحك ويفسح لي مكانا جانبه.

ـ تعال هنا جنبي يا واد الله يرحمه أبوك كان حبيبي!

يهون علي قليلا وجود اللمة الحلوة وصوت الضحكات..

ثم تأتي الست بحضورها الطاغي.. شمس تملأ المكان بهاء ونورا... تصافحني أول دخولها ويقدمني لها فوزي بحماس:

ـ بليغ اللي قلت لك عليه يا ستّ! دماغه هتعجبك جدا.

ـ أهلا وسهلا...

أغمغم بصوت خفيض:

ـ أهلا بك يا ست!

ـ يا سلام! طب ومكشر ليه بس! مين اللي مزعلك عشان نضربهولك.

من أول لحظة... أقسم لك بالله يا محمود... فهمتني هذه

السيدة العظيمة من أول لحظة وبسطت علي جناح الرحمة والعناية.. أخذتني في حضنها وعرفت ما أنا بحاجة إليه! لم يكن في القلب متسع لا لغناء ولا لطرب لكني التزمت بأدب المجلس في حضرة اللقاء الأول بهذه السيدة التي لا تتكرر وهي تدرك بذكائها ما أشعر به... وتقول برقة حين يجيء وقت الغناء المنتظر

ـ دانت سرحان خالص؟

ـ لا العفو يا ست!

ـ اللي واكل عقلك يا سيدي...

وتلوح ابتسامة مُرة.. فتضيف بذكائها المعهود:

ـ طب ما تسمعنا كدة أما نشوف الملهمة اللي شاغلة بالك دي فالصو ولا بجد وتستاهل!

وأهز رأسي في تأدب. أطلب من أنور منسي ضبط مقام البياتي وأغني من صميم وجداني.. من صميم النوبة التي لا أعرف متى تأتي ولا متى تروح:

«حب إيه؟ حب إيه اللي انت جاي تقول عليه».

بدون أي تخطيط مسبق.. كانت تلك الغنوة مشروعا مؤجلا بيني وبين عبدالوهاب محمد، وكان المفترض أن تغنيها ثريا حلمي... كان المفترض أنه مونولوج كوميك وكانت هتمشي بعدين على إيقاع الرومبا كما كنت أتصور ولا أعرف ما حدث وأنا أغنيها أمام الست... هل هو وجودها؟ هل هي الحالة النفسية التي كنت أعاني منها لحظتها؟ لا أعرف.. هناك شيء ساحر وحزين في الموسيقى العربية وفي الربع التون أن تغيير

الإيقاع دون تغيير الميلودي بشكل كبير يؤدي لتغيير الحالة المزاجية... العلاقة الوثيقة بين الطرب وبين المونولوجات.. مدرسة التلاوة المصرية التي تتجلى في الفرح كما تتجلى في الجرح! بعد أن انتهيت من غناء المذهب نظرت الست لفوزي نظرة لم أفهمها وقتها وفوجئت بها تنزل على الأرض وتجلس إلى جواري وتشاركني الغناء!

وبعد أن انتهينا جلسنا على انفراد... حكيت لها باختصار غرامي بالموسيقا وما أتصوره من مشاريع أو أفكار للمستقبل.. لم يبد أنها مهتمة تماما بما أقول وسألتني من جديد أنا زعلان ليه...

شعرت بالحرج وحكيت باختصار عن الحب وعن «نوبات العشق المزمن» كما اتفقنا أن نسميها.. ضحكت بحنان وقالت:

ـ لا دانت تجيلي بقا تزورني عشان تاخد العلاج المزبوط.

ـ بجد يا ست!

ـ لا باهزر معاك يا خويا. تعالى لي بكرة عشان نتكلم برواقة ونتفاهم.

* * *

في حضرة الست (نقطة ومن أول السطر)

أذهب لها كما اتفقنا في اليوم التالي... يبدأ بها عمري.. يبدأ بهذا اليوم بليغ الذي يعرفه الناس.. وبليغ الذي تشكلت شخصيته ومشاعره في حضرة السيدة العظيمة... أذهب وليس في بالي شيء محدد.. رنيت الجرس وفتحت لي سعدية. أنتظرها مرتبكا وحين تجيء وتسألني عن العود أخبرها أني تركته في السيارة فتقول بنفاد صبر.

ـ أمّال جاي تعمل ايه بس. روح هاته يا مدهول؟

أجري وأحضره فورا.. وحين أعود تبدأ تكلمني عن ابن أخيها خالد.. تقول إن لديه استعدادا وإنه لو غنى يمكن له أن ينافس هذا الولد الفرحان بشبابه (تقصد عبدالحليم). تذكَّر ذلك جيدا يا محمود.. أنه حتى الفنانين الكبار الذين نعبدهم عبادة يمكن أن يفكروا بطريقة بسيطة تماما وساذجة... يمكن غير واقعية وغير عملية... ويمكن ده جزء من شخصية الفنان! تصورت لوهلة أنها تمزح ثم اكتشفت أنها تتكلم جد. لاحظت تغير وجهي بذكائها النادر فقالت:

ـ طبعا الكلام مش على هواك. ما هو صاحبك ولازم تحامي له؟

ـ مش القصد يا ست.. لكن الفن ده لا فيه وسايط ولا فيه سعي. هنقنع الناس تحب واحد إزاي بالعافية. زي الغرام كده.. ينفع أحب واحدة بالأمر.. حتى لو كانت حلوة؟!

تهز رأسها في عدم رضا لكنها تهمهم وقد أدركت أن كلامي صحيح:

ـ طيب ما علينا من الكلام ده دلوقت؟ سمعني يلا اللحن اللي قلته في بيت زكي سويدان؟

ـ أي لحن؟ المونولوج بتاع ثريا حلمي؟

تشخط فجأة وقد استعادت حضورها وانتباهها للعمل:

ـ مونولوج إيه وثريا حلمي إيه يا جدع يا مخبول انت! ما تتكلم عدل أمال. سمعني قوام اللحن يلا بلا مرقعة فارغة

تسمع المذهب بانتباه ولا تعلق. تطلب مني أن أتصل بعبدالوهاب محمد ونتفق... أولد من جديد.. أولد على يد فنانة كبيرة وأم تحمست لشاب في بداية مشواره وقالت:

ـ الواد ده بيفهم!

أنت شهدت يا محمود كم حوربنا وكم هوجمنا وقتها ولولا دعم هذه السيدة العظيمة ما كان لنا أبدا وجود. مع كل هجوم أروح وأقعد أعيط لها فتضحك وتقول لي:

ـ واد يا بليغ اللي معاه ربنا إيه..؟

ـ إيه يا ست؟

ـ يمشي ع المياه يا جدع انت! ربنا معانا... اتطمن.

ـ ونعم بالله يا ست.

ـ وبعدين الست أم كلثوم بجلالة قدرها واقفة في ضهرك! عاوز إيه تاني!

أثناء الشغل على أغنية «بعيد عنك» وأنا باسمّعها أول نغمة اتكتبت فيها.. نغمة:

«وفين انت/ يا نور عيني/ يا روح قلبي/ عندي كلام وكلام وكلام وحاجات/ بيريحني بكايا ساعات».

تمتلئ عينياها بالدموع! كانت رحمها الله تبكي دائما بغير صوت. تغمض عينيها في هدوء وينهمر منها الدمع بلا كلام. وضعت يدها على رأسي.

ـ ربنا يحفظك يابني. ربنا يحفظك!

لكن لم يمنعها هذا الحب أبدا أن تشد أذني حين تريد! أرادت أن تغني هذه الغنوة في عيد الثورة أمام الرئيس عبدالناصر ولم نكن قد انتهينا من البروفات بعد! لم أكن حتى قد انتهيت من كتابة النوتات بشكل كامل. فقالت لسعدية خادمتها:

ـ تاخدي الأفندي ده من إيده يروح يجيب النوتات من بيتهم ويجي هنا. ما تسيبيش إيدك من إيده أبدا مهما يعمل.. بعدين يزوغ ونصحا نلاقيه في لبنان بيتصرمح مع أصحابه!

سعدية ما كدبتش خبر.. فضلت ماسكاني من إيدي زي العيل الصغير حتى واحنا طالعين السلم.. طيب يا بنت الحلال أنا طالع السلم حاهرب أروح فين.. أبدا.. مافيش تفاهم.

ـ الست قالت لي ما اسيبش إيدك لغاية ما نرجع سوا.

ورحنا وجبنا النوتات وغنتها فعلا يومها.. لكن لم تخرج بالشكل اللائق... احتجنا بروفات كتير حتى وصلنا للصيغة المضبوطة.

وفي فات المعاد.. تلك الجملة السريعة التي كنت أتمنى أن تعزفها الربابة... وحين اقترحت عليها هذا الاقتراح قالت بهدوء:

ـ وايه رأيك نجيب صاجات؟

ـ صاجات؟

ـ أيوة.. ومزمار بلدي ونجيب رقاصة.. واحدة من اللي انت داير معاهم يا وسخ!

أدرك فورا أنها تسخر رغم جمود ملامحها وتعاجلني هي بسرعة:

ـ يا بني ما هو الجنان أصل له حدود.. ربابة إيه اللي حاجيبها معايا ع المسرح اعمل معروف!

لا تزال ترن في أذني كلمتها المتكررة وكأني أسمعها الآن وأنا أكتب لك الآن:

ـ يا بني بلاش نوتات عالية بتهد حيلي الله يهد حيلك!

* * *

الله يرحمك يا ستّ.

وأنا باسمعها مقدمة «الحب كله» لقيتها بتبتسم وتقول:

- سمعني كده الإيقاع اللي في الأول.

لا أفهم بالضبط ما تريد.. أقلب العود وأنقر لها الإيقاع فتسأل

- تمام.. اسمه ايه بقا الإيقاع ده يا فالح؟

- إيقاع الظرافات يا ست.. ماله؟

- يا روحي عليك ... شاطر خالص!

لا أفهم تماما هل تسخر أم تتكلم بجد.. هل هناك مشكلة ما لا أفهمها؟ فأقول ببراءة:

- هو إيقاع نادر! استخدمه سيد درويش زمان في موشح «طف يا دري بالقناني» لكن كان من حجاز الكرد.. أنا هنا مستخدمه مع الراست!

- الله الله.. لا دانت تيجي تقعد على حِجري بقا...

تجلسني على حجرها فعلا وتقرأ آية الكرسي وهي تمسح على رأسي.. أرتبك أنا من الخجل وأضحك! كانت ستّ فلاحة بسيطة ونقية وأم لكل من تحبهم.. أنت حضرت ذلك بنفسك يا محمود.. وسمعتها وهي تكرر أكثر من مرة:

- أنت ربنا فتح عليك يا واد.. والله لو ركزت وبطلت علوقية لتبقى أجدع من عبدالوهاب ومن عمك السنباطي كمان!

ثم تتدارك نفسها بسرعة:

- اوع تقول لرياض الكلام ده.. خلقه ضيق وممكن ياخد على خاطره واحنا مش ناقصين!

تابعَت بنفسها كل لحن من بدايته.. من وهو فكرة ويمكن قبل

ما يبقا خاطر مكتمل.. كانت تتابع العمل يوميا على إيدها.. أيام ما كنت باشتغل على «ألف ليلة وليلة» رحت انفردت بنفسي في إسكندرية لأن النغمة كانت معصلجة معايا... يومين ولقيتها فوق دماغي:

ـ أنت يا واد انت هربان فين!

ـ مش هربان يا ست والله باشتغل آهو.

ـ أنا أصلي لو سبتك لنفسك مش حنخلص في سنتنا.. سمعني يلا عملت إيه؟

ولما سمعت واتطمنت قالت لي:

ـ بدل أمور العربدة دي تتجوز بقا وتتلم وواحدة تاخد بالها منك.. نشوف لك حتة عيل وتتوزِن كده!

ظلت تطالبني بمسألة الزواج هذه بدون توقف.. لكني كنت أبحث عن الحب.. حب مثل الذي جربته وكنت أحسب أني لن أذوقه ثانية حتى ظهرت السيدة المحبوبة!

مرة أخذت ماما عيشة على خاطرها بسبب نسياني حضور ليلة النصف من شعبان معها كما أفعل كل سنة.. وطلبت من الست أن تتوسط لي لتصالحني عليها... اتصلت بها.

ـ نعمل له إيه بقا يا عيشة هانم.. هو عيل مُتعب أصله!

ثم أشارت لي بيدها وهي تواصل الكلام في التليفون.

ـ واقف قدامي آهو عمال يترقَّص! احنا نجوزه بقا.. نجوزه ونخلص منه بدل ما هو مغلبنا كده!

وترن في أذني الآن صوت ضحكتها العالية وهي تقول:

ـ أشوف له أنا عروسة بقا ولا تشوفي له أنت يا عيشة هانم؟!

لم تكن سعيدة بقصة حبي مع السيدة المحبوبة (و) وقالت بصريح العبارة عندما انتهى كل شيء وسافرت للجزائر:

ـ أحسن! أنت أصلك مدهول وعلى نياتك! شوف لك واحدة غلبانة بنت حلال تصونك!

وشجعت زواجي من أمنية طحيمر بلا حدود حتى إنها كانت تقريبا تحدثني في هذا الموضوع يوميا بلا ملل حتى تزوجتها آخر الأمر، فزارتنا في بيتنا وباركت لنا ومنحت أمنية «ما شاء الله» ذهبية وقالت لها ضاحكة:

ـ تجيبي حتة عيل بقا تربطيه بيه عشان ما يزوغش!

ثم تلقت خبر طلاقنا بحزن حقيقي وقالت في أسى:

ـ يا بني هو انت حد مسلطك على نفسك وعلى بنات الناس؟!

وحين شكوت لها من الحب الذي أجد مهربا من كل شيء ولا أجد مهربا منه قالت:

ـ خلاص يبقا ما تؤذيش حد تاني بقا!

اقترحت أن أتنازل لأمنية عن شقة الزمالك تعويضا وطلبا للمغفرة.

بعد رجوع شقيقها خالد من العمرة... أظن وقتها كنا شغالين على غنوة «أنا وانت ظلمنا الحب» استدعتني... وجدتها تعطيني زجاجة وتقول:

ـ ماء زمزم لما شرب له. اشرب وادع ربنا يخلصك من الهوس اللي انت فيه!

ضحكت ثم اكتشفت أنها تتكلم بجد فتناولت الزجاجة وشربت منها أمامها.. لكن ما في القلب في القلب يا محمود.. بعدها وفي حفلة تونس ثارت ثورة عارمة حين عرفت أن اقتراحي

بغناء «بعيد عنك» كان باعتبارها رسالة خفية للمحبوبة البعيدة...

- يقطعك.. أنت لسة بتتصل بها وتكلمها؟!

ثم بغضب:

- أم كلثوم بجلالة قدرها.. تعملها مرسال لواحدة انت بتحبها وهي مش معبراك.. تصدق انك عيل وسخ!

وبعتاب حقيقي:

- هي عاملالك سحر؟

فوجئت بأن غضبها وزعلها أكبر مما كنت أقدر... بعد عودتنا بثلاثة أو أربعة أسابيع أذهب لها لأصالحها.

- أنا مش زعلانة منك... أنا زعلانة عليك إنك مش واخد بالك من نفسك.

وتشدني من أذني وهي تقول بحنان:

- حلو يا واد شغلك الآخراني.. الحق يتقال.. وحلوة جملة «لو مُت يا أمي ما تبكيش».

وحين تغنيها هي بصوتها أندم أني لم أعطها لها! أسألها ثانية عما بها فتضرب كفا بكف:

- يا بني انت مش شايف البلد واللي حصل فيها.. مش صعبان عليك اللي حصل لنا؟!

كانت تعني طبعا زلزال ١٩٦٧.

* * *

انهار الجميع وقتها يا محمود بعد هزيمة يونيو وكنتم تتعجبون من تماسكي وقدرتي على مواصلة الإنجاز. قالها كمال الطويل

بصراحة أنه يظن أنني لا أهتم بشيء وأن نرجسيتي من رحمة الله بي وبالمستمعين.

لكنك الوحيد الذي كنت تفهم سر هذا التماسك:

أن قلبي متعلق بالبلد وليس بنظام.. بتراب وشعب وتراث وليس برُتب أو حكام! مصر لا يمكن أن يصيبها ضرر.. النظام يسقط ويرجع.. الأفراد زائلون ومصر باقية.. كلنا مجرد أسماء في ثوب الوطن الواسع.. نروح ونغيب.. ويفضل هو.. نغنيله ونفرح له ونعرف قيمته.. ساعتها لحنت عدى النهار.. وفدائي.. وغنيت يا حبيبتي يا مصر.. لأنها حبيبتي!

ومرت السنوات... وعبرنا الهزيمة! ورغم كل شيء نسيني الجميع في تكريم الفنانين في ذكرى أكتوبر. أنت نفسك كتبت عن هذا النسيان والتجاهل في أخبار اليوم وقلت إن مصر الأم نسيت ابنها بليغ. يومها صعبت عليّ نفسي وقعدت أبكي. لكن لم تكن مصر التي نسيتني يا محمود ولكن القائمين بالأمر هم الذين نسوني! لكن هل يهم ذلك. مصر عارفة إني باحبها... والناس تحت على الأرض هتفتكر نغمة بليغ، وإحساسه... وربنا فوق في السماء عارف اللي في قلبي للبلد دي ولناسها!

بمناسبة المقالات. لم أشكرك حتى الآن.. أو يمكن لم أشأ أن أفتح معك هذا الموضوع... بخصوص المقال الذي نشر بجريدة الأحرار وعليه توقيع الأستاذ محمد عبدالوهاب.. مقال «إنما أشكو الصحافة إلى الصحافة» صحيح أن المقال لم يتحدث مباشرة عني ولا حتى ذكر اسمي لكن من الواضح تماما أنه كان عن القضية (الفضيحة) التي حدثت.. لا أستطيع مواجهتك ولكني أسألك الآن هل أنت من كتب هذا المقال؟ إنه أسلوبك الذي أعرفه جيدا.. وحتى لو لم تكن أنت الذي

كتبته فلا شك في أنك أثرت على عبدالوهاب حتى يكتب مثل هذا المقال!

دعني أحكي لك حكاية طالما سننتج برنامجا نحكي فيه كل الحكايات القديمة والجديدة... هل تذكر عندما سألت جريدة أخبار اليوم الأستاذ الكبير عن رأيه في أغنية أم كلثوم الجديدة ـ وقتها ـ فات المعاد... قال:

ـ متأسف لم أتمكن من سماعها.. كنت أشاهد مسرحية حواء الساعة ١٢ التي كانت تذاع وقتها!

يومها أخذت على خاطري وقالت الستّ ضاحكة:

ـ يخرب عقلك يا عبدو.. مكانش فيه رد أشيك من ده! غيّار برضو!

أما عبدو صالح والذي كان حاضرا الجلسة فقال باتزانه المعهود:

ـ هذه شهادة عظيمة في حقك أن تخرج الرجل عن انضباطه أمام الصحافة.

نزلنا يومها معا ـ أنا وعبدو صالح والحفناوي ـ سيطر علينا الوجوم وكأننا جميعا على غير اتفاق قررنا أن نتذكر محمد القصبجي. والذي لم يكن فات على موته إلا أقل من عام.

تذكرت آخر مرة وأنا أوصله البيت بعد إحدى بروفات بعيد عنك... والله العظيم كما أقول لك.. كنا في شارع فؤاد (والذي سيطلقون عليه بعد ذلك اسم ٢٦ يوليو) أمسكني من ذراعي وقال بصوت حاد.

ـ واد يا بليغ... الحب ده أوسخ حاجة في الدنيا.

وصمت ثانية وهو يضيف بانكسار:

ـ وأجمل حاجة في الدنيا.

ثم أضاف بسرعة:

ـ لكن اوع في يوم تبطل تلحين.. اوع في يوم تنسى المزيكا.

واستوقف تاكسي وقال وهو يودعني:

ـ وبخصوص قزازة الويسكي اللي سرقتها مني أنا مسامحك!

كان هذا آخر لقاء لي بالقصبجي رحمه الله.

أنت تعرف أن القصبجي لم يكن يشرب لكنه كان يحتفظ بزجاجات الويسكي التي يهديها له الملوك والأمراء والفنانين ويكتب عليها تاريخها... ومرة سرقت منه زجاجة كان الملك فيصل قد أهداها له عام ١٩٤٦ وزعل مني جدا وخاصمني فترة طويلة بعدها!

بعدها بدأت المتاعب الصحية للست.. متاعب الكبد والكلى.. التدهور كان على مهل وعلى مراحل لكن كان يراه ويتوجع منه كل من هو قريب منها. أدركت وأنا باسمعها بتغني «الحب كله» ان فيه شيء راح ومش راجع... الستّ التي عرفناها ونعمنا بظلها... تُغير في كلمات «طريق حياتي/ مشيته قبلك/ في ليل طويل. لا حد جنبي/ يحس بيا/ ولا طيف جميل» وتقول بدلا منها «لا حد جنبي/ ناخد وندّي/ ولا طيف جميل» تلك التفاريد الكلثومية التي تُخبّر عن الست التي اقتربنا منها ورأينا ذهنها اليقظ وقدرتها على التقاط الإفيه وطبعها الريفي الحلو بخلاف الصورة الأرستقراطية التي يتصورها الناس! الست ولأول مرة تنشَز في مطلع الحب كله في إحدى الحفلات... وتنسى الكلمات في مقطع «شعر إيه/ ده الكلام اللي في

عينيك/ خلّى أحلى كلام يغير» فلا تسعفها الذاكرة ولا البديهة التي كانت دوما حاضرة. ترتبك أكثر من مرة حتى يصفق لها الجمهور تشجيعا وتعاطفا.

بعدها وأنا أناقشها في تسجيل أغنية «حكم علينا الهوى» وأقترح استخدام الكورال كما كنت أريد أكثر من مرة. تنظر لي بعينين متعبتين وتقول لي بإنهاك:

- اعمل اللي انت شايفه صح!

يومها وأنا نازل على سلم الإذاعة قعدت أعيط.. منتظرا أن يأتيني خبرها في أي وقت.

* * *

سافرت الجزائر ورجعت بالمحبوبة وأنت تعرف باقي الحكاية. وحين طلبت منها أن نزورها معا في المستشفى قالت بصرامة:

- لأ!

أدركت أن الست لا تريد رؤيتها وأنها لا تزال تحتفظ برأيها القديم فيها. حين حاولت أن أتكلم وأقنعها لكنها قالت:

- أنا تعبانة ما تغلبنيش معاك يا واد! خد تعال هنا.

واحتضنتني بقوة وقالت وهي تشدني من أذني:

- خلي بالك من نفسك يا مدهول!

هذه آخر كلمة أذكرها للست أم كلثوم! الله يرحمك يا ست

* * *

سنلتقي حين أعود مصر - قريبا جدا يا محمود إن شاء الله - ونتذكر ونحكي كل شيء.

حتى يحدث ذلك... لك مني كل محبة وود وتقدير

أخوك/ بليغ حمدي

باريس ١٩٨٦

### ٣. البلبل والأميرة

(حدوتة موسيقية بقلم ابن النيل/ بليغ حمدي)[١]

كان يا ما كان/ الحب مالي بيتنا/ ومدفينا الحنان!

الناس أصلها تحب تسمع الحواديت، تسمع الحكايات، الناس غاوية تتسلى، والحكايات حلوة ومسلية للي بيسمعها، إنما اللي بيعيشها، حاجة، تانية! لكن نقول إيه.

كله ماشي، ماشي/

يا دنيا خلاص ما بقاشي/

الناس الأيام دي تدور/

ع الحب وما بتلقاشي/

رخصتِ يا دنيا الغالي

وغليت اللي ما يسواشي!

والحدوتة هي حدوتة البلبل اللي كان بيطير، بيغني، بيرفرف بجناحه

(١) مسرحية موسيقية كانت في الأصل مشروع عمل للأطفال بين الراحل وأخته (صفية) وأخيه (مرسي سعدالدين) ما لبث أن تحول لحكايته الشخصية كما هو واضح. الأوراق موزعة بشكل عشوائي تماما مكتوبة في قصاصات صغيرة أو كراسات منفصلة. وقد حاولنا جمعها وفق سياقها قدر الإمكان خصوصا أن الراحل كان يكتب من دون انتظام.

وكل همه أنه يلاقي الحب ويلاقي الحضن الطيب اللي يمسح عنه جرحه! ما هو أصل البلبل اتولد بعلّة هي نفسها سر غناه، وكان كل ما جناحه يوجعه، يقعد يغني، والناس تصقف له، من غير ما حد يفكر أن غناه ده سببه ده الوجع اللي ماحدش يعرف عنه حاجة، ولا حد يعرف سببه! بيطير ويغني وآخر الليل ينام تحت جناح مامته الطيبة، أول حد غناله، وأول حد علمه الحب. كأنها كانت الوحيدة اللي حاسّة بيه، كانت دايما تقول له:

«أنت جميل يا بلبل، اوعا حد يحسسك يوم إنك وحش أو إنك قليل».

بيصدقها البلبل، وبيكمل رفرفة، لغاية ما بيلاقي مرة عصفورة جميلة بتضحك له ضحكة حلوة.

«أنت بتضحكي لي أنا؟»

«أمال باضحك لمين يعني»

«طب انت اسمك ايه»

«اسمي ماريا، اسمي ماريا يا عبيط»

«وبلدك ايه؟»

«بلدي بعيدة، ورا البحر، واسمها اليونان يا عبيط»

وتطير في السما تضحك عليه.

لأول مرة بيعرف الحب، بيدوق طعمه الحلو، وبيسكر من غير خمرة!

* * *

البنت اليونانية الحلوة تقول لي غنّي لي غنوة...

ـ غنوة ايه؟

ـ غنوة لعبدالوهاب!

عبدالوهاب إيه؟ أنا اغني لك غنوة من قلبي أنا، من لساني أنا، أغني لك اللي أنا حاسس بيه!

وغنيت لها:

روح والنبي للقمر/ للحلو بوس لي عينيه

وقل ليه يا قمر / تهجر حبيبك ليه

يمكن ده أول لحن أفتكر اني لحنته، وسأغنيه بعد ذلك! سمعت نفسي في انفعالها بي، علمتني الحب فرأيت روحي من خلال مشاعرها التي تقرؤني موسيقيا كأننا شركاء من ألف عام!

* * *

مشوار البلبل مع الغنا بيبدأ مع الحب، لو ما بتعرفش تحب يبقى ما بتعرفش تعيش! يمكن فيه وجع، ويمكن فيه دموع والأكاده فيه فراق لكن ليس من حقنا الاعتراض، فهذا هو قدرنا وهذه هي مشيئة الله!

العصفورة اليونانية بتقول للبلبل إنها مسافرة، والبلبل عينيه بتتملِي بالدموع، يعني إيه مسافرة، مسافرة فين وازاي وليه؟

ـ مسافرة مع أهلي، راجعة ورا البحر!

من يومها وهو كل ما يسافر أو يروح ينظر للبحر، للمجهول، لكن يخاف؟ لأ! الخوف ليس من الفراق، الخوف من العدم! ومن يحب لا يمكن أن يتوه في العدم...

معنى أعجبني

هذه الأنوار ما أعجبها/ صرن في قلبي جروحا عجبا
(لا تقل لي ذاك نجمٌ قد خبا)

أودعها، أحضنها وأشاور لها لغاية ما تغيب عن عيني. أرجع وخطوتي تقيلة! أمشي، شارع شبرا كله، كل مكان وكل ناصية وكل حجر ليّ فيه معاها ذكرى. أخرج للنيل، أمشي، أنا أحب المشي، أوصل للخلفاوي، السبتية، روض الفرج، وعند الخلفاوي. بعد سنين في نغمة حتظهر في أول غنوة أعز الناس، لما عبدالحليم (صاحبي واخويا الله يرحمه ويغفر له) يسألني:

ـ إيه يا بليغ الجملة دي؟ جبتها ازاي؟

لما قلت له إنها اتكتبت مع أول حكاية حب ضحك عليّ، أما ماما عيشة فما ضحكتش. شافتني يومها وانا راجع وعرفت أول ما شافتني كل الحكاية، من غير ولا كلمة! خدتني في حضنها وسألتني:

ـ صاحبتك سافرت؟

ولما لقتني باعيط قعدت تعيط معايا وتقول لي معلش!

وبعدين، كأنها افتكرت حاجة مهمة، قالت لي:

ـ بليغ، الدنيا مليانة بنات وستات حلوة! أهم حاجة عيوننا تشوف الجمال، وقلبنا يحس بيه! اوعا في يوم تبص لمراة واحد صاحبك أو صاحبته بصة وحشة! بعد كده الدنيا مليانة بالنساء الجميلات!

* * *

الشيء بالشيء يذكر. كل ما افتكر الحكاية دي أفتكر عمر خورشيد

اللي كان متجوز جورجينا رزق، كان جمالها يثير أخونا الشاعر عبدالرحيم منصور لدرجة الانفعال، وكل ما يشوفها يهرب للبلكونة يستخبى فيها، تسألني الأميرة (واو) في دهشة:

ـ عبدالرحيم ماله؟

ـ سيبيه في حاله اعملي معروف!

لغاية ما مرة ألحّت بالسؤال فقال لها وهو بيضحك:

ـ أبدا، بانفّذ وصية أم بليغ لينا واحنا صغيرين وبابعد عن زوجات أصحابنا!

كانت أيام حلوة، صحبة وأحباب وقلب متطمن بخوف ماما عيشة وبوجودها!

* * *

أقرأ ما يكتبه كثيرون عن الثورة وعن ضباطها وعن مصر بعد ١٩٥٢، الحكايات كثيرة والكلام كثير. المناقشات كانت وما تزال حامية، لكني أندهش حين يكتب أحدهم «إن الثورة لم تقدم أي شيء لمصر».

يكفي الثورة من إنجازات أنها دعت الأميرة لمصر عام ١٩٥٩!

* * *

فلاش باك على طريقة بتوع السينما.

العازف العظيم والأخ الكبير أنور منسي يرجع من زيارته للبنان. يحضر معه عند عودته أسطوانات وتسجيلات مختلفة. يعطيني منها واحدا ويقول

ـ اسمع ده، هيعجبك!

ـ ايه ده؟!

ـ مانت لو صبُرت هتسمع!

يأتي صوت بلكنة مغربية في المقدمة:

«أسطوانات باتي، بلبل شمال إفريقيا، الفتاة وردة».

ثم أسمع صوتا جديدا يغني يا ظالمني، صوت طفولي قوي، حاد حرّاق! في هذه اللحظة، يسمع البلبل صوت الأميرة لأول مرة، في هذه اللحظة، في هذه اللحظة بالضبط، كان كل شيء حدث، وأما باقي الحدوتة فليس أكثر من تفاصيل لا بد من حكايتها، ليفهم المستمعون في الصالة كيف تطور الأمر على هذا النحو، ووصل بنا إلى ما وصلنا إليه!

أطلب من أنور منسي باقي الأغاني المتاحة لها، وأجد عند جلال معوض بعض حفلاتها في دمشق وحين أعثر على أسطوانة «يامروّح البلاد» أجد نفسي غارقا من جديد. أحمدك يا ربّ. منذ سافرت ماريا كنت قد اقتنعت بأنني لن أحب ثانية وأن ذلك الشعور الجميل لا يمكن أن يعود! وهم وكلام فارغ! أسمعها فأتعرف على شيء كان ضائعا مني من ألف عام! ستغني هي هذه الغنوة ثانية في حفلة باريس وتقدمها باللغة الفرنسية. ظلت نغمة صوتها ترن في رأسي أيامها، يا مروح لبلاد.

أحكي ما بي لأبي الروحي، كامل الشناوي، فيقول لي:

ـ فيه شاعر قديم اسمه بشار بن برد كان بيقول:

والأذن تعشق قبل العين أحيانا!

* * *

أعرف أنها انتقلت من المغرب للبنان وأعرف أنها نزلت في فيلا في

منطقة رأس جبل. أفكر أن أذهب لمصيف عالية وألتقي بها. ثم يشغلني ما فعله محمد فوزي، عليه رحمة الله، وأجدني في رحاب الست.

لكنها كانت تخطر في بالي كل ليلة، فأردد قبل أن أنام «يا مروح لبلاد» وأبتسم!

أفاجأ بأغنية لها من تلحين عبدالعظيم محمد، عن مذبحة دير ياسين البشعة، والتي تكشف لك أننا كنا، وما زلنا نواجه عدوا لا يعرف الإنسانية ولا الرحمة! القصد، أنطلق فورا للرجل أسأله عنها.

ـ أنا في عرضك.

يضحك الرجل الطيب، الله يرحمه كان إنسان طيب ونقي جدا وكانت ضحكته صافية. قال لي:

ـ على مهلك! انت بتحب على السماع دلوقت يا بلبل أفندي؟!

ثم يخبرني بأنها قادمة لمصر بدعوة من إذاعة صوت العرب.

اللهم احفظ القومية العربية وقوى التحرر الوطني والزعيم جمال عبدالناصر. آمين!

أطلب من محمد فوزي أن أذهب لاستقبالها في المطار.

ـ يا سلام! وفرت علينا المشوار، بالمرة خُد ده معاك.

يعطيني بوكيه من الورد معه كارت تحية من الموسيقار رياض السنباطي. الله يرحمه كان يحبها جدا وكان يقدر صوتها جدا جدا. في المطار أجدها، أعرفها أول ما أراها، بالضبط كما في الصور، بالضبط كما تخيلت. ربما أطول قليلا! كانت بصحبة أخيها حميدو وأختها نظيرة. جلس حميدو بجواري وجلست هي وأختها في المقعد الخلفي.

طوال الطريق أتكلم، أتكلم وأحكي وأقول وأعيد. أما هي فلم تنطق بحرف واحد. ولا كلمة. أسترق النظر في مرآة السيارة وأسأل السؤال الذي سيلازمني بعد ذلك ثلاثين عاما على الأقل:

فيم تفكر هذه المرأة الغامضة الجميلة؟

فيم تفكر الأميرة؟

* * *

يقام حفل استقبال على شرف وصول الأميرة لمصر والقاهرة. هنا يصبح بإمكانه أن يراها وأن يتكلم معها. البلبل الآن طاير من الفرح، يشعر بأنه وجد أخيرا الحب الذي ضاع منه من قبل، تركه وعبر البحر وسافر. ممكن نتكلم عن جمال الأميرة، الجسد المنحوت، العنق الأبيض الباذخ والعينين السوداوين، لكن حين تقع في الحب تدرك الفرق بين ملكة الجمال والمرأة التي نحبها. ملكة الجمال جميلة بمقاييس، بتفاصيل محسوبة، أما التي أحبها فأحبها هكذا، دون سبب. تعرف، هناك لمعة عين وحماس لا تجدها إلا عند المغرمين. كثيرا ما كان البلبل ينظر للأميرة ويسأل نفسه، لماذا تبدو ساهمة طوال الوقت؟ لماذا يتغير مزاجها بلا سبب، المُحب سعيد دائما، أو هكذا أظن. إلا حين ينظر لها، أو يسمع منها كلمة حلوة

ربما كان مشوار العمر كله مجرد ترجمة عميقة لكلمة حب!

* * *

في الحفلة يرقبنا فوزي وأنا أقترب منها. أدرك ما سأدركه أنا بعدها بسنوات، أنني مفتون، أنني دخلت القفص وأغلقت الباب من الخارج وجلست أضحك بسعادة كالعبيط. الأميرة جاءت لتقابل بلبلا جاهزا تماما للهيام بها. يقترب منها ويعطيها كأسا:

ـ تشربي معايا..

ـ ما باشربش!

فيضع الكأس جانبا مرتبكا. أين ذهب الكلام الذي كان في باله ليقوله، بخ، طار! لا يجد شيئا يقوله سوى أن يصفر لها ويغني:

ـ قتلني البعاد/ متوحش ليهم

يا مروح سلم/ قول للحبايب

من البعد متألم/ وجسمي دايب

قولوا للحبيب/ يهني الغريب

يرسل له مكتوب/ يحكي له عليهم

ترن ضحكتها فيذوب. يذوب البلبل ويتحول لكتلة من النور والطرب واللهب.

ـ يخرب عقلك، أنت حفظتها؟

ـ أُمال انت فاكرة ايه؟ أنا باسمعها كل يوم تلات مرات. زي الدوا بالضبط!

فتضحك ثانية ضحكتها الرنانة العالية. ينظر لنا الجميع باسمين للسنارة المصرية التي غمزت في البحر العربي، لا يعلمون أني صياد ورحت اصطاد صادوني.

(الله يرحمك يا رشدي يا اخويا!)

ـ ميرسي على الكومبليومو. تعرف...؟!

ـ إيه؟

ـ أنا عارفاك كويس.

ـ بجد؟ تعرفيني أنا؟

ـ مش انت لحنت «تخونوه»؟

ـ أيوة!

ـ سمعتها في فيلم «الوسادة الخالية» في بيروت، ويومها قلت أنا هاتجوز الملحن اللي عمل اللحن ده!

هكذا، في أول تعارف، في أول لقاء بدون مقدمات. يزلزلني التعليق. لا أعرف كيف أرد، تقول إنها تريد السلام على باقي المدعوين قبل أن تنصرف. ببساطة كده...

ـ طيب هاشوفك امتا؟

ـ لسة مش عارفة، خلينا نتكلم!

ـ طيب أكلمك ازاي؟ هاتي رقم التليفون.

وكعادتها التي سأعرفها بعد ذلك على مهل، لا تمنح الجواب فورا. بعد دقائق من الصمت تقول:

ـ هات انت رقمك وأنا أكلمك.

في لحظة أكون قد كتبت الرقم في ورقة صغيرة، تبتسم، تأخذها وتغيب عن عيني.

* * *

في بعض الساعات تجتاحني رغبة عنيفة أن أكسر شيئا، ياما كسرت ريكوردات وفازات وأشياء ثمينة. أنا ليس عندي حل وسط، إما مبسوط قوي أو مكبوس قوي. أمشي بالسيارة جنب الرصيف أو على ١٢٠، يا ناعم مع الستات زي فالنتينو يا عنيف إلى مالانهاية.

الذي أعرفه أننا حين نحب فإننا نمنح، نعطي ببذخ ووله. الذي أعرفه أننا حين نحب، حين يكون حبنا أصيلا، فإنه يكون قادرا على إقناع الجميع بنفسه! الحب شمس، الشمس ليست بحاجة إلى أن تجادل لتثبت أنها موجودة! لم يكن الجميع مقتنعين بعلاقة البلبل بالأميرة، ولكن حبه كان قادرا أن يدافع عن نفسه.

لكن الوضع بالنسبة لها لم يكن كذلك...

كان أهلها غير مقتنعين بهذه العلاقة، لا يرون لها مستقبلا، لا يرونها علاقة جادة ولا يمكن أن تكون! ليه! إيه السبب؟!

هل أنا كفاية؟ كثيرا ما كان يسأل نفسه هذا السؤال، وكانت الإجابة التي تريحه حين يسمعها هي الخلاف بينهما في طبيعة الحياة، سمعتُه وعلاقاته المتعددة، أو الشكوك حول رغبته منها، أما الإجابة الجارحة، الإجابة التي لم يُطق يوما سماعه:

يمكن أن حبها لم يكن أصيلا كفاية، لم يكن مقنعا كفاية مثلما كان حب البلبل العبيط.

وآه يا عيني آه / ع الوعد والمقسوم

* * *

يطير البلبل، يقف بالشباك المغلق للأميرة النائمة في حجرتها، بلا مبالاة، غارقة في عطرها وفتنتها!

كلما استبد به الشك، كلما أحس أنه غير متأكد من مشاعرها! كلما وجد صدودا أو إهمالا وقف على الغصن وغنى:

«الحب كده! وصال ودلال! وعتاب ورضا

الحب كده».

وتتعطف أحيانا فتفتح له الباب فينهار تماسكه، ويطير بكل لهفة ويقدم قربان الولاء والطاعة

* * *

أتصل بها. بعد أسابيع من الغياب الذي يأكل أعصابي. أخبرها أننا سنذهب لسميراميس، كامل الشناوي والحفناوي ومحمد حمزة وعبدالحليم وتوافق فورا. أخيرا توافق وحين نجلس يسيطر علي خاطر أنها جاءت ليس من أجلي! جاءت من أجل الحضور ومن أجل طموحها!

يمكن أنا لا أعرف كيف أستمتع بحياتي. لكن أبدا. أنا استمتعت بكل دقيقة، بكل لحظة حقيقية! لكن أنا بتحركني مشاعري. أذهب لمكان أو أغادره وفقا لخاطر خفي يلح عليّ ولا أعرف كيف أتجاهله! لحظتها سيطر عليّ الخاطر ووجدتني فجأة باردا. لا أجد شيئا أقوله وأظل صامتا وحين تسألني بعد انتهاء السهرة:

- هتوصلني!

أهز رأسي معتذرا بأي كلام فارغ.. يتطوع بتوصيلها صديقان آخران. وحين أجدها تغادر المكان تسيطر علي رغبة أن ألحق بها، أعتذر، أقول آسف وأقول لها إني أحبها. لكنني أتجمد في مكاني. أجد كامل بيه وعبدالحليم ينظران لي، شفقة يمكن، سخرية! يجوز!

ثم يقطع كامل الشناوي الصمت ويقول:

- بليغ شكله بيحب بجد المرة دي!

فيرد عليه عبدالحليم ساخرا

- يا كامل بيه، بليغ بيحب في الليلة الواحدة تلات مرات.

ثم يضيف:

ـ لكن والله لو المرة دي بجد يبقا ربنا يستر. في الآخر هو يتعذب شوية واحنا نسمع مزيكا حلوة ويبقا عندنا حكاية ولا حكاية روميو وجولييت!

ويضحك بقسوة.. يمكن ليداري بها وجعا شبيها يريد أن يكون هو المتحكم فيه.

* * *

لو يعرفون كيف يمكن لكلمة بسيطة أن تجرحنا، تؤذينا، تسهر بنا ليالي لا نوم ولا يقظة ولا دمع! آهة مكتومة في حنجرة فقدت قدرتها على الصراخ أو التعبير. ألفّ في الشوارع بالعربية، أمشي على قدمي، أقف تحت بيتها قبل الفجر ثم أعود للبيت وقبل أن أنام أكتب له رسالة.

عزيزي عبدالحليم

تحية طيبة

أود فقط لفت انتباهك إلى أن تعليقك الساخر اليوم ونحن في السهرة قد جرحني جرحا أليما. برجاء عدم التعامل مع مشاعري بهذا الاستخفاف والاستهانة بحب عظيم لا أظن أنه يمكنك أن تفهمه.

برجاء عدم الاتصال بغرض الاعتذار الأيام التالية حتى أصفو لك تماما وأستطيع الكلام معك ثانية.

خالص مودتي

بليغ حمدي

* * *

يدعونا كامل الشناوي في بيت أخيه مأمون ليصالحنا. يقول كامل ضاحكا بمرارة:

- يا حليم احنا عيانين.. عيانين بندعي ربنا كل ليلة ما نخفّش.

في النهاية يتصافى البلبل مع عبدالحليم صاحبه، لكن الأميرة ظلت بعيدة عصيّة لا تغلق الباب ولا تفتحه، غامضة، صامتة لا يعرف ما يدور في رأسها. حتى وهي معه. وتثور شائعات حول علاقتها ببعض رجال السلطة من المملكة. لا يصدق طبعا كلمة واحدة مما يقال، ولكنه يسألها فتقول ببساطة:

- ينبغي أن يتعلم المرء كيف يحمي نفسه!

- يحمي نفسه؟ من إيه؟

فتضحك وتمد له يدها ببعض الحبوب والماء وتمسح على رأسه.

- أنت أصلك طيب يا بلبل أفندي!

الأميرة طموحة وتستخدم كل شيء لتحقيق حلمها. تقول له بعزم:

- الفراغ الذي ستتركه الستّ في المستقبل بحاجة لمن يملؤه!

تبدأ تطرح الأسماء المرشحة لخلافة الست. مزايا وعيوب كل واحدة منهنّ. يسمعها ويكتشف أن الست ممكن تموت يوما. كيف لم تخطر هذه الفكرة بباله أبدا. يشعر بالإشفاق من تلك السذاجة في التفكير، هل تتصور أن أحدا يمكنه أن يملأ مكان الستّ حين تغيب؟! مستحيل، ولكنه لا يعلق، ويقول بدلا من ذلك في هيام:

- نتزوج؟

وترتبك، ويجرحه ارتباكها ولا يصدقه، ويلح، ويقول لعل الجميلة بحاجة لشيء من الثقة، ولعلها لا ترى حبه الذي لا يراه الجميع!

ـ نتزوج؟

ـ أهلي معترضون.

ـ نتزوج؟

ـ لا أعرف إن كنت أستطيع الحياة خارج وطني للأبد، أو أريد ذلك.

ـ نتزوج؟

ـ أنا منتبهة الآن لعملي ولا أريد الانشغال بأسرة وأطفال.

* * *

تعود لبلدها مع أسرتها فجأة، بدون سابق إنذار.. بلا سلام ولا كلام. ويفاجئه الخبر فيصمم على أن يوصلها للمطار. يعرف أن أخويها سافرا قبلها وأنها ستسافر مع نظيرة! لا فرصة لتتهرب منه إذن. لا يمكن أن تسافر دون أن يودعها. مستحيل. يوصلها بالعربية، وفي صالة المطار يمنحها الهدية التي أحضرها مخصوص:

ـ ليه تعبت نفسك؟ مالوش لزوم!

ـ افتحيها. على الله تعجبك!

تفتح الشنطة الصغيرة وتجد العروسة اللعبة! تبتسم وتحركها بين يديها.. يقول هو بحماس:

ـ العروسة دي عملتها صفية أختي! أول عروسة كاملة تصممها بنفسها! دي لعبة طفولتنا أنا وهي، وفيها جزء من روحي!

طار بي الأمل بجناحه. أقول بحماسة، رغم أني أعرف أننا سنفترق بعد دقائق:

ـ مش عارف الهدية عجبتك ولا لأ، لكن صدقيني، دي أغلى حاجة ممكن أقدمها لك!

ـ بجد عجبتني قوي! شكرا!

هل أعجبتها فعلا! هل كانت تتوقع شيئا آخر، ثمينا! لكنها تقول بحنان:

ـ مبسوطة إني قابلتك وعرفتك! أنت ملحن عبقري وهتحقق نجاحات أكبر وأكبر.

يقع الكلام من أذني موقعا غريبا، لكن صوتها المحبوب حلو على كل حال! وتقول بدلع:

ـ يجب أن نسميها! اسمها إيه؟

ـ هي الآن عروستك! سمّي عليها أنت الاسم الذي تريدين...

تضم شفتيها وتضيق عينيها، كما تفعل دائما حين تفكر ثم تهتف بعد لحظة

ـ كشري! نسميها كشري!

كأنّ كل شعور تحرك بصدري من أجلها، كأن كل خاطر أو همسة أو لحظة حلوة كانت تنتظر هذا الجواب، بهذه الرقة، بهذه الطريقة في نطقها للكلمة، كشري، وأجد نفسي رغما مني أبكي، بلا سابق إنذار، بلا سابق خبرة.

تنظر لي ـ ولا أعرف أي نظرة تلك، تفهّم، حنين، رثاء، شفقة، لعله كان حبا! وتقول بصوت محايد لا أتبين فيه شيئا:

«بليغ، أنت طيب جدا. أنت إنسان طيب»

أسلم عليها وعلى أختها نظيرة، وتختفي من أمام عيني!

* * *

حبيناهم بعدوا عنا بالسنين/

غابوا عنا قولولنا فين

الأميرة التي قالت إنها لا تريد أسرة ولا زواجا ولا أطفالا، تسافر فجأة، وأعرف أنها كذلك تزوجت فجأة. تظهر مع زوجها الضابط الطويل الوسيم سعيدة في الصور. نتبادل رسائل متباعدة وأتصل بها مرة. ترسل لي مرة كارت بوستال مرة من باريس!

أتابع أخبارها عبر الأصدقاء، أتابع صورها من بعيد! لو لم أتابع لانقطعت أخبارها تماما. أتأمل صورة الضابط الوسيم الشاب ممشوق القوام مثل الفرسان وملامحه الوسيمة التي أعرف أنها تحبها في الرجال! أتألم؟ يمكن!

الأميرة سعيدة ومستقرة. تنجب طفلين، ولا يبدو أن شيئا يشغل بالها، بينما البلبل الحزين الجريح، لا يكف عن الغناء ولا الطيران.

* * *

مرة قال لي توفيق الحكيم مثلا بالفرنسية، وترجمته:

ـ نحن نحب مرة واحدة! والباقي محاولات للهرب.

كلام سليم في عين الشمس. أنا كنت أحاول الهرب! مثل شخص عنده ضربة شمس. أرتبط براقصة مصرية جميلة، مفيش أبدا أجمل منها. كانت كثيرا ما تقول:

ـ أنت إنسان طيب جدا.

هي تريد أن تستقر وأنا أريد النسيان ولا علاقة لهذا ولا ذاك بالحب الذي أبحث عنه. تنتهي علاقة لم تبدأ بردها الساخر وهي تغلق الباب.

«حب إيه اللي انت جاي تقول عليه».

كل شيء يبدأ.. يولد.. يموت.. كأنه نكتة. ومرة نجتمع كلنا.. أنا وماما عيشة وأسماء وصفية وحسام الله يرحمه (مرسي كان مسافر) كعادتنا في ليلة النصف من شعبان. وبعد أن تنتهي التلاوة يدعو كل واحد منا.. وتكون دعوتي:

«يا رب. واحدة أحبها وتحبني بصدق ونعيش سوا في هَنَا وراحة بال».

* * *

ثم تبدأ حكاية تانية مع بنت إسكندرانية طيبة! أرى في عينيها حبا صادقا فأقول يمكن. ينبغي أن تستقر وأن تجد لنفسك حضنا تطمئن فيه. أتصل بعبدالرحمن الخميسي في منتصف الليل وأقول له بحزم:

- خلاص! أنا قررت أبقا منظم زي الأستاذ موسيقار الجيلين! وهاتجوز!

- يا جدع انت. إيه جنان آخر الليل ده؟

ونتزوج فعلا كأننا في حلم. بل نحن في حلم. في قلب الليل. أرى سعادتها الصادقة فأدرك أني وصلت لبر الأمان.

ولكن البلبل كان يضحك على نفسه. ينكشف الحب عن محاولات للحب بلا نجاح. مثل غنوة خايبة بلا جمهور. تبدأ تضيق... تضيق بها.. بحياتك معها... تضيق بنفسك وتضيق بكل شيء. تعترف في لحظة صدق أنك تنسى كل شيء ولا تنسى الأميرة المسافرة...

يصبح الانفصال أمرا محتوما.. أفعله وأنا أشعر بذنب من حياة فتاة أفسدتُها بدون أي جناية. ألتزم بنصيحة الست وأكتب لها شقة الزمالك. ولكن هل تعيد النقود أو الاعتذار قلوبا أتلفها الهوى. أحبس نفسي في غرفتي أياما أسمع أسطوانة سيد درويش «ظلمتني يا بن عمّي»

أنا كنت أحبّك ما انكرشي

الذنب ده منك مش منّي

أنا كنت أحبك وأميل لك

دلوقت قليل لما أنظر لك

إنها نفس الحكاية عاشها الشيخ سيد قبل سنين.. هذه أحزن نغمة يمكن أن تتصورها أذن. أسمعها بلا توقف حتى تدخل صفية مرة تخرجها بهدوء وتكسرها دون كلام!

* * *

ولكن الحياة تستمر. آخر محاولة ارتباط كانت مع بنت موسيقار كبير. صقر كبير البلبل دايما يتعلم منه ويعمل له ألف حساب في دنيا الطيور. كانت حكاية حب.

أذهب مع أخي والصديق عبدالوهاب محمد. بمجرد أن نجلس أشعر بعدم ارتياح.. جو رسمي ليس فيه ترحيب.. قلبي يستحيل يكذب. ثم يقول الموسيقار في وسط الكلام:

«من أول يوم كان فيه موهبة مبشرة. من أول الأغاني التي أنتجتها كايرو فون».

إنه يشير لبداياتي كملحن في شركته الخاصة. تنطفئ رغبتي وأقوم دون أن أتكلم فيما جئت للكلام فيه. وحين نخرج يقول مرسي:

ـ يا جدع انت ما فاتحتوش ليه في موضوع الخطوبة حسب اتفاقنا!

ويقول عبدالوهاب محمد:

ـ خلاص هو عاجباه حياة العزوبية والعربدة. سيبه في حاله.

أما أنا فأتذكر عبارة السيد المسيح «يا ليت قومي يعلمون».

تمر الأيام.. أيام حلوة.. كلها أغاني وفرح وطيران.. في الظاهر! فيه حكاية حلوة لأوسكار وايلد عن عصفور من الذهب يجد طفلا فقيرا جميلا فيعطيه غناءه وريشه الذهبي ويتحول لجثة من الحجر. أمير الشعراء سيأخذ هذه الحدوتة ويصنع منها مونولوج «بلبل حيران» الشهير الذي سيغنيه عبدالوهاب. أنا كنت مثل هذا البلبل الحيران المتحجر! ندخل من قصة ونخرج من حدوتة.. لكن لما كل حدوتة منها كانت بتخلص كنت تعرف أنه ليس حبا.. ليس حبا أصيلا!

ثم أعرف أن الجزائر تعد احتفالا بالعيد القومي العاشر للثورة.. وأن السنباطي يجهز غنوة لهذا الاحتفال.

غنوة تغنيها السيدة الأميرة المحبوبة!

أطير له فورا.. أنا في عرضك. يستضيفني في شقته بمصر الجديدة وينظر لي بعينيه النافذتين وابتسامته الواسعة. يصب لنفسه من زجاجة الويسكي التي لا يشرب منها سواه ويقول بهدوء:

ـ تصدق يا واد.. أخيرا فهمت؟

ـ فهمت إيه يا ريّس؟

ـ فهمت ليه الست كانت دايما بتقولك يا وسخ.

ويضحك فأعرف أنه وافق على مساعدتي. يعتذر عن تلحين الأغنية ويسند لي المهمة فأطير للجزائر.

وعلى بلد المحبوب ودّيني!

أراها من جديد.. بعد كل هذه السنوات أراها من جديد.. نفس خفقة القلب ونفس الارتباك.. نفس رعشة اليد. أراها وأدرك أني غارق من جديد في سحر ابتسامة لا تمنح بقدر ما تمنع!

ـ أخيرا!

ـ إزيك يا بلبل أفندي...

ـ كل السنين دي ولا رد ولا مكتوب! تعرفي إن أم كلثوم بهدلتني لما عرفت حكاية «بعيد عنك».

لا ترد فورا.. تتأملني قليلا ثم تقول بهدوء:

ـ لم تخيب ظني. كنت أعرف أنك ستأتي!

الأميرة تفعل ما تريد. هي التي رتبت للحفل وهي التي اتصلت بالسنباطي وهي تعرف مقدما أنني سأقلب الدنيا حتى آتي إليها! الأميرة تحرك كل شيء كيف تشاء.. وماله.. حبيبي جيت انا ليه في الدنيا ديّ الا عشان أحبك.

ـ ومتى تعودين معي لمصر؟

ـ لازم تقنعني أولا...

وتضحك.. فيذوب البلبل من جديد كتلة من النور والنار.. يحلق حولها وهو يغني بسعادة لا يعرفها إلا معها:

«وعملت إيه فينا السنين

فرقتنا.. لا

غيرتنا.. لا

ولا دوبت فينا الحنين

قد العيون السود باحبك»

* * *

ترجع مصر وتقف على المسرح وتستعيد الجمهور الذي عشقته. لم يبق إلا أن نتزوج.. ويقول محمد حمزة ضاحكا:

ـ بليغ يتزوج؟ آمنت بالله!

فتقول صفية دون أن ترفع رأسها من على إبرة التريكو:

ـ ربنا يستر.. قلبي مش متطمن!

يقولون إن الصبي الذي لم يحتمل أن يغلقوا عليه باب الفصل فهرب من المدرسة.. الشاب الذي كان لا يطيق البقاء في مكان واحد نصف ساعة متواصلة .. المغرم بالفوضى والمشي مع الأصحاب لا يصلح للزواج. لا يعرفون أن الحب معجزة.. معجزة قادرة على أن تشق البحر نصفين وتحول التراب لذهب وتحول بليغ لزوج وأب صالح!

كل ما يريد هو قلب أمين يستحق مشاعره الصادقة.

تبدأ الترتيبات الرسمية للزواج.. والذي سيقال بعد ذلك إنه كان يتهرب منه.. كل ما كان يريد هو التأكد من مشاعرها.. وحين يطمئن.. حين يدرك أنه يمكن الآن أن يسلم نفسه يفعل عن طيب خاطر. تبدأ الكمنجات تغني لحن الزفاف الجميل. أجمل لحظة كانت حين أخذ الشيخ نصر يده ليوقع على عقد الزواج. ترتفع الزغاريد ويقول عبدالحليم:

ـ خلاص يا سيدي جوزناك وردة.. اهدا بقا.

وقلت إن الحكاية انتهت بالنهاية السعيدة. ولكن السذاجة هي طبعي الذي لا مفر منه!

* * *

يقول المفتون لنفسه، ينبغي أن أتدرب على عدم السؤال، على عدم الإلحاح. أكيد بتحبني، لماذا جاءت مصر إذن. ولكنها تبدو ساهمة طوال الوقت. لماذا يتغير مزاجها بلا سبب، المُحب سعيد دائما، أو هكذا أظن. ولكنني كذلك لست سعيدا طول الوقت؟ غير أن مصدر انشغالي هو أني لا أعلم ما يشغل بالها. لعلها ساهمة لأنها منشغلة بي، لعلها تفكر في نفس ما أفكر فيه. إن كان من شيء أفعله، فهو التدرب على قول ـ وأنا مالي، مالي بالأحزان وأنا مالي. يقول المفتون لنفسه، لعلها لا تزال تفكر في حياتها السابقة في الجزائر، إن طيفها حاضر معنا طول الوقت. تقول في عذوبة كأنها تهدهد طفلا صغيرا:

«تعلّم أن تستمتع!».

«أنا سعيد طالما نحن معا».

«ها نحن أولاء معا أخيرا».

أدرك أني وصلت لدرجة متأخرة من الهوس حين تقترح أن نعيش في باريس فأكاد أوافقها! أنا الذي لا أتخيل الحياة خارج مصر! مع كل خلاف لها مع واحد من الزملاء أجدني متورطا.. لا أستطيع أن أرفض لها طلبا.. لا أستطيع أن ألومها ولا أعاتبها. أبالغ في التصوير معها كأني أؤكد للجميع أننا معا. أنها لي.. وأنه لا شيء يمكن له أن يفرقنا. لكن هذا الصمت. أشتري وردا كل يوم.. أكتب لها كارتا لتجده جوارها أول ما تفتح عينيها.. فتقول باستخفاف:

ـ يا بليغ الفلوس دي تشتري عمارة والله!

هذا أغرب رد يمكن لي أن أتصوره. كلما تدفقت مشاعري بلا حساب تقول هي برزانة:

ـ مصر بلد النيل.. الجزائر بلد الصحراء والجبال. لازم تفهم الفرق في تصورنا للمشاعر والتعبير عنها.

ولكن الحب هو الحب. ما علاقة الحب بالنهر والجبل والصحراء!

تطلب مني بإلحاح أن تسافر لإحياء حفلة في ليبيا! الآن؟ وفي ظل هذه العلاقات المتوترة؟ ما سر هذا الإصرار الغريب. أطلب من مرسي أن يضمن لها ألا تسبب لها هذه الرحلة أي مشكلة لاحقا. حين أسمعها وهي تغني «إن كان الغلا ينزاد» أعرف سر الإصرار على السفر! بهجة هذا الصوت الذي أعرفه كما أعرف كفي. مثل المراهقين أطلب معرفة اسم المشاركين في وفد الجزائر إلى ليبيا وأجد الاسم الذي توقعته. أشعر بالغيرة.. يمكن.. أدرك أني كنت على صواب! ولكني لا أعلق. تعود ويمنعها السادات من الغناء. ورغم شعوري بالإهانة فإني لا أفاتحها حتى في الموضوع. أتوسط للإفراج عن أغانيها ولا تفلح الوساطة. ما زلت في نظرهم العيل الصغير.. ويقبلون وساطة عبدالوهاب.

هذه حكاية سخيفة من أولها لآخرها. أكتبها في ورقة بالحبر الأزرق ثم أرميها في النيل. أنساها وكأنها لم تكن. تظل روحي نقية. بلا غل. بلا حقد.

على الأقل أحاول.

* * *

عندما نحب أحدا فإننا نحب البقاء معه، النظر إليه، الاستماع لصوته. نتكلم معه، عنه، ليس عن العمل ولا الألحان ولا إيرادات الأسطوانات ولا المشاريع القادمة. عندما نحب أحدا نبقى معه للأبد، وعندما نحب أحدا نتمنى أن يكون لنا منه أطفال. ثمرة لهذا الحب الأصيل الصادق!

عندما نحب أحدا لا نجهض نفسنا مرتين.. كأننا لا نريد رابطا أبديا بيننا وبينه!

هل أنا كفاية؟ هذا سؤال لا أريد معرفة إجابته أبدا!

* * *

هذه حكاية بلبل مسكين.. كان يبحث عن الحب. وجد أميرة جميلة فوضعته في يدها وغنت له. استكان في يدها الناعمة وعرف أن هذا ما كان يبحث عنه. لكن الشك والقلق والحيرة كانت أقوى من كل شيء. هل تحبه أم تحب الأمير الوسيم؟ هل تحبه أم تحب نفسها وصوتها. وله وهوس وسعادة قصيرة وخلاف وخناق وشك وضيق. مفتون تحييه الابتسامة والكلمة الحلوة ويطفئه الجفاف والبعد والصمت والبرود. يقول لنفسه لعلّي لو أثرت غيرتها لوجدت في الغيرة الحب الذي أبحث عنه، أعرف هذه وأتصور ضاحكا مع تلك. ألعب دور الشخص السعيد، أقول لعلي لو جرحتها لعرفت قيمتي، ولعرفت مقداري عندها. أحيانا نكسر الشيء لنعرف مدى صلابته، وأنا كنت أريد معرفة صلابة مشاعرها، أو أعرف إن كانت موجودة من الأصل.

ولكن الحكاية كانت قد انتهت.

وتوتة توتة فرغت الحدوتة.

## ٤. باريس

يوميات ومذكرات[١]

### يوم الوصول

لو يكون للواحد بيت في كل بلد.. حتى لو بيت صغير.. يصحى.. يسافر على كيفه! تخيلت أن أول يوم في باريس ممكن يكون قاسيا أو حزينا.. أبدا! عرفت أن رحمة ربنا كبيرة.. وأن خطوتي بتاخدني في الطريق المرسوم. أول ما لقيت شاب صغير جاي يسلم علي بحماس في مطار شارل ديجول من غير سابق معرفة... حب الناس هو أكبر نعمة! الناس همّ اللي قدروا يفرقوا بين الذهب الأصلي عيار ٢٤ والفالصو.

قال لي إن اسمه سليمان العطار..

عرفت أول ما بصيت له في عينيه أنه عاشق مجروح.. وأن جرحه لسة جديد!

فكرت أسأله.. لكن لسة الوقت قصادنا طويل نسمع ونسأل ونعرف! دندنت على مهل وهو بياخد الشنطة:

«يا ترى يا واحشني بتفكر في مين».

وعرفت من لمعة عينه.. من مشيته المكسورة أن تخميني في محله

مسيرنا نعرف إيه حكايتك يا عم سليمان.

* * *

---

(١) ما أمكن جمعه وقراءته من مذكرات الراحل أثناء إقامته في باريس وترتيبها وفق سياق. باقي الأوراق في الكراتين المغلقة لم يتم فرزها أو جمعها للأسف.

كلمت صفية وطمنتها. وبعد تردد، كلمتها... وكانت كالعادة مشغولة... بتعمل شيء ما. اتطمنت أني وصلت بالسلامة وقالت لي Bonne nuit وقفلت السكة، يا سلام! طب ما انا برضو مشغول. باكتب مزيكا حلوة. سليمان نزل عشان يلحق المترو الأخير. ما يقدرش يبات معايا لأن عنده شغل الصبح! وأنا هادخل السرير لوحدي.

لكن لوحدي ازاي؟ معايا النغمة الحلوة، معايا رحمة ربنا، ومعايا طيف المحبوب القاسي. ستنساني يا حبيبي ولن أنساك. لكني لست غاضبا. المحب لا يغضب. ستنساني وسأذكرك. ستستمر الحياة بدوني. لكن حين أموت وحدي، اجمعي حروف اسمي الأربعة، وضعي ٤ وردات يا وردتي - يا وردة الحب الصافي - على قبري. واذكري أعمى من العميان عاش ومات بلا معنى. أعمى عاش وحيدا ومات وحيدا، بلا أنيس ولا جليس، غير حبك المجنون.

* * *

متعبٌ والنوم مجافيني. أفتقد من أعرف أنه لايفتقدني. حزين، ولكني لست غاضبا. العاشق لا يغضب. يمكن لو صحيت بدري أكتب النغمة الحلوة اللي بترن في ودني دلوقت.

* * *

يدعوني سليمان لبيته لتناول الغداء كسكسي مغربي وطاجين! الأكلة التي كان يحبها عبدالحليم الله يرحمه ويطلبها حين نذهب للمغرب! (الله يرحمك يا صاحبي) الأيام الحلوة والملك الحسن.. بقيت الذكريات.. بقيت الماشاء الله الذهب على صدري لا أخلعها.. أتفاءل بها! يقول إنه سيرسل لي من يأخذني حتى لا أتوه. أصر أن أذهب لوحدي.

يا واد أنا فنان كبير.. يستحيل أتوه!

أعرف العنوان ولكني أتبع قلبي.. قلبي يقول لي امش يمينا.. قف هنا.. لا يسارا. أجد اسم شارع فتعجبني موسيقاه.. أمشي فيه وأنا أدندن نغمة على إيقاعه! في النهاية أجدني في الشارع المطلوب.. أبحث عن نمرة ٣١ وأجدني أمام البيت.

يا سلام عليك يا واد يا بلبل!

يفتح لي الباب لأجد رائحة الأكل الشهي.. يضحك وهو يقول:

ـ وصلت فعلا؟ تصورت أن تتوه!

ـ أنت اللي تتوه يا سليمان أفندي.. إنما أنا ما اتوهش أبدا. بس احنا محتاجين أورج بسرعة.

أدخل وأدون النغمة التي خطرت ببالي على اسم الشارع مع الإيقاع (روجيه سالنجرو/ طم طم طم) Roger Salengro

إنه اللحن المطلوب لأغنية لا ينقصنا إلا رؤياك.

ـ لحن جديد؟

ـ كلمات عبدالوهاب محمد وهتغنيها نادية مصطفى! هنروح نسجلها في اليونان قريب! شوف بقا لولا زيارتك دي ما كنتش اتوفقت في النغمة المضبوطة!

يعتذر عن تواضع مستوى الحي مقارنة بالحي الذي أسكن فيه! أنا لا يضايقني الفقر ولا الناس البسيطة أبدا.

لكن يعني صدعونا بحكاية حقوق الإنسان والعالم المتقدم المتطور.. وآهو.. باريس فيها أحياء أفقر من القاهرة!

* * *

أتمشى معه... ندردش.. ولكن فجأة يتعكر مزاجي بلا سبب! أشعر بضيق.. نفسي مقبوض وصدري عليه جبل.. لا أعرف ما كان يقول.. يسألني عن الدرس الذي تعلمته من الحياة! يستفزني السؤال بلا سبب. أشعر بغضب.

ـ أهم درس تعلمته في الحياة يا سليمان أنه كسم الحب!

يرتبك الفتى... لا يعرف ماذا أغضبني فجأة ويعتذر.. أشعر بتأنيب ضمير. يبدو أن شكلنا لفت انتباه الشرطة إلينا فيأتي الضابط ليسألنا. أخرج له بطاقتي كموسيقي من جمعية الملحنين العالمية! يعتذر عن إزعاجنا.. ينصرف بأدب.

بعد أن يبتعد يقول سليمان بغل:

ـ هل لاحظت لكنة الضابط.. تلك اللكنة الخشنة.. إنه من الشمال.. فلاحي فرنسا!

ـ لم أنتبه.

ـ عنصرية قذرة! إنه يستوقفنا لأننا عرب.. هل انتبهت كيف يمد ألف المد في Les arabes؟

كأن مرارتي انتقلت له.. أعرف هذا الغل.. هذه الرغبة في الانتقام!

ـ سألتني عن أهم درس في الحياة! سيبك من اللي قلته. أهم درس.. إياك أن تجعل ألم الحب يجعلك تكره الحياة! الكراهية لو خرجت منا هي التي تستثير كراهية الآخرين.. لكن لو رميت حُب لازم تلاقي حُب!

أدرك وأنا أقول ذلك أن الأميرة السيدة (واو) وحشتني.. لازم أكلمها لما أرجع!

* * *

يحضر لي مجموعة أسطوانات ونجلس لنسمع! أسمع لأول مرة هذه الأغنية من فرانك سيناترا...

هذه الأغنية تعبر عني بالضبط! هذه الأغنية قصة حياتي. أقول له تعال نترجمها.. يمكن نطلع بحاجة.

طريقي

غناء فرانك سيناترا

ترجمة ابن النيل وسليمان العطار

دلوقت قربت النهاية

واقف قصاد ستارة الختام

يا صاحبي، أقولها لك بوضوح

هاقولك أنا متأكد من إيه

عشت الحياة بالطول والعرض

سافرت في كل طريق

وعملت كل حاجة بطريقتي

حبيت، ضحكت وبكيت

خسرت زي أي عاشق

بس تصدق، الحكاية كانت لطيفة

لكن دلوقت أقدر أقولك

عملت كل حاجة بطريقتي

معنى أعجبني

زي ما بيقول فرانك سيناترا «هاقولك أنا متأكد من إيه» أنا كمان أريد كتابة الحقائق في حياتي التي لا شك فيها

(أنني لحنت هذه الألحان التي أعجبت كثيرين/ أني عملت مع الست

أم كلثوم/ أني أحب بلدي/ أني رأيت ملاكا وأنا طفل وقال لي إنه يحبني وأنني ملحن/ أنني أحب السيدة الأميرة واو)

لكني لا أذكر عدد الأغاني التي لحنتها.. ولا أعرف إن كانت حكاية الملاك هذه حقيقة.. أم مجرد وهم من أوهام الطفولة.

* * *

مُتعتي الوحيدة في باريس هي المشي، من بوليفار سان جرمان لحديقة سان لكسمبورج، الشجر والورد والمساحات الخضرا. أرى رحلة مدرسية لأطفال فرنسيين، ضحكتهم الحلوة تفتح النفس على الحياة. أروح أشتري بونبوني وأستأذن المدرسة المشرفة على الرحلة وأوزعه عليهم.

مين عارف يمكن لو كان لي ابن من وردة كان يطلع حلو زيهم كده!

نظرت من الشباك وقلت يمكن يلهمني منظر المطر الباريسي بنغمة حلوة. دخلت لعبت شوية ع الأورج لكن فتوح العارفين عصلجت وقالت لي فوت علينا بكرة. بشوقك. ريّحت على الصوفا وعيني على المطر، غفّلت وفي المنام شفت أمي مرة تانية. كنا في بيتنا القديم في شبرا. كنت كبيرا لكن كأن جسمي عيل صغير، جريت عليها

«الحقيني يا ماما، الدنيا بتمطر».

أخدتها من إيدها ودخلنا الغرفة؛ أحتمي بها وتحتمي بي، لكن لقيت وردة قاعدة على السرير. قالت لماما:

«أصلك دلعتيه بزيادة يا طنط عيشة.

«وماما ما ردتش...».

فتحت عيني وكان جرس التليفون بيرن.

صفية بلغتني أجلت لي دخول امتحان الليسانس كما تفعل كل سنة.

ـ طيب أنا يعني هاعمل ايه بكلية حقوق دلوقت بس. بالعقل كده!

ـ برضو يبقا معاك شهادة ممكن تنفعك!

ـ طيب. اعملي اللي انت عاوزاه وارحميني بقا يا صفية.

أتذكر الستّ.. كانت تريد لابن أخيها أن ينافس عبدالحليم! أتذكر كيف تبدو الفكرة مقنعة في عقل صاحبها وكيف تبدو سذاجة مضحكة لمن يسمعها.

يا ترى فيه ايه في حياتي ممكن يكون مضحكا ومثيرا للإشفاق في أذن السادة المستمعين!

عرفت أن توفيق الحكيم في باريس! سمعت أنه يصور فيلما سينمائيا ولم أفهم ثم عرفت الحكاية.. يوسف فرنسيس أقنعه بالتمثيل في فيلم عن روايته «عصفور من الشرق». رحت وسلمت عليهم.. الواحد كانت وحشته ريحة مصر وحبايب مصر.. وكلمته فضلت ترن في ودني بكل ما فيها من مرارة لم تنجح السنين في إزالتها:

«أما بالنسبة لحنان المرأة فالأحسن أن تنساه».

وقف بنا على ناصية أحد الشوارع وأشار بعصاه ويده المرتعشة:

«هنا كنت أقابلها عند شباك التذاكر.. من خمسين سنة. هنا بالضبط في هذا المكان».

وعرفت أن الحياة تستمر لكن بعض المشاعر لا يمكنها أبدا أن تموت.

* * *

كوم من الجوابات.. بدون سبب واضح حسيت أن واحدا من الجوابات فيه جواب مهم.. أفتحه وأجده من ابن مدام جوليو! كانت تعرف عنواني في باريس وطالما زرتها مع وردة حين كنا نأتي معا! هذا خطاب من ابنها. أفهم منه أنه يمر بضائقة مالية. أنزل وأكتشف أني نسيت النقود التي أريد إعطاءها له.. أعود بسرعة وأجد شخصا ينتظرني أمام باب البيت. أميز فورا أنه مصري. المصري يعرف المصري.. أصالة حضارته مرسومة في ملامحه وخطوته.. عظيم ابن حضارة عظيمة.

ـ أهلا.. أنت مصري؟

أرحب به وأدخله فورا. يخبرني أنه من المنيل (هل قال لي اسمه ونسيته.. ولا نسيت أسأل) افتكرت عزيز بتاع المنيل.. كان وليا من أولياء الله. كان كل ما يشوفني يغني:

ـ ما على العاشق ملام!

أوصي سليمان أن ينتبه للضيف من مصر وآخذ الفلوس وأذهب لابن مدام جوليو. في الطريق أقابل المهندس محسن والوزير الصديق م.

ـ طب يلا بيناع المغرب!

يضحكون ويظنون أني أمزح! لا يكتشفون أني جد إلا وأنا في الطيارة.

يا سلام عليك يا بلبل يا جميل يا صاحب التفانين. ما فيش أجمل من الحرية ولا النغمة الحلوة!

في الطيارة يسيطر عليّ خاطر مُلح أني أعرف هذا الشخص الذي قابلته وأدخلته البيت. لكن مين يا ترى!

يمكن روح قابلتها في حياة تانية.. ويمكن ملاك جاي يزورني من

عالم الغيب. ويمكن جملة موسيقية خدت شكل إنسان وجاية تتطمن عليّ.. مين عارف.

* * *

**معنى أعجبني**

العيلة ويا العيلة/

سهرانة ويّانا والليلة/

والأمن والأمان/

أجراس جنب الأذان.

فعلا هي دي مصر.. دفا وأمان وناس بتحب بعض وخايفة على بعض.

لما قابلت المؤلف قلت معقول.. ضابط شرطة ويكتب شعر. لكن عنده معاني حلوة. يا رب نتوفق في جملة كويسة.

* * *

إنه القاضي الذي أصدر الحكم عليّ.

أصحو من النوم وقد عرفت أين رأيت وجهه! إنه القاضي! فكرت لحظة وعرفت ماذا كان يريد! ابتسمت في اطمئنان.

آن لي أن أعود لمصر.. آن لي أن أموت.

كان حكما بالإعدام ولكن رحمة الله وسعت كل شيء.. ولن يرضى أن أموت خارج تراب مصر.. وقد استعدت حقي وسمعتي.

اتصلت بصفية

ـ خلاص المشكلة هتتحل!

ـ بصحيح.. حصل حاجة؟

ـ لا.. لكن اسمعي مني. أنا عمري قلبي كدب عليّ؟

ـ يوه منك!

ـ هتشوفي!

* * *

أيام وليس في أذني سوى نغمة واحدة. نغمة أصيلة في كل الحكاية. بمجرد أن تأخذ شكلها وحتى قبل أن أدونها أجري على التليفون.

«ألو... أيوة يا وردة! أنا بليغ».

يأتيني صوتها ضاحكا مثل كل مرة:

«طب ما أنا عارفة».

ويبدو أن مزاجها رائق. تقول في رقة:

«والله باعرف صوتك من غير ما تقول».

«طيب اسمعي.. الغنوة الجديدة».

* * *

«باودعك/ وباودع الدنيا معك

جرحتني/ قتلتني/ وغفرت لك/ قسوتك.

باودعك/ من غير سلام ولا ملام/ ولا كلمة مني تجرحك/ أنا أجرحك؟

باسم الآلام/ ارحل أوام/ حبي الكبير حيحرسك في سكتك.

الله معك».

# سليمان العطار

أستلمُه وقد تم تصليحه، أخيرا، بعد يومين من الانعزال الإجباري عن العالم. أدركتُ حين وقع الهاتف من يدي، وتحول لجثة هامدة، أن شيئا ما سيحدث. ابتسمتُ، وقلت إن مصير الفتى الآن معلق بيد العليم القدير، وليس لنا من الأمر شيء. أفتحه وأجد محاولات الاتصال المتكررة فأدرك أن مخاوفي كانت في محلها. أتصلُ فيأتيني صوت بارد لموظفة استقبال في مصحة سانت آن ثم ينتقل بي إلى قسم طوارئ الطب النفسي. لعلّ الواجب كان يقتضي أن أحذره بشكل أكثر جدية مما فعلت، ولعلي توقعتُ من صاحبته الفرنسية شيئا غير ما فعلَت، كأني بعد كل هذا العمر والتجربة لم أزل محتفظا بسذاجتي كعاشق قديم يبتسم في بلاهة أمام القبة الزجاجية، لم يتعلم شيئا.

تلوح صورة إيما دوران أمام عيني، فأبتسم في مرارة. سأذهب الآن إليه، كما طلب مني الطبيب في الهاتف، وهناك سأعرف التفاصيل، أما الهيكل العام للحكاية فإني أعرفه؛ عرفت ما كان وما سيكون وما هو كائنٌ لحظة رأيته في حديقة لوكسمبورج، قبل عام، بعينيه الذابلتين، عيني المُغرم المهزوم، وصوته النحيل يتردد في فضاء الحديقة، ينطق بألم مُمضّ لا سبيل للخلاص منه.

«يابو العيون السود، ياللي جمالك زين».

هذا مقام الصَّبَا يا مصري يا مجنون، قلتها لك مازحا، وها أنت ذا

تأبى إلا أن تواصل الطريق لمنتهاه، وتجعل منها حقيقة مثبتة في أوراق رسمية. أرتدي ملابسي وأركب المترو، الخط الرابع، في اتجاه مونبارناس، وحين أصل للمكان المنشود بعد سؤال وجواب، أجدني إزاء هذا الطبيب المصري.

هذا الطبيب المصري الكريه، إن شئنا الدقة.

* * *

حين يراني يهز رأسه ويبتسم تلك الابتسامة، ابتسامة الاستعلاء التي أعرفها جيدا، يصافحني ولا يجيب سلامي بالعربية، يجيبني بفرنسية مدرسية سليمة، تفوح منها بوضوح التراكيب واللكنة المصرية، ويقول ببرود:

ـ أنت موجود فعلا؟

أفرد يدي مسلما بالأمر الواقع؛ نعم أنا موجود، فيضيف موضحا، بذات البرود والرسمية:

ـ كان كلّ شيء يرويه صاحبك عنك يعطي انطباعا أنك مجرد هلاوس أو ضلالات.

أدرك وأنا أحادثه، بشكل أكثر وضوحا، أني لا أكره طلال؛ ربما أشعر تجاهه بالإشفاق أو الرثاء، ربما الاحتقار أو النفور، لكن شعوري تجاه هذا الطبيب المصري هو الكراهية الخالصة؛ الكبرُ الذي يطل من كل حركة فيه، دقته وانتظامه الآليين، أسئلته المُرتبة، عنصريته الكامنة التي لا يخفيها سوى انسحاقه أمام التفوق الغربي، إصراره على الحديث بالفرنسية. مؤمن بلا رحمة أو روح، كيس معلومات بلا عقل أو قلب. إنه النتيجة الرديئة لقرون الاضمحلال وحلم دولة الخلافة! أتفرج عليه

وهو يتكلم منتظرا أن يعلن عن تديّنه بصورة أو بأخرى، وها هو ذا لا يخيب ظني، يسأل بوجه ممتعض:

- هل هو ملحد؟

- ماذا تعني بـ ملحد؟

يرتبك قليلا قبل أن يجيب:

- ملحد، لا يؤمن بوجود الله.

- كان بإمكانك أن تسأله بنفسك!

لا يدرك المسكين أني أعرف أنه ليس من سلطته أن يسأله. لو سأله لقدمت فيه شكوى رسمية، ربما أعادوه لمصر، وحرموه من التمرغ في النعيم الأوروبي الذي يستعلي به الآن على خلق الله. أعرف من تلك العلامة الباهتة في جبهته أنه يصلي، كيف يكون الإيمان بالله أقصر الطرق للجحيم. أستغفر الله، ها أنذا أمنح الجنة والجحيم وفقا لمزاجي أنا، ومن أكون أنا، أعوذ بالله، إلا أن عنجهية ذلك الطبيب لا تطاق. ماذا سيبقى من كتب التاريخ لو تخلى البشر عن عنجهيتهم، ماذا كان سيبقى من الفنّ، ولو أن كل الناس كانت مثل صاحبي الطيب، الساذج المتشكك في موهبة لا شك فيها. يواصل الطبيب المصري أسئلته، لقد قرر أن يعتلي منصة القضاء ويحكم على كل شيء، وغباؤه لا يسمح له برؤية انزعاجي الواضح لأي عين:

- هل هو مؤلف فعلا؟ عندما بحثت عنه على جوجل لم أجد سوى مقالات متناثرة، واتهامات بالنصب في دار نشر مزعومة. كذلك هذا الذي يكتبه، إنه مليء بالتجديف غير المحتمل.

- هل سمعت عن الـ Confidentialité من قبل يا دكتور؟

يبهت لحظة، ثم يردّ بثبات:

ـ لم أكشف شيئا من خصوصية أو أسرار المريض، إني أستفسر حتى أعرف منك ما حدث.

وأنا قد بدأ يستولي عليّ الضجر من كل ذلك، فأطلب منه أن يخبرني، باختصار بما حدث، وكيف يمكن أن نساعد الفتى.

* * *

بعد أن سمعنا بوابة الحلواني وأنا مـ البلد دي، وتفلسف كعادته مفسرا كل شيء بكل شيء، قرر أن يكاشفني بسره مع صاحبته الباريسية. حكى لي حكايته واستمع لنصيحتي باستهانة ـ كعادته ـ ثم نزل من عندي قائلا إنه ذاهب للبيت. وها أنا ذا أعرف أنه لم يفعل؛ ذهب إليها، وقد قرر أن يتبع قلبه الذي لا يمكن أن يؤدي بالمرء إلا إلى المهالك. اسمها غائب الآن عن بالي لكنها، ورغم كل شيء، تصرفت كما يقول الكتاب؛ رفضت استقباله واتصلت بالشرطة. حكايات تكررُ نفسها بلا ملل، بلا رحمة، وربما ـ أستغفر الله ـ بلا معنى. جن جنونه وأخذ يرن الجرس ويطرق الباب بوحشية، وبلا هدف واضح. ينتزع الأوراق التي كان يقوم بكتابتها ويدسها من تحت عقب الباب. هذا مشهدٌ متكرر، تظن وأنت تحكيه أنك تحكي شيئا فريدا، مختلفا، ثم تسمع قصص المحبين العشاق لتدرك أنه لا فرادة هناك ولا غيرة. أستمع للطبيب، يحكي ما أعرفه بالفعل، فيما أرددُ بيني وبين نفسي في شجن قول جميل قديما:

وإن قلت ما بي يا بثينة قاتلي/ من الحب قالت: ثابتٌ ويزيد

وإن قلتُ ردّي بعض عقلي أعش به/ تولت وقالت ذاك منك بعيد

في الحي التاسع عشر بباريس، فرانسوا ميتران يفتتح القبة الجيودية

La Géode وزحام مهول. شجعته على الخروج حرارة الجو في مايو. أراقب الزحام وانزياح الستار عن القبة الزجاجية الأنيقة. وألتفت لأجدها ترنو لي وتبتسم. تشجعني ابتسامة الثغر الدقيق والعينين السوداوين الذكيتين، وأقول بسذاجة، لا لشيء سوى رغبتي في الكلام:

ـ قبة جميلة.

ـ جدا، إنها تصميم المعماري جيرار شاميو. هل تعرفه؟

ـ لا، للأسف.

ـ ولا أنا، لقد قرأت اسمه حالا في كتيب التعريف بالمبني!

تلوح بالكتيب في الشمس، بينما ترن ضحكتها المتهتكة العالية. هنا بدأ كل شيء، مددت يدي مصافحا:

ـ سليمان العطار. طالب دكتوراه في السوربون، في الأدب المقارن، أعيش في باريس الآن منذ ستة شهور.

ـ إيما دوران.

لا جديد حين أقول إن الذاكرة تستعيد ما جرى بطريقة انتقائية، تستعيد الحوادث بالطريقة التي تؤكد وجهة نظرنا فيما سيحدث بعد ذلك. تستعيد الحوارات التي جرت في الماضي في ضوء وعيها بمستقبل الحكاية المتدلي أمامها. لا يمكنني أن أؤكد أن هذا هو الحوار بالضبط الذي جرى بيني وبين إيما دوران لأول مرة أمام قبة جيود عام ١٩٨٥، أما الذي يمكنني تأكيده تماما بلا أدني ذرة شك فهو تلك الاندفاعة التي ستكون السمة البارزة لأدائي طوال عمر علاقتنا القصير. هل لاحظت ما قلت؟ في جملة واحدة دلقت كل تلك المعلومات عنى دفعة واحدة، مثل طفل لا يجيد بعد التحكم في بولته: ماذا أفعل وماذا أدرس وأين ومتى جئت

إلى باريس، كل شيء، في جملة واحدة قلت شيء، بينما لم تزد هي عن قول اسمها، والتبسم في صمت.

ـ تعيشين هنا، في باريس؟

ـ باريسية أبا عن جد.

وتغمز بعينها وهي تلمّ شعرها الأشقر الطويل على هيئة ذيل حصان.

ـ وماذا تفعلين يا باريسية هانم...

تقف بشكل مفاجئ، كأني قلت شيئا ما خطأ، ودون أن تنظر لي تهمس:

ـ أنا شاعرة!

أحكي لها عن ديواني الشعري الصادر في المغرب قبل أعوام، دراستي للموسيقى، محاولاتي في التلحين والأطروحة التي أقوم بتحضيرها هنا في السوربون، عن جنون العشاق وظهور فكرة الهوس في الشعر الأموي.

ويردد الثغر العذب هامسا، فيما يلوح فيه شبح ابتسامة ساخرة، لن أفهمها إلا بعد حين:

ـ جنون العشاق، هذا مثير للاهتمام...

سيحدث ما يحدث دوما بين الرجل والمرأة. يتصور هو أنه لطيف ومبهر وجذاب، وأنه استطاع أن يستولي على انتباهها، بينما غاية الأمر أنها جاءت معجبة، فتفتح لك الباب وتتركك تتكلم، وتضحك لما تقول، وتبدو في عينيها لمعة الاهتمام. أنت ونصيبك، أسبوعا، اثنين، شهرين، خمسين سنة، بلا ضمان، بلا قواعد.

كنت صبيا ساذجا استسلم للبسمة المغوية فتدفق بالحكي، بالكلام، بلا انقطاع. أحدثها عن العصر الأموي، عن تكون مفهوم الدولة المسلمة

وعن تحول الشريعة لقانون. أثر ذلك في الأدب، ظهور مفهوم الهوس في الحب مدرسة كأنها مستقلة في العصر الذي شهد تحول الإسلام لمؤسسة. الحكاية بدأت مع العصر الأموي حين صار الإسلام دولة وشريعة تحكم نفسها وتتوسع فتوحاتها. هنا ظهرت فكرة الهوس في العشق في الشعر العربي باعتباره الهامش الوحيد المسموح له بالخروج عن متن الدولة المستقرة؛ مجنون ليلى وكثير عزة وجميل بثينة، عبيدالله بن قيس الرقيات، حتى عمر بن أبي ربيعة على مجونه كان صورة من صور الهوس.

أربط كل شيء بكل شيء، وهي تعبث في شعرها بعصبية وتبتسم. أترجم لها شعرا أمويا قديما بفرنسية أنيقة طليّة. كان المسكين طلال يظن أن الحاجز بينه وبين صاحبته حاجز لغة أو ثقافة أو شعور بالدونية، فما بالك بمن كان يتحرك بنعومة تامة بين لغتين هما لغته الأم، وقرأ من الكتب أضعاف أضعاف ما قرأته صاحبتُه! حين أدعو إيما دوران أول مرة للبيت تهتفُ في انبهار:

ـ كل هذه كتب؟

فأختال كالطاووس. يحكي طلال حكايته مؤنبا نفسه أنه لم يكن كفؤا لها ثقافة ولا لغة. شعوره المُلحّ أنه نصاب يهيئ له أن رفض أهلها له هو رفض لانعدام التكافؤ، ولعله ليس مخطئا تماما. ولكن ماذا تقول من كانت معرفته في كل شيء تفوق معرفتها. بعد لقاءين أدركت أنها لا علاقة لها بشعر ولا يحزنون، أن محصولها من المعرفة الأدبية لا يتجاوز محصول طالب في المرحلة الثانوية، بل وأن تعريفها لنفسها أنها شاعرة يقع في باب الكذب البيّن. غير أنّ الحب أعمى، وهوس العشاق الذي يبدو لطيفا في كتب الشعر وحكايات الشعراء يتكشف عن جنة تحوي في قلبها جحيما لا يطاق. تُلبي دعوتي للبيت ببساطة، تعلق على نظافة المكان وترتيبه ضاحكة:

ـ متأكد أنه لا توجد امرأة في حياتك؟

أعتبر سؤالها غيرة غير مباشرة وأشعر بالبهجة الطارئة، وتولد مشاعر الحب في بوتقة من الجموح والطرب. أتحدث في حماس عن الشعر، أنتقل من الشعر الأموي لشعر فرسان القرون الوسطى، من أراجون وعيون إلزا لصولات ابن أبي ربيعة في مضارب البيت الحرام. هل كانت رغبتي في إبهارها، مثل المراهقين، وكل عاشق هو مراهق بالضرورة. هل كان استمتاعي بملامح وجهها المأخوذة بي وهي تسمعُني. هل أحببت إيما دوران، أم أحببت صورتي في عينيها. أستعيد عبارة الرجل الطيب الموهوب، من حسن الحظ أن هناك يوما للقيامة نقف فيه أمام من هو بكل شيء عليم، وهناك سنفهم كل ما حدث، فأشعر ببعض العزاء.

أتحدث وأتحدث، فكيف لم أنتبه لتعليقها، الذي سيكون ملخصا مفيدا لكل ما سيحدث بعدها، حين تقول:

ـ هذا كلامٌ جميل ليقرأ في الكتب، لكنه لا يصلح للحياة.

هذا غفلت عنه. لكني انتبهت وأنا أقرأ شعر مالارميه، لوجهها وهو يتورد. تغمض عينيها في نشوة، نشوة يمكن لي ـ حتى وأنا القادم من بلاد المغرب بلا تجربة حقيقية ـ أن أعرف مبعثها. أمد يدي لأقطف الثمرة الرطبة فتسقط في يدي دون أي مجهود. يذوب لساني في فمها، يذوب وجودي في الجسد المبلل بالرغبة، أكتشف أن كل ما قرأناه ودرسناه في الشعر ليس أكثر من استعارة باهتة لحقيقة راسخة تضج بالحيوية، وأن مبالغات الشعراء لها في الواقع أصل ثابت أقوى من أي مبالغة، وأن جنون الشعراء يمكن، بالبيولوجيا أو بأي طريقة أخرى غامضة، فهمه وإدراكه وتفسيره.

نتهي، وحين أنظر لها، ولجسدها الشاهق البياض الممدد إلى جواري في امتنان، تقول بما يشبه تأنيب الضمير:

ـ لا أريدك أن تحبني يا سليمان.

ولكن ما كان قد كان، يا صغيرتي إيما دوران!

* * *

قال كم يدوم نعيم أهل الجنة، قلت عشرة أيام في صيف ١٩٨٥. عشرة أيام أقطف فيها من التفاح الملعون نشوانا لا يزيدني التهامه إلا جوعا. أغني لها من نغم صاحبي الذي لم أكن عرفته بعد، يا قمر ليلي، يا ظل نهاري، يا حبي، يا أيامي الهنية. نذهب معا إلى مقهى الشعراء Club des Poètes كما سيذهب طلال بعدنا بسنين. نعود معا ضاحكين. أنام إلى جوارها، وحين تستيقظ في وسط الليل وتجدني أحدق فيها تقول:

ـ حبيبي، ألا تنام؟

ـ أنا أحبك..

ـ وأنا أيضا أحبك، لكن ينبغي أن ننام قليلا.

ثم يبدأ ما نعرفه جميعا، الامتعاض، الشكوى من كل شيء، الشعور الدائم بالتضرر كأنها ترغم نفسها عليك إرغاما. إن هي إلا حكاية واحدة تتكرر من بدء الخلق إلى آخره، تنويعات على لحن واحد، يبدأ عاليا ثم يبوخ فلا يبقى منه سوى حشرجة الآلات في آخر اللحن. تقول في بساطة وصراحة:

ـ لقد مللت»

ـ منّي؟

ـ من كل هذا.

يؤنب طلال نفسه على ما فعل وعلى ما لم يفعل، ويشعر بالغيظ منها على منحها إياه الأمل ثم سلبه منه، يعُدّ أيام العلاقة، أسابيعها وشهورها، فما قولك في إيما دوران التي كانت سريعة في كل شيء، واضحة وباترة، وفي علاقة لم تدم أكثر من أسبوعين! كيف يمكن لهذه النزوة العابرة أن تزلزل حياة كاملة من أركانها فلا تبقي منها على شيء. كل شيء عاشه ورأيته في وجهه عشته من قبله، حتى محاولته الاتصال بها فعلتها من قبل، ووقفتها الصلبة بالباب تقول في وضوح.

ـ لا تحاول الاتصال بي ثانية، لا تضطرني لما لا أريد...

ـ هل تعنين..؟

ـ أعني ما فهمت!

وينغلق الباب للأبد. لم تكن لدي جرأة طلال ولا اندفاعه، ولعلّ هذا أنقذني من تلك التداعيات المفزعة، غير أن الألم الذاهل، ومحاولات التجاوز ـ تجاوز هه؟ ـ البائسة تتشابه بشكل مثير للرثاء. المشي في شوارع باريس بلا هدف ولا وعي، ثم اللقاء بالرجل الطيب في المطار، كما سيحكى هو تفصيلا في بعض أوراقه، ثم صحبته تلك الأعوام القليلة التي كانت رحمة وعزاء لما عشته. أستعيد عبارته الحكيمة:

«إن ما حدث لي ولك مجرد عرض لمشكلة أصيلة كامنة فينا. ربما نكون قد أحببنا بطريقة ليس في وسع امرأة احتمالها، وربما تم استغلالنا بقصد أو بغير قصد، غير أن العلة والاستعداد لكل هذا كانت موجودة فينا قبل أي شيء، وكل ما حدث هو مجرد إشارة لهذا الاستعداد».

ثم يقف ويخبط على كتفي بطريقته المميزة وهو يقول في سعادة:

ـ ذاك لأننا فنانون يا سليمان، هل تفهم، فنانون!!!

ثم يضحك في سعادة وهو يتقافز بخطوته السريعة.

كلما استبد بي الألم المُلحّ قلت لنفسي متعزيا، هوّن عليك؛ حتى بليغ حمدي لم تنفعه موهبته ولا خبرته بالحياة في الإفلات مما تعانيه!

أُوقّع على أوراق المستشفى باستلامه على مسئوليتي، آخذ الأدوية والروشتة ويناقشني الطبيب المصري بقرف في التشخيص وضرورة المتابعة مع أخصائي بعد ذلك. أخرج به من المستشفى وحين يلفحنا هواء الشارع البارد يقف، يخرج سيجارة بطريقته السينمائية ويشعلها ويقول بصلافة:

ـ هذه هي تصرفات إلهك الذي تزعم أنه رحيم. لو كان...

فلا أتركه يكمل عبارته. ألطمه على وجهه حتى ينتهي هذا الفصل المراهق من الحكاية للأبد. ثم أنظر له بهدوء. كسرتك التجربة يا طلال وأطفأت روحك. ينظر لي وقد روعته اللطمة ولكنه لا يتكلم. يسير بجواري منكسرا فأضع يدي حول كتفه وأقول باسما

"Il est du veritable amour comme de l'apparition des esprits, tout le monde en parle, mais peu de gens en ont vu"

يلوح عدم الفهم في العينين الساذجتين فأضحك وأقول شارحا:

ـ حين تتحسن فرنسيتك يا مصري يا مجنون ستفهم. هذه عبارة لـ فرانسوا دو لاروشفوكو من كتاب مهم، هو «تأملات ومواعظ وأمثال أخلاقية» والمشهور باسم كتاب «الأمثال» Les Maximes لا بد أنك ستدرسه حين تنتظم في السوربون. شد حيلك يا بطل.

* * *

كسرتك التجربة يا طلال ولكنك لن تموت. أول ما يدخل يتأكد من اتصال الهاتف بالإنترنت ويتصل بأمه. يكاد يبكي ولكنه لا يحكي لها شيئا

بالتفصيل وحين يحادثها برغبته في الرجوع لمصر أفهم أنها تطلب منه البقاء حيث هو. أبوه وأخته معتصمان في الميدان مطالبين بعودة مرسي رئيسا لمصر ولكن الأوضاع غير مطمئنة. يصيح فيها بعصبية

- مرسي يرجع؟ يا جماعة اعقلوا الكلام..

أتركه يواصل مكالمته وأعد له شيئا يأكله. ماذا بقي من كل شيء، حكاية مبتورة، رسالة دكتوراه غير مكتملة وأشعار العصر الأموي التي لا تزال ذاكرتي تحتفظ بها لتذكرني بالمحبوبة البعيدة. ترى أين أنت الآن يا إيما. أكداس من الأوراق وشرائط الكاسيت والنوتات والمذكرات والكراسات القديمة بخط الموسيقي العظيم، الراحل. قرابة عشر كراتين تركها لي داخل تلك الغرفة المغلقة، إضافة لصور قضيت عامين في جمعها من أصحابه ومعارفه وكل من كان على صلة به.

ينهي مكالمته ويخرج ويأكل ويلقي جسده المنهك فينام بلا كلمة. طحنتك التجربة يا طلال لكنك لن تموت. أتأمل الرواية التي كتبها، الثقة التي يحكي بها، الفصول التي يُصدرها بكلمة «اعلم» قدرته على تخيل بعض المواقف كما حدثت بالفعل وكما وصفها صاحبها، والتشابهات المثيرة للتأمل والشجن بين حكايته وحكاية بليغ نفسه.

أخرج خطاب القاضي من جيبي وأفتح باب الغرفة وأضعه فوق واحد من الكراتين المغلقة. أفكر، لا بد أن أنظف الغرفة قريبا مما يعلوها من تراب، وأفكر، هل أخبره الآن بأن الحكاية بكاملها تقبع على بعد نصف متر. هل أفتح له باب الغرفة وأتركه يقرأ كل شيء، أم أنتظر قليلا، أم أصمت للأبد!

ويستولي علي يقين أن الرجل الطيب سيأتيني في المنام ويخبرني بما ينبغي عليّ فعله.

«لـو أنك تأملت يا سـليمان يا صاحبي، لوجدت أن سـيرة الفتى وموسـيقاه يمكـن تلخيصهمـا في ثـلاث كلمـات: الصدفـة والبهجة والسبوبة... أولا، الصدفة وهي الموهبة الموسيقية القادمة من المجهول، النغمـة السـاحرة التي لا تعـرف لها مصدرًا. شيء غـير خاضع للعلم ولا للتخطيـط المسبق، غـير قابل للتفسـير... ننتقل مـن الصدفة إلى البهجـة، كل أغانيـه وخصوصًا في البدايات كانت أشـبه بما يعزف في الملاهي والبارات للأجانب، «Jingle» بسيط لطيف... هنا نصل للكلمة الأخيرة، السبوبة، هذه يا سليمان، دماغ شخص سبوبجي، نحتجي، لا يلقي كبير بال لفكرة أنه ملحن كبير أو موسيقار بالمعنى الرسمي. إنه النقيض التام لما يفعله عبد الوهاب مثلا في الموسيقى».

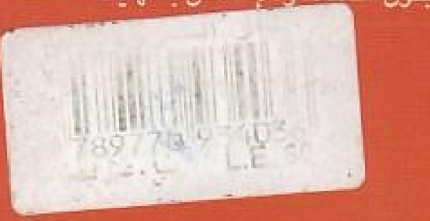
يلملم الكاتب الشاب طلال فيصل تفاصيل صغيرة من الشوارع والوثائق التاريخية ومن حكايات من عاصروا بليغ و قصة حبه الشهيرة لوردة الجزائرية، وكذلك نهايته المأساوية، ليصنع منها بنيانًا روائيًا محكمًا يتعرض فيه لحياة الموسيقار الكبير بليغ حمدي وتقاطعها مع حكاية الـراوي الذي يكتب عنه، مطاردًا بين الهوس ومحاولة تقصي أثر سيرة هذا الموسيقار العظيم.

يـدور الكثير مـن أحداث روايـة «بليغ» بين باريس ومـصر، ليخرج لنا المؤلـف رواية تنتمـي للوقائع الحقيقية وللبحث التاريخـي، بقدر ما تنتمي لخيال كاتبها ورؤيته.

---



**طلال فيصل:** روائي مـصري من مواليد عام ١٩٨٥. بعد انتهائه من دراسـة الطب التحق بكلية الآداب قسم الفلسفة، ثم سـافر في بعثة لاستكمال دراسة الطب النفسي في ألمانيا. صدرت له روايتان «سيرة مولع بالهوانم»، و«سرور» التي فازت بجائزة ساويرس عـام ٢٠١٥. بالإضافـة لعـدة كتب مترجمـة منها: «كرامة: رحلات في الربيع العربي»، و«جنون المتاهة»، و«الإحساس بالنهاية».



دار الشروق
www.shorouk.com